مكتبة سُر مَن قرأ

رواية

آنا ماريا شوا

ترجمة: فدوى درويش

الابنة

آنا ماريا شوا

telegram
@soramnqraa

بدقّة متناهية وبواقعية رائعة، تصوّر آنا ماريا شوا ثلاثة أجيال من النساء على خلفية حياة المنفى، وفي بلد تسوده اضطرابات سياسية وإرهاب داخلي وحكم ديكتاتوري، حيثُ تجري الأحداث في الأرجنتين وباريس وأمريكا خلال حقبة زمنية تبدأ من سبعينيات القرن الماضي.

الابنة هي روايتان في رواية واحدة. فقد اعتمدت تقنية إبداعية متميزة، حيث تتخلل فصول الرواية يوميات للكاتبة حول كواليس كتابتها للرواية. تكشفُ من خلالها الشكوك التي ساورتها أثناء تأليف العمل، وتوضّح للقارئ المرجعيات التي استمدّت منها الشخصيات، وبعض المواقف المتزامنة مع سير أحداث الرواية.

- بتعاملها العبقري مع النص، جعلتنا شوا نشارك الأمومة أفراحها وقلقها. (صحيفة كلارين الأرجنتينية)

- الابنة هي، بلا شك، واحدة من أفضل الروايات، لواحدة من أفضل الكتاب الأرجنتينيين المعاصرين. (صحيفة إن لينا نوتيسياس الإلكترونية)

ISBN 978-9921-712-45-2
9 789921 712452

دار الخان للنشر والتوزيع

@DarAlkhan_kw info@daralkhan.com جميع الحقوق محفوظة

الابنة

آنا ماريا شوا

Author: Ana María Shua

Daughter

© Copyright

Translated from English by:
Fadwa Darwish

Designed by:
Sarwar Murad

ترجمها من الإنجليزية:
فدوى درويش

تصميم الغلاف والإخراج الفني:
سرور مراد

الطبعة الأولى | سبتمبر 2021

ISBN: 978-9921-712-45-2

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية - دولة الكويت:

0708-2021

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر

© Alkhan Publishing & Distribution

+965 99462291 / +965 51088000

@DarAlkhan_kw info@daralkhan.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رواية

الابنة

آنا ماريا شوا

ترجمة

فدوى درويش

2021

Author: Ana María Shua

Daughter

2021

تتضمن هذه الرواية يوميات حول كتابتها، إنها تدوينات غير ضرورية، ولكنّها قد تكون مثيرة للاهتمام. وقد تمّ طبعها بخط مختلف؛ حتى يتمكّن القراء من تجاهلها إن أرادوا ذلك.

على متن السفينة

كانت السفينة ضخمة ومهولة مثل الموت. إن نظرتَ إليها من جهة المرسى، ومن الجوار، ومن الأسفل، سترى أنَّ الجانب الأكثر إثارةً للإعجاب هو الارتفاع الهائل لهيكل السفينة. عانقت إزمي والديها مرّة أخرى، على أمل أن يغادرا وإلى الأبد، لكي تتمكّن من البدء في استكشاف السفينة وتختصر الوداع. كان غيدو منبهراً بالمقصورة، بالتفاصيل المدروسة وبالأثاث ذي المقاسات الصغيرة والمرتّب بعناية فائقة، وبالأسرّة ذات الطابقين، القابلة للطي، وبباب الحمام الذي يتحول إلى باب خزانة، والتناسب بينها. تمّنيا لو كانت هناك كوّة، لكنَّ الغرفة كانت تحت سطح الماء.

وصل راميرو، مؤلف الإعلانات من وكالة الإعلانات التي تعمل إزمي فيها، وهو يلهث، وشعره الممَوّج يتطاير. لقد تمكّن بطريقة ما من طلب الإذن للصعود إلى السفينة، وهو يلوّح بشيكٍ مصرفيٍّ في يده، قائلاً:

«لقد استطعت العثور على ذلك السافل بيلاوستيغي، ليدفع

لنا أجرنا مقابل العمل الحرّ الذي قمنا به».

قالت إزمي: «أرسلْ الشيك إلى السفينة! يا له من ابن عاهرة. لكنني سأقوم بصرفه على أيّ حال». وقّعتْ على الشيك وسلّمتهُ إلى والدها، وقد شعرت الآن بالامتنان الشديد لوجوده.

كان الكثيرون من الناس يغادرون بهدف الهجرة نهائياً. يمكن معرفة ذلك من كمية الأمتعة. لم يكن غيدو وإزمي متأكدين بعد، فيمكنهما دائماً العودة إذا أرادا ذلك. كانت هناك بعض الوجوه المألوفة. زميلٌ في مدرسة إزمي، يجلس فوق كومة من الحزم التي لا شكّ في أنه سيضطر إلى وضعها في المخزن، ومحامٍ يعرفه غيدو. عابرة المحيط هذه، التي اعتادت عبور البحر معً حمولة من الرجال والنساء في سن معينة، وأشخاصٍ لديهم الكثير من الوقت والمال لاكتشاف أوروبا، أو إعادة اكتشافها، وكذلك مهاجرين أرادوا عكس الرحلة التي قطعوها في الأيام التي كانت فيها الأوهام أكثر من النقود، تحمل الآن في بطنها المعدنيٍ العديد من الأزواج صغار السن، بعضهم معهم أطفال رضّع أو أطفال صغار يتجولون بين الحبال، متحمسين، وخائفين، غير مكترثين بصراخ آبائهم وأمهاتهم.

«جميعهم لديهم أطفال»، قالت والدة إزمي معلّقة على كلام ابنتها التي فهمتها، وامتعضت منها أيضاً.

قال والدها في عناقٍ أخير: «إزميرالدا»، حيث كان يناديها باسمها الكامل فقط عندما يكون غاضباً جداً أو عاطفياً جداً.

في يومها الثاني في عرض البحر، كانت إزمي لا تزال تشعر بالدوار من حركة السفينة، ولكن ليس بقدر شعورها بالخوف. الحجم الهائل للوحش المعدني جعل التموج أقل وضوحاً. من ناحية أخرى، منحها الوقوع في الحصار الهائل للمحيط شعوراً بالخوف من الأماكن المغلقة.

كانت السفينة تتألف من ثلاثة طوابق، يوجد في كلّ طابق، حمّام للسباحة خاص به، وغرفة طعام، وأماكن ترفيهية. حاول كلّ من غيدو وإزمي إلقاء نظرة خاطفة على غرف الدرجة الأولى، لكن الضوابط الصّارمة كانت تمنع الاختلاط بين الفئات المختلفة. على الأقل ليس صعوداً. لكنهما لم يواجها أيّ مشكلة في زيارة أقسام الإقامة من الدرجة الثالثة، والتي لم تبدُ لهم مختلفة كثيراً عن الدرجة السياحية. كالعادة، كان للأثرياء الحقّ في حشر أنوفهم في غرف الفقراء، ولكن العكس لم يكن مسموحاً به، على الرغم من عدم وجود فقراء حقيقيين في المكان. بالطبع، في الدرجة السياحية، لاحظ الجميع مقدار المتعة التي كانوا يستمتعون بها مقارنة بأولئك المقيمين في الدرجة الأولى، مع متطلبات اللباس الرسمي السخيفة أثناء وجبات الطعام. كانت توجد صالة سينما، صالة سينما حقيقية بشاشة كبيرة وأكثر من مئة مقعد. بالإضافة إلى توفّر رياضة إطلاق النار على السكيت في كل صباح، لكنهما لم يستيقظا

مبكراً بما يكفي لكي يشاركا فيها. في منطقة يمكن لجميع الفئات الوصول إليها، كان هناك معرض تسوق، بدا لهم ضخمًا ومجهزًا بشكل جيد، تقريباً مثل الشارع الفعلي حيث يمكنك شراء الملابس من الماركات الفرنسية، والأحذية والمحافظ الإيطالية، والشوكولا والساعات السويسرية، والأوشحة الحريرية، ويمكن دفع ثمنها بالدولار أو بالليرة الإيطالية. ولكن بعد استكشافه عدّة مرّات، أدركَ غيدو وإزمي أنه في الحقيقة لم يكن سوى نموذجٍ صغيرٍ لشارع، وليس فيه سوى أربعة أو خمسة متاجر.

لم يكن غيدو مناضلاً، في يوم من الأيام، ولكنّه مع ذلك كان ماركسيًا نظريًا صارمًا، متحمسًا حماسة أصلب المناضلين، ولم يكن يصبر كثيرًا على مظاهر الترف، لذا لم تكن هناك حاجة إلى الخضوع؛ وكان من الهامّ البقاء على مسافة كافية منها.

الأهم من ذلك، كانت هناك وجبات طعام. وجبات إيطالية متنوعة ووفيرة. وجبات العشاء هذه كانت لها سمات معينة. في أحد الأيام، تمَّ تزيين غرفة الطعام الخاصّة بالدرجة الثانية (المشار إليها باسم «الدرجة السياحية») لتشبه نُزلاً إسبانيًا، وفي يوم آخر، تمَّ تزيينها بشِباك وصنارات صيد لتصبح مثل مطعم على رصيف ميناء. وارتدى النُدُل قبعات وقمصان مخططة، مع أوشحة حول خصورهم، ومناديل تزين أعناقهم، وسترات مطرزة بالترتر، لقد كانوا في كل مرّة يرتدون ملابس مختلفة، مثل ملابس الجندوليري أو الأباتشي الفرنسية أو

مصارعي الثيران. كان هناك مقبلات باردة، بشكل عام تشكيلة من مقبلات أنتيباستو، وتشكيلة من أنواع المعكرونة الأكثر طلبًا، اللذيذة والقليلة الاستواء، بالإضافة إلى الطبق الرئيسي، وطبق الأجبان، وفاكهة، وحلوى. ويتم تقديم الخبز الطازج مع الإفطار كل صباح. وفي فترة ما بعد الظهيرة، يحضّرون الشاي مع الكعك والحلويات. بعد غداء مثل هذا، كان عدد قليل جدًا من المسافرين في حالة تسمح لهم بالاستمتاع.

كان الإعلان عن أوقات الوجبات يتم بلحن حيويّ وجذاب، حيث يبدأ بالفعل في تنشيط الغدد اللعابية بحلول اليوم الثاني.

في كل صباح، كان يتم توزيع نشرة عن آخر الأخبار عبر قنوات الكيبل، في جميع أنحاء المقصورات. في اليوم الثاني، أفادت إحدى البرقيات أنه تم العثور على عشرين جثة فُجِّرت بالديناميت على طول شاطئ لاكوستانيرا في بوينس آيرس. ما يقارب عشرين جثة. وقالت البرقية الإخبارية إنّ الجثث قد صُنّفت على أنّها مجهولة الهوية أو «بلا اسم» نظرًا لاستحالة التعرّف عليها.

لقد كان كلّ ذلك ممتعا! ثلاثة عشر يومًا في الطريق إلى لشبونة. كان أحد معارف محامي غيدو، والذي يقارب الخمسين من عمره، مسافرًا مع ماوسي، وهو طبيب نفساني -وبصدفة محضة- كان من أقرباء إزمي البعيدين. كانوا

متوجهين إلى برشلونة، بهدف الاستقرار في بلدة سيدجيس.

أصبحت البلدة الكتالونية بمثابة مكّة بالنسبة للأرجنتينيين.

كانوا يتناولون الغداء والعشاء معًا كلّ يوم. ماوسي امرأة طويلة القامة ونحيلة ذات شعر قصير جداً وأناقة ساحرة، تشي بها كلّ ملامحها. تُعدُّ من بين أفراد عائلة إزمي، امرأة فاضحة. عندما تطلقت ماوسي في المرة الأولى، تركت أطفالها مع زوجها، وقد كان قرارًا صادما لا يمكن تصوره. إذ كيف يمكن لأم أن تحرر نفسها من أطفالها؟ لن تستطع، ولن تفعل ذلك، وإلا لن تكون أمًا حقيقية. كان المحامي الذي تسافر معه إلى أوروبا هو شريكها الثالث. سمعت إزمي نساء أخريات من الأسرة يتحدثن عنها بمزيج من الرعب والإعجاب والنبذ والحسد.

بدت ماوسي مشبعة بأفكارها النسوية إلى درجة كان من الصعب معها عدم مضايقتها قليلًا

تظاهرت إزمي بأنها شابّة خجولة وخاضعة لأوامر غيدو حرفيًا. حثتها ماوسي على التمرّد بخطب طويلة ومفيدة، حتى إنَّ الزوجين كانا يقلدانها وهما يصرخان في مقصورتهما، ضاحكين.

قبل بضعة أشهر، قُتل أحد أطفال ماوسي في محاولة فاشلة للفرار، أثناء نقله من سجن سييرا تشيكا. وكانت ابنة أخرى من زواجها الأوّل قد هربت في الوقت المناسب وعاشت في

المكسيك. بعد تهديد السلطات، قرّرت ماوسي الذهاب إلى إسبانيا مع إدغاردو، تاركةً طفلة تبلغ من العمر خمس سنوات مع زوجها الثاني.

(أي نوع من الأمهات هي؟). كما تعرّض إدغاردو إلى التهديد لدفاعه عن زعيم نقابي.

مع وجود عدد كبير من الشباب كان الجوّ على متن السفينة مفعماً بالحيوية. تقام الحفلات الراقصة كلّ ليلة تقريباً. عزفت الفرقة الموسيقية نفس الكلاسيكيات المشهورة مرارًا وتكرارا، والتي تلقوها بضجر وبلا مبالاة، بينما رقصَ الركّاب على أنغامها بحماس. كانت هناك أيضاً سلسلة من الطقوس المحدّدة مسبقاً، والتي لم تكن جديدة بالنسبة للطاقم، ولكنّ الركاب كانوا يعيشونها للمرة الأولى -وربما الوحيدة- في حياتهم. جرت طقوس عبور خط الاستواء ظهرا. كان العديد من الركاب يرتدون ملابس تنكرية.

تظاهرت إزمي بأنّها تريد المشاركة، وتظاهر غيدو بمنعها، وبذلك فقد أثارا لدى ماوسي واحدة من أفضل الحجج النسوية. ومع ذلك، بدأ شريكها في الشكّ.

كانت طقوس عبور خط الاستواء عبارة عن إلقاء مسافرات يرتدين ملابس غريبة مثل ملابس البولينيزيين (التنانير القصيرة المصنوعة من العشب والكريب الورقي)، في حوض السباحة. تعاونوا بسرور وهم يضحكون ويصرخون. بطبيعة الحال،

كانت مونيكا من أوائل اللاتي سقطن في الماء.

ستيرنبرغ... لقد عرفتها إزمي حين ذهبت إلى المخيم مع شقيقي مونيكا. كان أليخو ستيرنبرغ الأصغر قد ترك دراسته في الاقتصاد ويعمل الآن في غسل الأطباق في مدينة مالقة. كانت مونيكا رائعة. في كل صباح، تُشكل مجموعة من الرجال، بما في ذلك غيدو، حلقة في قسم الدرجة الثانية (السياحية) لمشاهدتها من الأعلى، وهي تلعب كرة الطاولة في قسم الدرجة الثالثة مرتدية البيكيني.

أمّا الأخ الأكبر، غييرمو، فقد اختُطف من منزله ذات ليلة. قال الناس إنه، مثل كثيرين آخرين، محتجزٌ في مكان تابع للقوات البحرية. وقيل إنه تعرض للتعذيب، ولا يزال على قيد الحياة. كان المرور من أماكن معينة في بوينس آيرس، أمرًا غريبًا ومقلقًا، كأن تمرّ من جانب بعض المباني، أو المرور من أمامها بالسيارة، وأنت تعرف أنَّ أصدقاءً أو أقارب أو معارف لك معتقلون هناك، بعد أن تمّ خطفهم وتعذيبهم، لكنهم ما يزالون أحياء.

كانت إزمي تحسد مونيكا على خصرها وعينيها الخضراوين، كما تحسدها على معاناتها لمعرفتها أن شقيقها قد اختفى، بدلاً من اليقين الراسخ بجثة أختها التي مزّقها الرصاص، والتي وجدوها في مشرحة المحكمة. لا شك في أن أولئك الذين فُقدوا، في غضون سنوات قليلة، سيتمّ الاعتراف

بوجودهم في المعتقلات، وبالتالي محاكمتهم، أو ربما إطلاق سراحهم على الفور.

تمّ الإعداد لكلّ شيء على متن السفينة بعناية من أجل متعة الركاب، بما في ذلك المغامرات المثيرة للمسافرات مع أفراد الطاقم. يبدو أنه تمّ اختيار الضباط على متن السفينة على أساس جاذبيتهم. فقد كانوا جميعاً طِوال القامة، مع قصات شعر أنيقة ومظهر لا تشوبه شائبة. بدوا بالنسبة إلى إزمي، غير واقعيين إلى حد ما، كانوا بقمصانهم البيضاء الناصعة وابتساماتهم المشرقة، على أهبة الاستعداد دائمًا. ويتحدثون بلغة إيطالية ساحرة، أو يغنون أغنية إسبانية تفضّل النساء سماعها بهمسات في آذانهن. بدا القبطان محصنًا، ولكن ترددت شائعات بأن الضابط الأول قد وقع ضحية لجاذبية ستيرنبرغ التي لا هوادة فيها. كان هناك عدد قليل نسبيًا من الضباط، ومن ثم، لم يكن من السهل عليهم الاهتمام بالعديد من النساء المسافرات، المتحمسات، بالشكل المطلوب، لكنهم ضاعفوا جهودهم وعملوا المعجزات. أو هكذا قيل عنهم.

عانت إزمي من الكوابيس. ذات ليلة حلمت برؤية جثث ملطخة بالدماء تنزلق عبر الكوة. مطر من القتلى يسقط في الأعماق بسرعة مستحيلة مثل قذائف مدفعية بشرية، كما لو كانوا يطلقون النار من مدفع على ارتفاع مستهدفًا قاع المحيط. سمع غيدو صراخها ونزل من سريره لكي يهزها. عندما استيقظت، كان الكابوس لا يزال مخيمًا

عاجلًا أم آجلًا، ومن أجل المتعة والترفيه، يحتاج الناس إلى لعب المباريات فيما بينهم، أو على الأقل مشاهدة الآخرين وهم يتبارون. بالطبع، تم توقع هذه الحاجة الإنسانية بشكل كاف. بالإضافة إلى لعبة الرماية (السكيت) الشهيرة، والتي قرر غيدو وإزمي مشاهدتها كلّ مساء لينسياها في الصباح، كانت هناك أنواع أخرى من المسابقات، مثل مسابقات الرقص، ومسابقات الأزياء، وعروض المواهب، وبطولات لعبة الورق تروكو، ومسابقات في لعبة كاناستا، وطاولة الزهر، ولعبة السكريبل، ولكن لم تكن توجد لعبة البوكر. تفحصت إزمي وجوه جميع المشتركين، محاولةً تخمين السيّاح من بينهم، السيّاح الحقيقيين، الذين سيعودون إلى البلاد بعد أسابيع قليلة من المرح في أوروبا.أحيانًا كانت تظن أنها لا تستطيع التعرف إلى أيّ شخص. في مسابقات الأزياء، ذهبت جائزة معظم الأزياء المبتكرة إلى شاب ذي عينين لامعتين يرتدي زيًا على شكل كرسيّ قابل للطي. كان زميلها الذي تعرفت إليه في المرسى مع زوجته وطفلهما.

لم يكن لزامًا عليها أن تسأله عن أيّ شيء. كان زملاؤها في المدرسة الثانوية يسقطون مثل الذباب، مثل النمل، مثل الصراصير، لكنهم بقدرة أقل على النجاة. عندما كانت فتاة صغيرة، كان والدها في وقت الكرنفال يُلبسها هي وأختها ملابس لتبدوا كضحايا حادث، مع ضماداتٍ موضوعة بعناية ومُلطخة بالكاتشب، وربطِ أذرعهما بحمالات، لتمثيل العرج،

وكانتا تنضمان إلى الحشود في الشوارع أمام نظرات الشفقة من قبل السيدات اللائي كن يتفاجأن ويسألن عمّا حدث للفتاتين الصغيرتين المسكينتين. الآن لم تعد فكرة ارتداء ملابس لتمثيل دور ضحية حادثاً يروق لها، وكما هي الحال مع العديد من التسالي في مرحلة الطفولة، وجدت صعوبة في تذكّر سبب كونها مضحكة في ذلك الوقت. مكتبة سُر مَن قرأ

أمضت إزمي ساعات طويلة في القراءة على سطح السفينة، مستلقية على أريكة باسترخاء، وساقاها مغطّاتان بلحاف مع أنَّ الجو كان دافئاً. لقد كانت وضعية غير مريحة بعض الشيء، لكن الأدب والسينما أضفيا عليها سحرًا. فقد تشاركا، هي وغيدو، الشغف بالسينما في الصالة الصغيرة على سفينة المحيط، التي كانت ممتلئة دائما والتي سحرتهما وأغرتهما. كانا يذهبان كلّ يوم لمشاهدة أفلام الأطفال. خلا برنامج السفينة من الأعمال الدرامية، واقتصر على الكوميديا وأفلام الأكشن. ربما لم يكن خيارهما الأوّل، لكن حتى هذا كان ممتعًا بالنسبة إليهما، وليسا بوارد الاضطرار إلى الاختيار. حاولت إزمي تجنب النظر إلى البرنامج اليومي حتى يكون بمثابة مفاجأة لها، فتجلس وتشاهد الشاشة بخيال فتاة صغيرة.

في فيلم واحد عنيف للغاية، تخلّى شرطيان من كاليفورنيا عن كلّ محاولات البقاء ضمن القانون من أجل محاربة الشر بأسلحة الشر. لقد كانت قصة ذات مغزى، تُسوِّغ العواقب الحتمية للعمل خارج القانون من أجل الدفاع عن القانون، مثل

فيلم هاري القذر، الذي قدّمه الممثل كلينت إيستوود قبل بضع سنوات، والذي لم يكن من الممكن تصوره من قبل الجيل السابق، حيث كان الأبطال، على الأقل في الأفلام، دائمًا ملتزمين بالقانون وعادلين وخيّرين. في أحد المشاهد يركل فيه المحققون باب الشقة وينهالون بإطلاق النار من مدفع رشاش. شعرت إزمي بالغثيان، ولا شك بسبب اهتزاز السفينة، فاضطرّا إلى مغادرة صالة السينما. هبت ريح قوية، ودخلت السفينة إلى خليج بسكاي، حيث يكون البحر دائمًا هائجًا. أعطاها غيدو حبوب درامامين، وجعلها تستلقي على السرير ذي الطابقين، حتى يحين وقت العشاء.

رست السفينة في لشبونة. قبل فترة ليست بعيدة، كانت ديكتاتورية كايتانو خليفة سالازار قد سقطت، ولأوّل مرّة منذ ثمانية وأربعين عامًا، صوّت البرتغاليون في انتخابات حرّة. أكثر ما صدم إزمي وغيدو هو الشعارات السياسية المكتوبة على الجدران، مما أعطى المدينة مظهرًا قذرًا ومهملًا. ذهبا إلى الحديقة النباتية، ثم عادا إلى السفينة في الوقت المناسب. نزل الجميع تقريبًا في إسبانيا. في ميناء برشلونة، أودعت السفينة «أوغينيو سي» حمولتها من الشبان الأرجنتينيين الخائفين والمتحمسين، والسعداء لأنهم على قيد الحياة، وسعداء بوصولهم، وتمكنهم من الهروب مشوهين. الشباب يعني السعادة.

يوميات ١

أقوم بقراءة كتابٍ أعطتني إياه لوسيا، أنها تجيد انتقاء الكتب. عنوان الكتابً HhHH وهو عنوان جريء، مؤلفه كاتب فرنسي، اسمه لوران بينيه.

أحداث الكتاب تدور حول الهجوم الذي وقع عام ١٩٤٣ على رئيس الجيستابو، هايدريتش، في براغ. إنّه كتاب تاريخي بحت ولكن...

ولكن الكتاب أكثر من ذلك، أو بالأحرى هو شيء آخر، لأنَّ مؤلفه بينيه يقدم الحقائق التاريخية، ووصفًا للمستندات جنبًا إلى جنب مع تحقيقاته الشخصية الموجودة في مذكراته التي لا يبخل فيها بعرض المشاعر، والإخفاقات والأحاسيس.

أتساءل إن كان من الممكن تحقيق شيء مماثل في عملٍ خيالي. فالعمل الخيالي منسوج كالأحلام، حيث إنّكَ لا تحلم بأشياء لا تعرفها، فالحلم هو إعادة ترتيب للأفكار التي تراودك حينما تكون مستيقظًا

المُبتكَر: هو لا شيء، عملياً لا شيء. هو بناء يستند على المواد القديمة نفسها، المشتقة بدورها من هياكل محددة سلفًا بالمعتقدات. كالإسبان في العالم الجديد الذين دمروا معبدًا وثنيًا ليستخدموا حجارته في تشييد كنيسة.

المُبتكَر: ربما هو بعض الترابط الطفيف الجديد بين الأجزاء، انحراف طفيف عن معاييرٍ معينة يجب أن يتمّ التحكم بتطبيقها.

كما في الأحلام: ليس المبتكر أكثر من توليفة من العوامل المختلفة، مع ذلك تتغيّر النتيجة مرارًا وتكرارًا.

هل سيكون من الممكن عندها كتابة رواية تقوم بتوثيق عملية بنائها؟ ومجموعة من المعلومات إضافة إلى المشاكل والصعوبات التي واجهها الروائي؟ جزئيًا لن تكون المرّة الأولى بالطبع. في إعادة كتابة تاريخية كالتي كتبها بينيه، تكون الأحداث معروفة سلفًا. فحتى إن لم يعلم القرّاء تفاصيل الأحداث، فهم على دراية بالنتائج من قبل. هذا يُفسِحُ المجال للكاتب لكي يبدي ملاحظات غير محدودة عمّا سيجري بعدها دون الخوف من إفساد عامل التشويق الذي يتم الحفاظ عليه (وبصورة مثالية) عن طريق أدوات أخرى. بالمقابل، وفي عمل خيالي بحت، لا يمكن ولا يُحبّذ أن تقوم الكاتبة بكشف ما تخطط لفعله بالشخصيات سلفًا، ومن المستحيل أن تخبرنا بالصعوبات التي مرّت بها من أجل الحفاظ على أسلوب السرد،

لأن الهدف هو إخفاء النتيجة النهائية (التي قد تتغير بدورها حتى بالنسبة للكاتب بينما يقوم بالكتابة) عن القارئ. ولكن من الممكن أن يتم وصف كيفية تطور مجموعة المواد، وربما حتى بعض الاتجاهات العامة التي ستسير نحوها الأحداث.

اليوميات المرافقة للرواية سوف تزعم بأنها وثائقية، ولكنّها ستحتوي أيضًا على جرعة كبيرة من الخيال. سوف نرى.

باريس كانت حفلة، ولم نكن من المدعوين إليها

فكّرت إزمي أن ما قالته والدتها كان صحيحًا. جميعهم لديهم أولاد وذلك لا يجعل الحياة أسهل، مرّة أخرى تقوم بتسويغ قرارها حول تأجيل إنجاب الأطفال. في برشلونة، التقيا بعائلة لوكيز التي قدِمت من البيرو، وكان الوالدان يعيشان مع طفليهما في غرفة صغيرة في نزل مأجور يقدم لهم وجبة الغداء، فقط ولكن دون العشاء. كان الطفلان ينهشان ثمار إجاص مخضرّة ذات بقع بنية، أحضرها غيدو وإزمي معهما من السفينة، وأخذ الطفلان يقضمان الإجاص بدون تعليق، وبشيء من المتعة. لكن آنا لوكيز كانت قد عثرت على عملٍ في وكالة إعلانات كتالونية، وتنتظر وصول راتبها الأول حتىً يستطيعوا الانتقال من تلك الغرفة، ويتمكنوا من الحصول على وجبة العشاء.

في تلك الليلة، استقلّا قطار تالغو السريع المتّجه إلى باريس، في مقصورةٍ مشتركة كانت تهتز بحركة القطار،

وقد استطاعا النوم لأنّهما شابّان. كانا ذاهبين إلى باريس لأنهما أرجنتينيان، لأنّهما من أمريكا اللاتينية، لأنّهما قرآ لكورتاثار، وظنّا أن باريس هي كلّ شيء، ونهاية كلّ شيء، القمة والحضيض، هي الكونُ مصغرًا داخل الكون، الجنون، والعجب، يأجوج ومأجوج، إنّها مكانُ الحرية والإبداع، مركز العالم وخاصةً الحياة البوهيمية، إنها المدينة التي يسير الفن في شوارعها عاريًا. كانا ذاهبين إلى باريس لأنها باريس، وقد كافحت بشدّة على مدى دهور لخلق ذلك الوهم الرائع لباريس في العالم.

لم يخطر لهما أن يأخذا في الحسبان رأي باريس بهما.

باريس لم تكن في انتظارهما، لم تكن تُريدهما، ولم تحبهما.

باريس مدينة صعبة، مدينة لا تهتم بالمهاجرين الفقراء، مدينة النور هي أيضاً المدينة الرمادية. بدت برشلونة رماديةً في عيونهما بسبب حال شوارعها وأبنيتها، بسبب ملابس سكانها الرّثة وبسبب سلوكهم المتعب، وتواضعهم. تشرق الشمس في باريس من حين لآخر، في فصل الصيف، وأحيانًا في فصل الربيع، ولكنها دائماً تمطر رذاذا. كان رذاذ المطر الباريسي الشهير جميلاً وشاعريا وامتد هطوله طوال أسبوع، بل واستمر بعد ذلك. استيقظت إزمي صباحًا وفتحت ستائر نوافذ شقتها الصغيرة، لتجد نفسها مجددًا في مواجهة سقفٍ من السُحُب

والتي سلبت منها الرغبة في الحياة.

بالإضافة إلى ذلك، سيتوجب عليهما كسب المال حتى يستطيعا العيش. ولأجل كسب بعض المال ربما ليس من السيء أن تقوم بترتيب أوراقها والحصول على إقامةٍ قانونية، فقد دخل كلٌ من إزمي وغيدو إلى البلد بواسطة تأشيرة سائح.

كانا يقطنان في الطابق السادس من مبنىً يفتقر إلى مصعد، بحمام صغير، لدرجة أنه كان عليهما الجلوس على كرسي المرحاض حتى يستطيعا الاستحمام. كانت شقة استديو، عنوانٌ لطيف ومرموق عندما يُنظر إليه من الجانب الآخر من المحيط (عزيزتي ليلي: نحن في باريس وسوف نستأجر شقة استوديو لطيفة...) ولكن معنى ذلك في باريس هو بكل ابتذال، شقة صغيرة للغاية بغرفة واحدة. قاما باستئجارها مفروشة. ونظراً لأنَّ الصندوق ذا النوابض، الذي كانا يستخدمانه كفراش، كان مهترئاً، فلقد قاما بقلبه رأساً على عقب ودسّاه بين أرجل السرير. غطّيا نفسيهما بأغطية خشنة وملطخة ببقع خفيفة، ولكنّها دافئة، بالإضافة إلى بعض الأغطية العسكرية التي قاما بشرائها من سوق الأدوات المستعملة. ولأجل أن يشعرا بالدفء، قاما بمد رمز انتمائهما الأرجنتيني، ستراتهما من نوع غامولانيس، تلك السترات المخملية الثقيلة المصنوعة من جلد الغزال وصوف الغنم، وهي مفيدة في ليالي البرد القارس. تناولا الطعام في مطعم الجامعة مقابل مبلغ ثلاثة فرنكات، وحينما حلّ المساء نظرا بقلق عبر نافذة محل بائع اللحوم. قاما بشراء خبز باغيت

من المخبز، وبعض الزبدة وشرائح من لحم كبد الخنزير من المتجر. أقرا بأنّه طعام لذيذ للغاية (تبادلا نظرة تواطؤ أخرى)، إنّه طعام فرنسي.

كانت باريس تقطّر الرحيق لتجذب النحل الذي يكافئها بالمقابل بالعسل، ولكنها لم تستطع درء تجمّع الذباب. حتى الذباب، حين يُرى من الخارج، يشكّل جزءًا من تاجها بفضل هيبة المدينة وسحرها. ولكن من الداخل، ما عليك فعله هو محاربتها بالمبيدات الحشرية ومضارب الذباب. أدركَ إزمي وغيدو أنهما كالذباب. في الواقع حتى الشخصيات في رواية هوبسكوتش لم تكن سعيدة في باريس أبدًا، رغم محاولة كورتاثار أن يقدم السعادة للقارئ بأسلوبه النثري الساحر. أن يكون لديهما حمّام كامل ومطبخ، حتى لو كان بدون حوض استحمام، فهي ميزة يحظى بها قلّةٌ من أصدقائهما. فلدى بعضهم حمّام ولكن لا مطبخ، وكان بعضهم يتشاركون حمّاماً في نهاية الردهة مع جيرانهم في ذات الطابق السكني. العديد منهم كانوا يقطنون في غرف الخادمات، تلك الغرف معدومة الهواء، متناهية الصغر، في الطابق الأعلى، والتي لا تحتوي على حمّامات، وأحيانًا تكون صغيرة لدرجة أن السرير يُثّبَت بين حائطين.

كانا يعملان. لقد استنفذا جميع فرص العمل التعيسة المخصصة للمهاجرين غير الشرعيين. يعبران الحدود ثم يعودان مجددا كل ثلاثة أشهر حتى يجددا إقامتهما السياحية.

حصلت إزمي على عمل كنادلة في معرض مأكولات إسبانية، ولكنها فقدته حالما أسقطت طبقًا ونبيذًا وأكوابا.

كلاهما كانا يوزعان نشرات إعلانية؛ هو يساعد في إنزال حمولة الشاحنات، بينما اتخذت هي أعمال التنظيفات. حاولت إزمي أن تعطي دروس تعليم اللغة الإسبانية، ولكنها وجدت من يريد تعلم دروس في اللغة الفرنسية. بينما ظنّ غيدو أنه قد يجد عملًا في قطاف العنب ولكنه وصل متأخرًا

كان ساعي البريد يأتي ثلاث مرّات في اليوم، وتنتظره إزمي بقلق بالقرب من صندوق البريد، مترقبة تلك المغلّفات المحددة باللونين الأبيض والأزرق، والتي يتم تمزيقها وإعادة صمغها من قبل رقابة لم تتكبد عناء إخفاء نفسها، بل على العكس تماماً، كانت وبكل تواضع تساهم في توحيد الترهيب، تلك المغلّفات المملوءة بورق رقيق، ورق البريد المليء بالأخبار المدسوسة وكلمات مبتذلة تخفي قصصًا لم يجرؤ أحد على كتابتها. وإن كانت شقيقتها ريجينا حاضرًة في أحلامها، كان غيابها يعصر أوعية إزمي الدموية ويخطف أنفاسها كلما مدّت يدها إلى صندوق البريد، وهي مؤمنة -بالضد من المنطق، وبالضد من كلّ الذكريات- إيمانًا بدون معرفة، من صميم النسيان نفسه أن واحدًا من تلك المغلفات سيحمل اسمها المكتوب بخط شقيقتها الصغيرة الميّتة.

كان كلاهما يعاني من الكوابيس، فكوابيس غيدو كانت

مشتتة، ولم يستطع، أو بالأحرى، لم يرغب في التحدث عنها، يستيقظ في منتصف الليل ليغسل وجهه بالماء البارد. أما إزمي فكانت تحلم برفاقها الأصغر سنّاً الذين كانت مسؤولة عنهم ، وخاصة أولئك الذين أغوتهم وتخلت عنهم، أولئك الذين حثّتهم على الانضمام إلى صفوف المسلحين. فهي لم تكن تعلم أسماءهم الحقيقية أو عناوينهم، ولم تكن لديها أية طريقة للتواصل معهم، أو مع أحدٍ يعرفهم، وليس لديها أدنى فكرة أين انتهى بهم المطاف. حلمت بوجوههم مرارًا وتكرارًا، وبشقيقتها التي كانت تعود إلى الحياة، سليمة ومتطلّبة، ربما كشكل من العقاب، أو ربما لأن ذلك يجعل الاستيقاظ صباحًا على غيابها أكثر ألمًا أما الآخرون، فكانوا يتحدثون ويتجولون في أحلامها، ولكن دائماً ما يعودون أمواتا.

لو أن لإزمي ابنة، لسمّتها على اسم شقيقتها، بل تمنّت أن تنجب طفلة حتى تمنحها اسم شقيقتها، وكان ذلك ضروريًا وعاجلا، حتى تتذكر أنها لم تنجب أطفالًا بعد. ولكن لو فعلت ذلك. لو فعلت ذلك في يومٍ من الأيام.

التقيا بالكثير من الأرجنتينيين والأمريكيين اللاتينيين اليافعين، وكان معظمهم منفيين. بعضهم أنجب أطفالًا ولدوا في فرنسا، ولم يتم منحهم الجنسية الفرنسية بموجب قوانين النسب، وكما حُرموا من الجنسية الأرجنتينية حسب قوانين الإقامة. في ظلّ النظام الديكتاتوري، أُمرت السفارة الأرجنتينية، بعدم قبول طلبات التجنيس للرضّع المولودين في أوروبا في تلك الحقبة،

فكان أولئك الأطفال منبوذين، أطفال رضّعٌ بدون وطن، وتحتضنهم أمهاتهم بقوة وهن يشعرن بالذنب والقلق والفخر.

ربما واقع وجودهما في باريس دفع بهما باتجاه الحدود الواسعة للفن، وأيضًا لأن غيدو لم يجد طريقة لإكمال دراسته غير المفيدة في الحقوق، ففي بلد ذي لغةٍ مختلفة وقوانين مختلفة أصبح إكمالها مستحيلا. ربما لأنهما كانا يملآن أيامهما الفارغة العديدة بين عمل مؤقت وآخر بالذهاب إلى السينما، حيث يبقيان ليشاهدا نفس الفيلم مرارًا وتكرارا، أو ليزورا متاحف باريس التي لا تُعدّ ولا تحصى. أو ربما بسبب صداقتهما مع ابن الرسام الأرجنتيني فيتالي الذي عاش في فرنسا، بدأ غيدو بالتحدث عن إحدى رغباته التي فقدها منذ زمن طويل، والتي دفنت تحت جبلٍ من المسؤوليات التي تقع على عاتق طالب علوم القانون والماركسية. بوصفه ماركسيًّا متشدّدًا، ولكن غير مسلح، شارك غيدو في العشرات من حلقات التعليم وقرأ لماركس وإنجلز باللغة الأصلية، ولكن دون التقليل من شأن ناشريهما، مثل مارتا نارنيكر مؤلفة إنجيل الأجيال، المعروف باسم المبادئ الأولية لتاريخ المادية. لقد قرأ لكل من غرامشي وروزا لوكسمبورغ وباولو فريري، بالإضافة للأناركيين أمثال باكونين وكروبوتكين حتى يتمكن من مناقشة أفكارهم. قرأ تروتسكي ولينين وحفظ البيان الشيوعي عن ظهر قلب. ولكن الآن في باريس، أراد أن يرسم.

كانت إزمي متفاجئة، فهي لم تكن على دراية بهذا الوجه

الجديد لشخصية زوجها، ولا تعلم إن كانت تقبله أم لا. أصبح غيدو ضيفًا دائما في شقة فيتالي، حيث تعرّف على أصدقاء الرسام الكبار واليافعين، وناقشوا ميول وأساليب الفن الأوروبي، وخاصة الدفاع عن الأسلوب الكلاسيكي المرموق على المرسم، وهاجموا الهراء السطحي المسمى بالفن التصوري أو المفاهيمي.

«الفن لا يُصنع من الأفكار، الأفكار هي لأُناس مثلكِ». قال لإزمي بلهجة ازدراء. «لأمثالك من النوع الإعلاني. الفن هو إدراك، الفن هو كلّ ضربة فرشاة».

شيئًا فشيئا أصبح غيدو مشبعاً بالمفردات الفنية، وأخذ يجمع كل ما يستطيع من المال لكي يشتري مرسمًا وألواحًا وإطارات خشبية وألوانًا زيتية وفراشٍ.

عندما صُدِمتْ إزمي بسعر فرشاة الرسم، قال بصوت وقور: «إنها من فرو السمور». كانت شقّتهما ذات الغرفة الواحدة صغيرة، صغيرة جدًا، وبدأت تتكدس فيها اللوحات وخِرق رسم متّسخة، وحافظات الأصباغ وتصاميم مصنوعة من الجص الأبيض أو الشمع الملوّن. عندما أحضر غيدو الباب الذي حوّله إلى طاولة، وأصبح يمزج عليها الألوان، ويختبر زيوتًا باهظة الثمن (من ماركة رامبرانت أو ويندسور ونيوتن)، اضطرت إزمي إلى وضع الآلة الكاتبة الخاصة بها في زاوية، إذ أصبحت الحال ميؤوسًا منها. كانت الرائحة تثير غضب إزمي

أكثر من أي شيء آخر، فكلما دخلت الشقة من الخارج تحسّ بشعرها وثيابها وجلدها مشبعًا برائحة زيت الدهان وبذور الكتان والتربينتين، والتي تجعل غيدو سعيدًا بشكل لا يوصف، وهو ما كان يظهره بأخذ أنفاس عميقة مرتديًا ملابس الرسم -سترةً قديمة ملطخة بالبقع، وسروالا.

أغرب ما في الأمر هو أن غيدو لم يكن يرسم.

كان غيدو يزدري الورق الكرتوني المقوّى، كان ضد ألوان الأكريليك، عادًّا ذلك تيسيرًا مُخِلًّا. وعملَ بالطريقة التقليدية مع لوحات من الكتان، والتي كان يمتنع عن شراء تلك الممدودة منها والمجهزة سلفاً؛ يخلط الألوان بنفسه حتى يحقق لوحة ألوان مميزة، لوحة ألوان خاصة به، لوحة ألوانه التي ستميّزه عن جميع الرسامين الآخرين في هذا العالم. استعمل بابًا مركبًا على مسند رسم خشبي. بابٌ كبير مكسور رماه أحدهم خارجاً حتى يتم التخلص منه مع القمامة، وقد نجح غيدو بإدخاله داخل شقته الصغيرة بصعوبة كبيرة. كانت لديه علب يرتب فيها فراشي الرسم الخاصة به (سميكة وناعمة، مربعة ومدوّرة) حسب الشكل، وعلى الجدران مجموعة متشابهة من مُدى الرسم. عدَّ غيدو نفسه ينتمي إلى الحركة الرمزية الجديدة، والتي كانت ترفض المعارض والنشاطات من أجل الرسم التقليدي. كان يرسم مسوّدات على دفتر ملاحظات، ذا ورق خاص، ونجح حتى بوضع بعض اللطخات من الدهان على اللوحات ولكنه لم ينهِ أيّاً من رسوماته أبداً.

أثناء ذلك، وجدت إزمي عملاً كمربية، للاعتناء بطفل أشقر ذي ثلاثة أعوام وهو ابن لزوجين سويديين. كلّ ما كان يهتم به هو بناء أبراج بواسطة مكعبات، ولم يكن سعيدًا على الإطلاق بمحاولات مربيته لخنقه بالأحضان والقبل الجنوب-أمريكية، والتي كانت تثير حفيظة والديه دون الإشارة إلى ذلك كلاميًا بل بنظراتهما وسلوكهما، وكأنّ إزمي كانت تلطّخُ وجنتي الصبي -النظيفتين دائمًا، والشديدتي البياض والذهبيّتين- بطبقة سميكة من اللُعاب الملوّث ببكتيريا العالم الثالث.

«ماذا لو أعطيتَ دروسًا في الرسم؟ يمكننا تعليق لافتات...».

«كلا، لقد أخبرتكِ أنني لا أريد أن أعطي دروسا. ولا أريد أن أقوم بالمشغولات اليدوية أيضا. لا أريد القيام بأيّ شيء هزلي. أفضّل أن أقوم بحمل الأمتعة في ميناء على أن أقوم بإهانة الفن».

كان غيدو يقول كلمة «الفن» مسبقةً بـ أل التعريف، لم يقم بإهانته، ولم يقم بحمل الأمتعة في الميناء أيضًا. من ناحية أخرى، اكتشف مشروعًا صغيرا قد يستطيع تحمل تكاليف شغفه الجديد باهظ الثمن: وهو تهريب سيارات مستعملة من هولندا وبيعها في باريس. كانت السيارات في هولندا تخسر قيمتها بسرعة لأسباب عديدة، ومنها أنه كلما أصبحت السيارة أقدم، ازداد ثمن لوحة الترخيص. كان الهولنديون يتخلصون

من سياراتهم بعد أربعة أو خمسة أعوام بأسعار بخسة، كان من الضروري أن تعبر الحدود دون إثارة الشكوك، ومن ثمّ يوضع إعلان على زجاج السيارة الأمامي فتباع في باريس بربح جيد.

ولكن الأهم من ذاك، انضم غيدو -بنفس التعصب الذي كرسّه في بلده لمناقشة الماركسية- إلى مجموعة كبيرة من الفنانين الأمريكيين اللاتينيين في باريس، الذين حاربوا من أجل نقاء الفن دون أن يمارسوه. هو الآن ينتمي إلى حشد الرسامين الذين لا يرسمون، والكتابُ الذين لا يكتبون، والمؤلفين الموسيقيين الذين لا يقومون بتأليف الموسيقى، والنحاتين الذين لا يقومون بالنحت، والممثلين الذين لا يمثلون، ولكنهم بالرغم من ذلك كانوا يجتمعون سوية ليتجادلوا ويشربوا (يُفضّل الأفسنتين)، وخاصة لأنهم يسكنون في باريس، نشاطٌ بدا وكأنه يثبت صحة ادعاءاتهم التي كانت وبطريقة ما تعفيهم من ممارسة تلك الفنون.

ذات صباح فتحت إزمي الستائر وهي تترقب أشعة الشمس التي لم تظهر، ثم نزلت كالعادة لتشتري الكرواسان (ستة قطع من الكرواسان كما يسميها الفرنسيون، ربما ظلمًا، ما كان بالنسبة للأرجنتينيين ميديالوناس دي غراسا). كان المطر ينهمر، وقد وصلت رسالة من بوينس آيرس فحواها، أن لوسيو وغييرمو لم يكونا هناك. قرأت إزمي تلك العبارة عدّة مرّات لعلها تكتشف معنىً جديداً في زخرفة الحروف. وهما شقيقان كانا يواعدان قريبتيها. كان لوسيو، وهو الأكبر سنًا، لطيفًا بشعر

أشقر، أمّا غييرمو، ذو الثمانية عشر ربيعًا، فقد كان شعره مُموجًا للغاية، والآن ليسا هناك، ليسا موجودين. فكرت في الاتصال بهما، ولكنها كانت خائفة.

قبل فترة وجيزة من مغادرة غيدو وإزمي لبوينس آيرس، كان قد طلب غييرمو وقريبتها دوريتا الإذن ليبيتا في منزلهما. كانا متعبين ومتسخين وغاضبين. فقد أمضيا الليالي خلال الأسبوع الماضي في الحافلة جيئة وذهابا. وهذا ما يعنيه التحرك السرّي. كانت شقة إزمي وغيدو مكانًا غير آمن أيضاً، لذلك بقيا ليلة واحدة فقط.

بعد ظهيرة ذلك اليوم في باريس، استجمعت إزمي شجاعتها وذهبت إلى مكتب البريد لتقوم باتصال هاتفيّ وغامرت بالسؤال: «لقد وصلتني رسالتك. هل غييرمو ولوسيو ليسا هناك؟ ليسا هناك على الإطلاق؟».

«كلا». ردّت عمتها بصوت حيوي كالعادة.

«ولكن ماذا يعني أنهما ليسا هناك؟».

«يعني تمامًا ما تظنينه. يعني أنهما ليسا هنا بعد الآن، وقد مضى عشرون يوما. لا تقلقي على قريبتيك فقد أرسلناهما إلى إسبانيا».

تمسّكت إزمي بأمل أن لوسيو وغييرمو ما زالا على قيد الحياة، وظلّت متمسكة بذلك الأمل لبضع سنوات أخرى.

يوميات ٢

ثمّة مساوئ لصيغة الماضي غير التام عند السرد. أنا بصدد كتابة الفصل الثاني، والذي قد يكون أطول من اللازم، أعتمد فيه صيغة الماضي الناقص المثيرة للشفقة: كانوا يخرجون، كانوا يأكلون، كانوا ليقفزوا، كانوا ليفكّروا، غالباً ما شعروا... لا تُفيد صيغة الماضي الناقص في السرد. فهذه الصيغة مفيدة لوصف ما كانت الأمور عليه، ولكنّها غير مفيدة في الإخبار عمّا حدث. لقد واجهتني هذه المشكلة في محاولاتي الأولى لكتابة السرد القصصي، عندما كنت أحاول الانتقال من كتابة الشعر إلى كتابة القصة القصيرة. لسبب ما، كنت أستطيع وصف ماهية كّل شيء، ولكنني كنت أفشل حينما أرغب في سرد ما حدث لاحقا. لم أشعر أنّ هذا أمر طبيعي وعادي بالنسبة إليّ، إذ عليّ قسر نفسي واستخدام لغة مصطنعة حتى أتمكّن من كسر شبكة الحدث وأدخل في صلب القصة. ثمّ،(وفجأة، في إحدى المرّات)،أصبحت هذه كلمات إعجازية تخبر عن الماضي. (فجأة، في يوم ما) أصبحت تقتحم الحدث، ويتمّ السحر، فوجدت نفسي أّقوم بالسرد. ولكن لم يكن فيه سحر.

كان بطيئاً، ومتمهّلاً، وقسريا.

إن شيئًا مماثلاً يحدث لي الآن. لسببٍ ما، أشعر بالحاجة إلى إخبار ما كان يحدث قبل أن أنتقل للًحديث عمّا حدث. ربما لأنني أحاول خلق قصّة حياة، قصّة يجب أن تتطور على مرّ سنوات عديدة. ماذا يفعلون؟ ماذا يفعل الآخرون؟

إنني أقرأ كتابًا يدعى ملاك الجوع للكاتبة هيرتا مولر. إنها رواية تتحدّث عن معسكرٍ للعمل القسري في روسيا بعد الحرب، حيث تمّ سجن المًئات من الشباب الرومانيين الناطقين باللغة الألمانية. في كتب أخرى (جواز السفر)، ومن أجل سرد أعنف الحكايات وأكثرها قسوة، تكتب هيرتا مولر نثرا شعريّاً رائع الجمال -معقّدا، صعبًا وشديد المتعة. ولكن من جانب آخر، هذا الكتاب لا ينقصه شعر مكتوبٌ بطريقة سهلة ومباشرة. قرأت ما يقارب المائتي صفحة، مكتوبة بصيغة الماضي الناقص، مع مشاهد حركة قصيرة للغاية، بالكاد تقوم بتوضيح الأوصاف. إذن ذلك ممكن.

معلومات: (س) و(ر) أخبراني بالتفصيل حول تهريب -أو ما يشبه تهريب- السيارات الهولندية في السبعينيات. حيث قام س بنقلها إلى مدريد نيابة عن شخصٍ آخر، بينما كان ر، شخصيًا، «يستورد» شاحنات صغيرة إلى باريس. المعلومات التي أدليا بها كانت آسرة، وكانت أكثر بكثير مما احتجته لهذه الرواية. وعندما حان وقت استخدام تلك المعلومات، لاحظت

أنني إن استمرّيتُ بهذا الاتجاه، فسوف أفقد الطريق إلى هدفي. بغض النظر عن ذلك، يسعدني أنني قد سألتهما: حتى وإن ظهرت جملتان حول موضوع ما، يجب أن تكونا محكمتين وخاليتين من الأخطاء.

قمت بمقابلة صديقي (اكس)، وهو فنانٌ تشكيلي، لأحصل منه على معلومات حول نشاطات غيدو في باريس. كان (اكس) لاجئًا سياسيا في أوروبا. التقينا في لا بيلا، وهو مقهى مشهور بين الشباب في السبعينيات، ولكن ليس بين الهيبيين أو المسلحين أو المثقفين. فضّلنا المقاهي في كورينتيس: إل كولومبيانو، راموس، لا باز، بوليتياما، إل فورو، لا جيرالدا. وحدهم الأشخاص الذين كنّا نطلق عليهم (الموز أو المجانين) هم من كانوا يرتادون المقاهي في ليبيتادور، ولا بيلا والتي أثبتت امتلاكها لزبائن أوفياء بشكل يثير السخرية. إنّهم هم أنفسهم، الصبيان الذين كانوا يأتون على دراجاتهم النارية في سنوات الستينيات والسبعينيات، والآن هم في الستين أو السبعين من العمر... ولكن بدون دراجات نارية.

لم يقطن (اكس) في باريس خلال تلك الفترة، ولكنه شرح لي، بأدقّ التفاصيل، أيُّ مواد يمكن لغيدو أن يحتفظ بها في شقته الصغيرة. أيُّ نوع من الفُرَش، وأيُّ نوع من اللوحات، وأيُّ ألوانٍ؛ وكان يعلم حتى من أيّ متجر في باريس يمكن شراؤها.

اليوم، اكتشف العالم مدينة بوينس آيرس، ويبعث باستمرار حشودًا من السياح إلى المدينة. لا بيلا مكان سياحي ممتاز. يوجد خلفنا زوجان يرقصان التانغو والميلونغا بمهارة. صوت جهاز بثّ الأغاني مزعج للغاية، ولكنه يوم رائع، ومن الأفضل أن نقضيه في الهواء الطلق. يصف لي (اكس) المواد بدقّةٍ متناهية، ولكنه أقل كفاءة في تذكّر أنماط النقاشات التي كانت تجري في ذلك الوسط الفني. فقمت بحثّه. مَنْ مِنَ الفنانين كان مشهوراً، من كان مثيراً للجدل؟ لو بارك؟ أم وارهول؟ أم مينخوين؟ ما هي مواضيعهم؟ تحدث كثيراً عن الأعمال الفنية المركّبة، ولكن لدي شكوكي. هل استخدموا ذلك المصطلح في السبعينيات؟ أظن أنني سمعته لأوّل مرّة منذ حوالي خمسة عشر أو عشرين عاما. ولكن من الممكن أنهم استخدموا ذلك المصطلح في عالم الفنون المرئية. وعالم الفن الملتزم اجتماعيًا. من المؤكّد أنّه محقّ. إنني أتذكر ذلك جيدا، مملكة الملصقات الحديثة (في السبعينيات)، فنّ الاحتجاج الاجتماعي، الفنّ الجماعي، الفنّ من الجميع وللجميع. آه، يا للذاكرة! ذلك المشهد الزائف، كانت مرحلة مقززة مليئة بالشكوك والأكاذيب.

السفير

مع مرور السنوات، التي كانت بطيئة في سيرها، ولكنّها سريعة على نحوٍ مدمّرٍ إذا نظرنا إليها بأثرٍ رجعي، بدأ وضع المنفيين بالتحسّن. حصل غيدو وإزمي على إقامة شرعية، وازدهرت تجارة السيارات الهولندية المستعملة، وتمكّنا من الانتقال إلى شقة أخرى في الطابق الثاني بمساحة أكبر، بدون مطبخ، ولكن بحمام يتسع لوجود حوض الاستحمام، رمز الترف. سرعان ما تلاشى شعور إزمي بالارتياح لانتقالهم إلى الشقّة الجديدة، بعد أن وضع غيدو مجددًا مرسمه وزيوته ومواده المذيبة، وبدأ لقاءاته مع أصدقائه. هؤلاء الرسامون من أمريكا اللاتينية والذين -وباستثناءات قليلة- رسموا بقدر ما كان يرسم غيدو، والذين كانوا يدخنون التبغ الداكن، من نوع غولواز أو جيتان، خالقين فنًا عابرا، سريع الزوال، على شكل حلقات نفثات دخان تختفي في الهواء بسرعة كما كلماتهم.

كان بيلتز من بين أولئك الرسامين، وهو فتىً حرص على إطلاق عِذاراه الكثيفان مثل أعضاء فرقة البيتلز والتي صارت

تبدو قديمة. وجد بيلتز فرصة عمل من أفضل الأعمال التي يقوم بها المهاجرون، ربما بسبب حس الدعابة الدائم لديه ودماثة أخلاقه الشخصية، وربما لأنه كان يتقن اللغة الفرنسية جيدا، بالإضافة إلى الإنجليزية، حتى في الوقت الذي كان معظمهم قد بدأ بالتمكّن من اللغة، وحصلوا على أوراقهم الشخصية بانتظار الحصول على إقامة شرعية. بيلتز كان سائق سفير إحدى جمهوريات أمريكا الوسطى، والذي وصفه بأنه رجلٌ ضخم وكريم. وأنه على منصبه، بالكاد يتحدث الفرنسية. وبفضل بيلتز وسحر شخصيته وجدت إزمي عملًا بمثابة جليسة أطفال أو مربية لطفلتين توءَم.

الطفلتان هما ابنتا السفير ذاته، إحداهما في الخامسة من العمر، ذات عينين مشرقتين ومرحتين، وشعرٍ بني فاتح، وبشرةٍ بلون الشاي بالحليب. وكان الأب رجلًا جاد المظهر، بالكاد يتحدث إلى إزمي. تماماً كما وصفه بيلتز، كان ضخمًا و-في بعض الأحيان- كريمًا أيضا، يدفع لها مبلغًا جيدًا من المال. عندما اتخذها لخدمته، وبعد محادثة طويلة استفسر منها عن مؤهلاتها وتعليمها، أعطاها ورقة تتضمن تعليمات وتفاصيل حول العلاقة المعقدة بين باقي العاملين: الطباخ، والعاملتان المسؤولتان عن التنظيف، وسائق زوجته، وسائقه الخاص، والخادم الخاص بغرفة الطعام، وخاصة مع جليسة الأطفال الأساسية، وهي امرأة برتغالية مسؤولة عن الاعتناء بالتوأم، مسؤولة عن إلباسهما وإطعامهما، وقد بدت وكأنها تشعر

بالغيرة من علاقة التوأم بإزمي.

أما فيما يتعلق بالسفير، فقد شعرت إزمي بمزيج من الرهبة والنفور بسبب سلوكه الصارم والقاسي، وكأنه كتلة متجمدة من الكياسة، ولكن من المستحيل اختراقها. نشأ في مدارس إنجليزية داخلية، ودرس العلوم السياسية في جامعة أوكسفورد. كان يعزف الموسيقى الكلاسيكية على البيانو الضخم الموجود في غرفة المعيشة الرئيسية، بإحساس غير متوقع.

أما زوجته، فكانت امرأة بيروفية بيضاء البشرة لدرجة أنها كانت تبدو وكأنها مغطاة بالجير. تنتمي إلى عائلة متواضعة من الطبقة الأرستقراطية المحلية. عندما التقيا، كان السفير موظفاً في ديوان سفارة بلاده في البيرو، ولم تمانع بالاعتراف كم كانت مصعوقة من وضعه الاقتصادي. وعدها بحياة مليئة بحفلات الكوكتيل، وحفلات عشاء رسمية، وبثوب مختلف لكلّ مناسبة، وبسيارات فخمة، وبالكثير من المجوهرات. كانت فتاة رقيقة وحيوية وعابثة؛ كانت ابنتاها تحبّانها حباً جمّاً، وتهرعان لاحتضانها كلما عادت إلى المنزل بعد الظهيرة، محملة بالحقائب من حملات التسوق التي تجعلها تشعر بالسعادة، السعادة التي تخيلتها عندما وافقت على الزواج من زوجها. في هذه الحالة، كان عناق شخص لاتيني أمرًا مستحبا ولم يكن لدى إزمي -مطلقا- شعورٌ بأنَّ التوأم تحتاجان إلى الخضوع لعملية تعقيم بمجرد عودة جليسة الأطفال إلى المنزل.

إذا كانت عودة الأمّ تملأ الفتاتين بالسعادة، فإن عودة والدهما كانت تشعرهما بالكآبة. كانوا يعيشون في شقة كبيرة جداً ضمن مبنىً قديم وجميل في شارع ماريغني، شقة يمكن أن تضم بسهولة عشرين شقة صغيرة كشقة غيدو وإزمي. جميع الغرف فيها كبيرة، كلّما فتح والد التوأم الباب الأمامي، تدخلها لفحة من الهواء الجليدي.

اقتصرت مهمة إزمي على تسليتهما لبضع ساعات بعد عودتهما من الحضانة. وقد تمّ اختيارها لهذه المهمة بسبب إتقانها اللغة الفرنسية، بالإضافة إلى لغتها الإسبانية، كذلك بسبب ثقافتها بشكل عام. كانت تلعب معهما، وتقرأ لهما القصص باللغتين الفرنسية والإسبانية، وتشغّل لهما موسيقى مختارة مسبقا من قبل والدهما. نشأت الطفلتان في بيئة من العادات الصارمة والتي لم تتجرأ حتى والدتهما على عصيانها. كانتا شديدتي التهذيب، ونادرًا ما امتنعتا عن تنفيذ أمرٍ، أو تصرفتا بشكل سخيف.

وفي ظهيرة أحد الأيام، كانت إزمي في غرفة التوءم، تقرأ بصوت عالٍ، مستغرقة في مغامرات الفيل بابار، لم تلاحظ أن ماريا لورديس، وحدها، تنصت إليها، بينما سيسيليا الأكثر مشاكسة كانت قد تسللت إلى خارج الغرفة دون أن تصدر أيّ صوت. نبّه الهدوء والصمت الشديدين إزمي، فوضعت الكتاب جانبا وذهبت لتبحث عن الفتاة خارجا وقد تبعتها ماريا لورديس. وجدت سيسيليا في غرفة البيانو مأسورة

بنشاط محظور: كانت قد خلعت حذاءها وراحت تركض في أرجاء الغرفة مرتدية الجوارب، متظاهرة بالتزلج على الأرضية المشمعة. لم يعلموا بأن السفير في المنزل. وعندما أدركت الطفلة أن والدها كان يراقبها، دفعها الخوف إلى فقدان توازنها وإلى السقوط على الأرض.

دخل الوالد وجلس على مقعد أمام البيانو وكأنه لم يرها. حاولت إزمي أن تأخذ الفتاتين بعيدا ولكنهما بقيتا هناك، تجمدت كلّ منهما في مكانها، مثل تمثال. كانتا تعلمان ما سيحدث، وتعرفان أن عواقب محاولة الهرب ستكون أسوأ.

نادى الأب سيسيليا بهدوء شديد. نهضت الطفلة ومشت ببطء باتجاه البيانو وهي تجر قدميها اللتين بدتا وكأنهما تقاومان الأوامر المعطاة من دماغها. عندما صارت بجواره، أمرها الأب بالاستدارة والانحناء. برباطة جأش، دون أي استجابة عصبية أو غضب، كشخص ينفذ عقوبة عادلة وضرورية، بحث عن موضع في جسدها لن يؤذيها، ثم ضربها على قفاها بقوة حتى طارت نحو الأمام، وبالكاد (فقط بالكاد؛ الحساب كان دقيقاً) صُدم رأسها بالجدار. سقطت سيسيليا مجدداً، وفي هذه المرّة عضت شفتها السفلى. توقعت إزمي أن تسمعها تنفجر بالبكاء ولكن الطفلة كانت تعلم كيف تتصدى للموقف بطريقة أفضل من جليستها. نهضت، ومسحت شفتها بظهر يدها بصمت، والدموع تنهمر على وجنتيها، بينما كان السفير يعزف الكورد الأوّل لمقطوعة ديبوسي على البيانو.

«اغسلي وجهها يا إزميرالدا»، أمرها قائلا: «ولا تدعيهما تدخلان هذه الغرفة مجددا».

أدركت إزمي أنها لا تستطيع الاستمرار في العمل في ذلك المنزل. وأدركت أيضًا للمرّة الأولى، شيئًا لم يتمكن حتى حبها للتوأم في إيقاظه في جسدها. لقد أدركت بأنها تريد أن تنجب طفلًا لن تقوم بضربه أبدا، ولن تسمح لأحد بضربه إطلاقا. عندئذ بدأت إزمي بالشعور بذلك الإحساس الجسدي ينمو في داخلها، شعور أطلقت عليه سرًا: «الرغبة في إنجاب طفل».

يوميات ٣

عاشت صديقتي (ل) في باريس لمدةّ خمسة عشر عاما. علمتُ أنها عملت في وقت ما مربية لأطفال سفير إفريقيّ، ولعلّ تلك التجربة أيقظتْ لدي الرغبة في إنجاب طفل لشخصيتي الروائية. بدأتُ بكتابة هذا القسم دون التحدث إلى صديقتي ل. كان سفيري التخيُّلي متزوجاً من مواطنتهِ، وهي أيضاً سمراء البشرة مثل جميع العاملين في المنزل. أردتُ أن تخبرني صديقتي عن تجربتها الحقيقية ولكن ل متحفظة جداً، لم تكن تتحدث عن حياتها في باريس، لذلك كنت أخشى من إزعاجها بأسئلتي. في الحقيقة، أنا أكره استجواب الناس، على الرغم من أن الحياة علمتني أنّه لا توجد قصّة مخترعة، رائعة وغير تقليدية مثل الواقع.

أخيرًا التقينا في مقهىً يشتهر بمعجناته المتنوعة والجيدة. كان ذلك في عام ٢٠١٢، ومع أنّ مصطلح كونفيتيريا لم يعد يُستعمل في بوينس آيرس، لكنه كان وصفًا دقيقًا لذلك المقهى. قدّموا لنا مع كلّ كوب قهوة عيّنات صغيرة ولذيذة من حلوياتهم

المصنوعة بمهارة منزلية. وبينما كانت كريما الشوكولا تذوب في أفواهنا، اكتشفت كلّ ما كانت صديقتي ل قد نسيته. لقد مضى ثلاثون عامًا، ولم تتذكر صديقتي كيف حصلت على العمل؟ أو أين كانت تقع شقة السفير؟ أو أيّ دولةٍ كان يمثّلها ذلك السفير؟ كلّ ما تذكّرته هو أن لغته الأم كانت الإنجليزية. من ناحية أخرى، تذكرت زوجته البيروفية جيدًا، وأخبرتني أن الموظفين كلّهم كانوا من البيض، كما جرت العادة في بقية السفارات الإفريقية. خطرَ لي أن ذلك عادلٌ بشكل منطقي.

لم تكن الفتاتان الصغيرتان توأما، إذ كان هناك فارق ثلاث سنوات بينهما. كانت الأخت الكبرى في الخامسة من عمرها. شهدتْ صديقتي ل، وهي تشعر بالذنب والإهانة والخوف، مشهد العقاب، فاستقالت بعدها بفترة وجيزة بحجة وجود أسباب شخصية تمنعها من الاستمرار في العمل.

الرغبة في إنجاب طفل

الرغبة في الإنجاب عند البشر ليست حقيقة بيولوجية غريزية، بل دافع مرتبط بمطالب اجتماعية معينة، قد تظهر في أيّ سنّ أو قد لا تظهر على الإطلاق. لكن عندما تبدأ الرغبة في الإنجاب لدى النساء بالظهور، مثل نداء داخلي، سرعان ما تصبح حاجة. حتى لو بدأت كآلية عقلية، وهو قرار يمكن عدّه طوعيًا، سرعان ما تبدأ بالانتشار في الجسد بأكمله كفراغٍ ينبض في الدم على إيقاع خفقان القلب. لا تبقى تجاويف في جسم الإنسان مفتوحة كالكهوف. فالأعضاء تستقر وتشغل كل حيّز فارغ، اللحم ينطوي على نفسه، ولا تبقى مساحة فارغة. لكن المرأة تشعر وكأنّ دوّامة تعبر من فوق رحمها، جاذبة رياحًا جليدية تسري عبرها من طرف إلى آخر. بالكاد تدرك أن ذراعيها ينتميان إليها، عندما تعبر الشارع تشعر وكأنهما يتدليان إلى جانبي جسدها بلا فائدة؛ تشعر بألم في نهديها وكأنهما يُشدّان ويتورمان ويزدادان طولاً، ويصبح كلّ شيء حولها رمزًا يخضعها لرغبتها المكبوتة في داخلها.

طفلٌ. أرادت إزميرالدا إنجاب طفلٍ. ولأوّل مرّة بدأت تلاحظ الأعداد المذهلة للنساء الحواملً في الشارع، حتى في باريس، حتى في فرنسا حيث معدّل الولادة منخفض لدرجة تثير قلق الأمة. حتى أولئك اللاتي لم يبدون حوامل بشكل واضح، كان من المحتمل أن يكنّ حوامل. حدّقت إزمي بحسد في تلك البطون المنتفخة، ودققت في وجوه أولئكَ النساء اللاتي لم يكن لديهن شيء يتباهين به، ابتسامة معيّنة، أو تعبير معيّن، تلك العلامات المريبة التي يستحيل التحقق منها والتي تختلف بين مجموعة ثقافية وأخرى، علامات يعدها المجتمع نموذجية من النساء الحوامل حديثُا.

عانى الأزواج من بين أصدقائها ومعارفها من قساوة المنفى. فبعضهم أصبح أكثر تقاربًا من أيّ وقت سابق، وبعضهم انفصلوا تماما، وشكّلوا أزواجاً جديدة بعد أن تزوجوا من أرجنتينيين أو أمريكيين لاتينيين، أو فرنسيين قادمين من أقاليم فرنسية (من خارج فرنسا) -فيها أجواء منفى خاصة بها، جذبت الناس بقوّة وحشيّة، ولكن رحّبت بهم بفتور- أو من رجال ونساء فرنسيين من أبناء المهاجرين وقد كانوا أكثر انفتاحاً لتقبّل الاختلافات الثقافية، وتقبّل الفرنسيين غير الأصليين، المزعجين، من أبناء الأجانبِ الذين لم يكن بوسعهم فهم دعابات ونكات معيّنة. أو تزوجوا أُناسًا فرنسيين (منهم أبناء المهاجرين من أقاليم أخرى) وقد سُحِروا بغرابة الأمريكيين اللاتينيين، حيث كانوا يعدّونهم غير معقّدين، ومنفتحين جدًا، ومرحين جدًا، وراقصين جيدين،

في غاية العفويّة (التشيليون، والأرجنتينيون، والأوروغويانيون: كانوا يتبادلون نظرات الدهشة والسرور عند سماعهم ذلك الوصف الغريب الذي لم يستطيعوا إدراكه بأنفسهم).

في الواقع، جميع الأزواج المعترف بهم قانونيًا، والذين كانت علاقتهم راسخة، وكذلك الأزواج الجدد، بدؤوا بإنجاب الأطفال؛ وأنجب المستقرّون منهم وذوو الوظائف الأفضل طفلهم الأوّل. وأما أولئك الذين كانوا قد دخلوا البلد ومعهم رضيع أو طفل صغير، بدأت بالنسبة إليهم الجولة الثانية. إمكانية أو ضرورة انطلاق حياة جديدة هي بالنسبة إليهم بمثابة تحدٍّ ضدّ كلّ ذلك الموت الذي تركوه وراءهم.

في الشقّة الصغيرة التي تملكها صديقتها بيبيانا التي كانت قد وصلت إلى باريس مع زوجها بعد وصولهم ببضعة أسابيع، حملت إزمي المولود الجديد، واستنشقت بعمق رائحة القيء والبول، العطر والعرق، رائحة الغائط وثياب الرضيع المغسولة مؤخراً، ثم انفجرت بالبكاء.

يوميات ٤

لن يمرّ وقت طويل حتى تغادر شخصياتي فرنسا. ربما هذا وقت ملائم لتقديم بعض التفاصيل حول إقامتي في فرنسا، والتي لا ينبغي الخلط بينها وبين النفي. أنا لم أُنفَ إلى فرنسا (أو إلى أيّ مكانٍ آخر). لم أكن من المسلحين قط، ولم أضطر إلى الفرار من البلاد لأسبابٍ أخرى (وكان هناك الكثير منها). سافرتُ مع زوجي إلى باريس في عام ١٩٧٦. وعشنا هناك لمدّة ستةِ أشهر، في شقّة صغيرة تقع في شارع سان جاك، قرب كنيسة فال دو غراس. قضينا ثلاثة أشهر إضافية، تجولنا خلالها في أنحاء أوروبا، وزرنا أختي التي كانت منفية بالفعل في مدينة شيكاغو. في العام ١٩٧٧، وهو أحد أفظع أعوام النظام الديكتاتوري، عدنا إلى بوينس آيرس. لقد افتقدناها كثيرًا. تسعة أشهر أمضيناها بعيدين عن أرضنا ولغتنا وعالمنا، كانت كفيلة أن تجعلنا نفهم ويلات المنفى، وتعاسة أن تكون أجنبياً. جعلتنا نعيش الحنين اليومي إلى التفاصيل الصغيرة.

عملتُ في باريس مراسلة لدار نشر كامبيو ١٦، والفضل في

ذلك يعود إلى صحفيٍّ أرجنتيني لم نكن نعرفه حينها، ولكنّه أصبح منذ ذلك الوقت صديقًا عزيزًا جدا. لم أكتب لجريدة إسبانية مرموقة، بل كانت مجلة مصنفة للبالغين تدعى ألماناك. فرانكو كان قد مات. والإسبان بدؤوا بإدراك أن الجنس خطيئة وليس فقط معجزة. لقد قمت ببعض التحقيقات لصالح مجلة ألماناك حول حركة المومسات في باريس، والتي كانت تناضل من أجل حقها في إنشاء نقابة؛ كتبت حول العربدة التي كانت تنظم بين السيارات في ساحة دوفان؛ كتبت عن السينما الإباحية والتي كانت قد بدأت بالتطور في فرنسا، حيث كانت هناك شركة إنتاج هامة وعدّة دور سينما لعرض الأفلام الإباحية. كانت تلك الأفلام الإباحية تثير جنون الإسبان، فقد كانوا يعبرون الحدود حتى يشاهدوا الأفلام الممنوعة في بلدهم. عملنا أيضًا، أنا وزوجي، لصالح صحفية فرنسية تعمل مراسلة لعدّة مجلات أرجنتينية، لكنها لم تكن تجيد الكتابة باللغة الإسبانية بشكل جيد. لقد عملتُ كاتبة في الظّل، كنت أكتب لها أسئلة المقابلات، فتعطيني النصوص المسجلة حتى أكتب المقالات، في حين يلتقطُ زوجي الصور.

آلسيرا وليون

لم يكن لدى والدَي غيدو المال الكافي ليزوراهما في باريس. أو ربما كان لديهما، ولكنهما فضّلا إنفاقه على أشياءٍ أخرى. وكان لدى غيدو العديد من الإخوة في مدينة سانتا في، الذين أنجبوا بسعادة وبدون إحساس بالمسؤولية. بعيدًا عن البيئة الفكريّة، وبعيداً عن التشدد، بالكاد كانوا على علم بما يفضّلون عدم معرفته. أرسلوا رسائل موجزة ومتفرقة، عبارة عن تحيّات لا أكثر، تحدثوا فيها عن عملهم ومشاريعهم وعن ولادة أطفالهم. رسائل والدة غيدو كانت تبدأ بموجز مكرر عن أمراضها (ألم في المفاصل، فتقٌ حجابي، التهاب جيوب أنفية) والكثير من التلميحات إلى الأحفاد والحفاضات والأنوف المتسخة بالمخاط، ولم تفشل أبدًا بإضافة حكاية أو حكايتين مملتين بشكل قاتل من نوادر أبناء أشقاء غيدو، والتي لا يمكن إلا لجدتهم أن تعدّها ذكيّة، وغير متوقعة وحتى رائعة.

أما رسائل والدة إزمي، فقد كانت مكرّسة، قبل كلّ شيء، للحديث عن الطقس والمناظر الطبيعية.

درجة الحرارة اليوم تبلغ ٢٠ درجة، يُعدُّ الجو لطيفًا جدًا بالنسبة إلى شهر ديسمبر. الشمس تغرب، وهنالك غيوم وردية وحمراء رائعة. أستطيع رؤية مباني الحي من خلال النافذة، إنها إطلالة تبعث على الاكتئاب. لو كنت أشغل منصب العمدة، لأجبرت أصحاب الشقق السكنية على طلاء جدرانهم من الخارج.

ولم يكن لدى إزمي شكٌّ بأنها ستنجح في ذلك، فوالدتها تتمتع بموهبة طبيعية في ممارسة السلطة. في النهاية، كانت هناك عبارة لطيفة من والدها، الذي لم يرغب، وليست لديه القدرة على ملء صفحة بكلمات فارغة، والذي كان يكتب دائماً بأحرف كبيرة لأنه كان محرجًا من خطّ يده.

الوهم، والترقّب، وخيبة الأمل، والحزن كان هذا التسلسل الطبيعي للمشاعر التي تنتاب غيدو وإزمي عند استلام وفتح وقراءة الرسائل التي تصل (أو لم تصل) إلى صندوق بريدهما ثلاث مرّات في اليوم.

كانت زيارة والدي إزمي غير متوقّعة، مع من أنهما قد أعلنا عنها مرارًا وتكرارا. إنّها رحلتهما الأولى إلى أوروبا. كانا متوجهين إلى إيطاليا وانجلترا وقضيا بضعة أيام في باريس.

كان غيدو، في تلك الأيام، يقود سيارة عائلية صغيرة زرقاء اللون، جديدة تقريباً، وصلت مؤخراً من أمستردام. أما إزمي التي تهتمّ كثيرًا برأي والدتها، فشعرت بالفخر لامتلاكها شيئًا

تستطيع التباهي به أمامها. قامت بتنظيف الشقة بعناية، وكانت جاهزة لتحمّل أيّ تعليقات بغيضة أو ساخرة، ولكن ليس بالسرعة التي سألت بها أمها عن مكان وجود الثلاجة لتضع بداخلها علبة مغلفة. بكلّ الأحوال، كانت إزمي مسرورة لامتلاكها ثلاجة بدلًا من الكيس البلاستيكي المربوط بدرابزين النافذة، والذي استعملوه في خريفهم الأوّل وشتائهم الأوّل في باريس، دون الحاجة إلى دفع الفواتير.

قالت آلسيرا: «إذن هذه هي شقة الاستوديو الشهيرة».

وعلى الرغم من خلو صوتها من نبرة سخرية، فقد شعرت إزمي أن هذه الزيارة قد بدأت باتخاذ منحى متوقّع. شعرت بالارتياح نسبيًا.

قال ليون بلا مبالاة: «ما أجمله»، ثم جلس على السرير الذي كان خلال اليوم مليئًا بالوسائد، محولاً إلى أريكة. فصلت قطعة قماش سوداء معلقة من السقف المساحة التي خصصها غيدو للرسم دون أن يستطيع حجب الرائحة التي تعودت إزمي عليها عملياً، والتي شعرت بها الآن بكلّ لذاعتها.

عندها فقط رأت إزمي والدها، فقد حضنته لدرجة أنّها لم تكن قادرة على رؤية وجهه بعد بالفعل. صُدمت برؤية عينيه الدامعتين، وبطنه البارز، وملامحه المنتفخة. بدا عجوزًا، عجوزًا جدًا، بدا أكبر مما كان عليه بالفعل، أكبر مما بدا عليه في صور البولارويد الرخيصة التي كانا يرسلانها من حين لآخر.

سألت آلسيرا: «حسنًا إذن، أين يمكنني غلي بعض الماء؟».

بينما كانت تغلي الحقنة والإبرة، أخبرت إزمي بما لم تذكره في المقاطع الموصوفة بحذر في رسائلها، ما لم تخبرها خلال المكالمات الهاتفية النادرة والمربكة مع وجود صوت الصدى والضجيج على الخط، والتي لم يكن لها هدف سوى التأكد من أن الجميع كانوا على قيد الحياة. كانوا يعلمون لأكثر من عام أن ليون مصاب بمرض السكريّ؛ ومن المستحيل السيطرة على مرضِهِ عن طريق حميةٍ غذائية، فهو الآن يعتمد كليًا على الأنسولين.

«لحسن الحظ، وضعوا العلبة في الثلاجة على متن الطائرة. كلا، ذلك لم يكن حظًا لأنني قمت بالاتصال بشركة الطيران في الوقت المناسب».

مكث آلسيرا وليون في باريس لمدّة أربعةِ أيام فقط. إنها ليست مدّة طويلة على الإطلاق، ولكن طويلة بما فيه الكفاية لتتأكّد إزمي إلى أيّ درجة أصبحت حياتيهما الآن بقيّة حياة؛ لا شكّ أن ذلك بسبب تأثرهما بوفاة شقيقتها. تشبثت والدتها بالواقع، مستخدمة كل الإمكانات المتاحة لها، كطائر جارح يمسك بضحيتِهِ، بتلك المخالب. ركّزت على العيش بأيّ ثمن، وعلى إعطاء معنىً لكل عملٍ تقوم به. كان صوتها أكثر ثقة، وذكاؤها مكرّس لإيجاد أسبابٍ للاستمرار، للتنفس، للغضب، للضحك، ولصنع القهوة.

قالت: «يجب عليك أن تستمتعي!».

وبطاقةٍ جبارة، جرّت زوجها وابنتها وصهرها إلى كلّ النشاطات التي يتمّ الترويج لها في الكراريس السياحية على أنّها «ضرورية». خلال أربعة أيام ذهب غيدو وإزمي إلى المطاعم أكثر مما فعلا خلال السنوات الثلاث المنصرمة. أخذوا جولة في قارب باتو موش، أحد تلك القوارب الصغيرة التي تحمل السيّاح على طول نهر السين. زاروا المتاحف، والقصور، والمعالم الأثرية، وحتى إنهم ذهبوا ذات ليلة لمشاهدة عرض في كريزي هورس، حيث تقوم نساء يافعات عاريات بفعل كل ما في وسعهن للتغلب على التقليد القديم المتمثل في زيارة الشاطئ. (ولكن آلسيرا، طوال الأيام الأربعة التي بقيت فيها معهم، لم تنطق بكلمة «حفيد». ذلك الصمت الحذر الوقائي، والمقصود، جعل إزمي تشعر أنّها في حالة ميؤوس منها).

«كان طبيبي النسائي في باريس. سألته إن كان قد ذهب إلى كريزي هورس، فقال:

نساء عاريات؟ كلا! أنا لا أعمل أثناء عطلتي!».

روت آلسيرا تلك القصة مرّات عديدة، وكانت تضحك عليها دائماً وكأنّها المرّة الأوّلى، بضحكة قسريّة صاخبة، ويشاركها زوجها الضحك بكلّ ما بوسعه.

من ناحية أخرى، بدا والد إزمي مرهقًا عيناه الزرقاوان المحمرّتان تنظران دون أن تريا. كان مهتمًا بالطعام فقط،

وخاصة المأكولات التي لم يكن مسموح له بتناولها. كانت زوجته تشرف على حميته بهوس جنوني، وتطبّقه على كلّ شيء بذات الهوس. كان يدبّر كل أنواع الحيل، الهيِّنة منها والمعقدة، حتى يتهرّب من تلك السيطرة. كان والدا إزمي، وكأيّ زوجين متزوجين منذ فترة طويلة، قد وصلا إلى توازنٍ خفيّ للقوى. الأم تفرض شخصيتها الغاضبة، بينما الأب يوظّف، وببراعة، قوّةَ ضعفهِ. ذلك التعقيد وتلك الدقة في العلاقة أصبحا الآن أضعف وأسهل. كلّ التفاعل بينهما اُختُزل إلى صيغة واحدة: أن تأكل أو لا تأكل. وبالطبع كلما جلسا في مطعم ما، كان الموقف يرثى له.

تقول له آلسيرا محذرة، وهي تمرر له قائمة المأكولات: «اختر بحذر».

فيرد ليون بانزعاج: «اختاري أنتِ».

وعندما تتسلل يد ليون إلى سلّة الخبز، تصرخ آلسيرا: «أنت تعلم أن هذا ممنوع!».

في إحدى المرّات، ضربت على يده عندما أمسك بشريحة من الخبز الساخن، فأسقطها، فنظرت إزمي بخوف إلى غيدو، الذي أدار رأسه عمدًا لينظر في اتجاه آخر.

بشكل عام، كلما اكتشفت مناورات ليون، تجده يقوم بتغيير اتجاه يده، ليحكّ ذراعه بحماس وكأنّه لم يعنِ فعل شيء آخر. كان قد كرّس كلّ قوته في الحياة ليخدع زوجته، كلما سنحت

له الفرصة. انتظر حتى ذهبت والدة إزمي إلى الحمام، ليبتلع قطعة خبزٍ، مثل الذئب، أمام عيني إزمي المليئتين بالألم. كان كلاهما يحمل قطعاً من السكر، في حال أتته نوبة نقص سكر، وتتفقدها آلسيرا مرّتين في اليوم لتتأكد أن ليون لم يتناولها كما كانت الحال أحياناً.

في اليوم التالي، اقترح والد إزمي قائلًا: «هلّا احتسينا بعضًا من القهوة سويّا؟ فقط نحن الاثنان، أنا وأنتِ؟ هل تسمحين لنا يا آلسيرا؟ كما كنّا نفعل سابقًا؟».

شعرت إزمي بفرحٍ، وذهبا متشابكي الذراعين. كانت إزمي فخورة لتُظهر لوالدها تقدّمها في اللغة الفرنسية، ومعرفتها بالحيّ، وببائع الدجاج (الذي كانت تشتري منه كلّ عدةِ أيام دجاجة صغيرة مقطّعة)، ومعرفتها بالنادل في المقهى الواقع في الزاوية، وكذلك معرفتها بالمدينة. حالما دخلا المقهى، طلب ليون مثلجات.

«هل هذا مناسب يا بابا؟».

«بالطبع! سوف أزيد من جرعة الأنسولين قليلًا، وسأكون على ما يرام».

وقع عبء المحادثة كلّها على عاتق إزمي، فوالدها، وبسهولة، كان يمعن النظر إلى النادل بترقب وبصبر نافد. عندما أحضروا له المثلجات، ركّز على تذوقها وكأن ذلك الإناء الزجاجي يحتوي على معنى الكون.

كان يقول بين كلّ لقمة وأخرى: «لقد أخذوا كلّ أفراد عائلة كامينسكي. الأب، والأم، واثنان من الأولاد. نجح واحدٌ منهم بالهرب إلى بوليفيا ومن هناك إلى إسبانيا».

«علمنا بذلك. الناس الذين يأتون إلى هنا يجلبون لنا الأخبار».

بوجود القليل من المثلجات في فمه، بدأ ليون بعملية امتصاص بطيئة، لعب لسانه فيها دورًا هامًا. في طريقهم إلى المنزل اشترى قطعة شوكولا من نوع بينيه، من المخبز الذي في الزاوية، وكاد يختنق وهو يحاول الانتهاء منها قبل أن يدخلا المنزل.

في تلك الليلة، ارتفعت نسبة السكر في دمه، فزادت آلسيرا جرعة الأنسولين الخاصة به وهي ترمق إزمي بنظرة اتّهام، قائلة:

«ألم تقومي بمراقبته!».

«إنه شخص راشد يا أمي، أنت تنسين ذلك أحيانًا».

لفت هذا الحوار القصير انتباه الجميع إلى ذلك الموضوع الذي كانوا يتجنبونه طوال الوقت، إلى الاسم الذي لا يمكن نطقه. هي أيضاً كانت شابةً بالغة، هل أنا حارسة لأخي؟ لأختي؟ لابنتي؟ لم يلمْ أحد إزمي قط. آلسيرا وليون تجنبا لوم بعضهما بعضًا بحذر، ولكن ثقل الذنب كان على عاتقهما ويخنقهما.

وبما أنهم لم يذكروا الأمر. أصبح غياب ريجينا أكبر فأكبر، أحيانًا إلى درجة لا تُحتمل؛ كان يمتص كل الهواء، كلّ الأوكسجين المتوفر. فكّرت إزمي أن والديها، مرّة أخرى، وكالعادة، حسب ظن إزمي، مركّزان على شقيقتها، فكان عليها التحدث حتى لا ينفجر قلبها:

«هل تفتقدانها كثيرًا؟».

تأملتها والدتها بنظرة حكيمة وعميقة، مسّدت وجهها بعذوبة مؤلمة، وفي ردّها أظهرت نفسها من جديد، كامرأة متطلّبة، وذكيّة، ورائعة، كامرأة فظيعة وقادرة على القفز فوق سياج الكلمات لاختراق نطاق المعنى:

«لا تغاري من الموتى يا عزيزتي». قالت وهي تمسك يدها بحزم: «نحن نفتقدك أكثر لأنّك تستطيعين أن تكوني معنا، لكنكِ لستِ كذلك».

يوميات ٥

انتهيتُ من قراءة رواية فاسيلي غروسمان، الحياة والقدر، بعد شهر تقريبًا من البدء في قراءتها. ألف صفحةٍ حول الحرب، وحصار ستالينغراد، والستالينية، والشجب والاستنكار. لكن في الوقت نفسه، وعلى النقيض من محتواها، من وجهة نظر فنية، فهي رواية ستالينية: الواقعية الاجتماعية في أنقى صورها. إنها رواية ضخمة و قديمة الطراز بشكل غريب. رواية كاملة لا يعرف فيها الراوي كلّ شيء عن الأبطال فحسب، بل يروي أيضًا كلّ شيء، كل شيء على الإطلاق. تحتوي على الكثير من الشخصيات والمواقف التي بالكاد أستطيع تذكرها. لقد نسيت بعضها تمامًا، ولم أتمكن من التعرف عليها عندما تناولها المؤلف مرّة أخرى؛ البعض الآخر بالكاد يشغلون صفحة واحدة، ومع ذلك يمكن التعرّف إليهم بسهولة من خلال مظهرهم الجسدي وشخصياتهم وماضيهم ومستقبلهم.

ليست هذه هي الرواية التي أود كتابتها، على الرغم من الاحترام الذي أكنّه لها فإنها تستفزني. فأنا أميل أكثر إلى

أسلوب الإسقاط، والغموض، وبعض ضربات الفرشاة التي تتيح لك تخمين الباقي. لكن لا يسعني إلا أن أتساءل: لماذا يصعب عليَّ تسمية شخصياتي. وعندما أفعل ذلك، أشعر وكأنني أخون نفسي. ما هي المشكلة؟ لماذا ليست لشخصياتي ملامح؟ لماذا لا أصفهم جسديًا (مع الأخذ في الحسبان أنني قادرة على القيام بذلك). ما يزال غيدو وإزمي بلا اسم عائلة. هل يجب عليّ اختيار لقب يهودي؟ أم إيطالي؟ أم محايد؟ وفي كل حالة، لماذا؟ فجأة أدركت أنّ أخت بطلتي لا يجب أن تُسمى غلوريا كما قررت في البداية، إنما ريجينا. بينما كنت أركب مترو الأنفاق، خطر لي الاسم في لحظة، كضرورة مطلقة. يقوم الكمبيوتر بإجراء هذه التغييرات بسهولة.

لكن الأهم من كلّ ذلك، أسأل نفسي في كلّ خطوة: ما الذي يتوجب عليّ قوله؟ الكتابة أمر غير طبيعي. هل يجب أن أكتب المزيد عن الزوجين غيدو وإزمي؟ هل يجب أن أتحدث عن علاقاتهما الجنسية، ونشوئهما، وعن أحلامهما؟ وما الذي يسعد كلّ واحد منهما، وما هي خيباتهما، وما الذي يتوقعه كل منهما من الآخر دون جدوى؟ هل يجب أن يعرف القارئ ما إذا كانت إزمي طويلة أم قصيرة، هل عليه أن يعرف لون عينيها، وذكريات طفولتها؟ هل عليّ أن أكتب عن معتقداتها الدينية؟ هل من الممكن أن أقول كلّ شيء؟ هل يجب علي تناول كلّ شيء حولها؟

القرار

يسير غيدو وإزمي على طول شارع لارب، وهما يتمايلان ببهجة. الآن، حلّ الليل؛ وأصبح البرد الشديد يلسع خدودهما ويجعلها حمراء. الشارع مليء بالشباب الذين ينتظرون في طوابير للدخول إلى السينما، وإلى الحانات الصغيرة. إن العيش في باريس يسعدهما. تنبعث من الهواء رائحة حلوى الكريب والكستناء المشوية.

قالت إزمي: «أخبرتني ليليانا أن الناس في مدينة سياتل يلزمون منازلهم ويغلقون الأبواب بعد الساعة الخامسة مساءً. تضبح الشوارع فارغة، لا أحد يمشي في الطرق، فعليك أن تأخذ سيارة، حتى لو كان أمامك مسافة ثلاثة شوارع فقط».

«هنا، في أي بار صغير وتافه، يكون الطعام لذيذًا. إذا طلبت البطاطا المقلية، ستجدها شهية!». قالها غيدو وقد اعتلته موجة من الرضا.

كان الطقس لطيفًا جدًا، ودرجة الحرارة ظلت طوال اليوم ثابتة. بلغت درجة الحرارة عند الفجر ثلاث درجات مئوية.

وفي الظهيرة كانت السماء غائمة بكثافة، وظلت الحرارة ثلاث درجات؛ كذلك في فترة ما بعد الظهيرة، والآن، نحن في حوالي الساعة الحادية عشرة ليلًا وما تزال تشير درجة الحرارة إلى ثلاث درجات تقريبًا. على مدار عدّة سنوات، لم تتأقلم إزمي مع الجوّ، بل ظلت تشعر بالبرد أكثر فأكثر.

تابعت إزمي قائلة: «ألم تشعر بها من قبل؟».

سأل غيدو كما لو أنه لم يفهم عما تتحدث: «ألم أشعر أبدًا بماذا؟».

«الرغبة... في إنجاب الأطفال».

«نعم، ولكنها تمّر وتختفي، أتعلمين؟ لأن... ماذا لو تعبت لاحقًا وغيرت رأيي، بعد أن يكون الأمر قد وقع وانتهى؟ لقد تحدثنا في هذا الموضوع أكثر من ألف مرّة يا إزمي. ستأتي الرغبة، لكنني ما زلت لا أشعر...».

«ليس عليك أن تشعر بأي شيء. إنه شيء يحدث... هو سنَّة الحياة».

«لكن أنا وأنتِ لا نؤمن بذلك يا إزمي. نحن كائنات بشرية، نحن مثقفون، أليس كذلك؟ أفكر في كلمة أب وأراها مسؤولية كبيرة، كبيرة جدًا، و هامّة جدًا...».

علَّقت إزمي موجهة له ضربة بكوعها: «ليس بسبب والدك، هذا مؤكد».

تهرّب غيدو قائلًا: «بسبب الأب الذي أود أن أكونه».

إزمي، التي خسرت هذه المعركة، لكن لم تخسر الحرب، منحها هبوب رياح مفاجئة فرصة مناسبة لتغيير الموضوع.

قالت مشتكية: «أشعر بالبرد... أشعر بالبرد!».

قال غيدو بمحبة وبمشاعر أبوية، رغبة في تعويضها: «ارتدي سترتي».

قامت إزمي بتقييم معطف غيدو؛ بالإضافة إلى ملابسه الداخلية الطويلة والقميص الداخلي من الفانيلا، كان يرتدي كنزتين من الصوف ووشاحًا. حسنًا، يمكنها قبول السترة دون إلحاق ضرر جسيم بصحة زوجها. اقتربا من شقتهما الصغيرة، وهما يهنئان بعضهما بعضًا مرّة أخرى على السعادة التي تمنحها لهما باريس. إنها سعيدة لأنّ كل شيء جميل للغاية. يتمتعان برؤية جمال المدينة أثناء سيرهما في الطريق، وليس من الضروري البحث عن الأماكن الجميلة: يمكنك أن تنظر حولك في أي مكان أنت فيه، وستجد الجمال! إنّه يفكر في العديد من أجزاء المدينة التي لا يوجد فيها شيء جميل، لكنه لا يصرح بها؛ إنّه يعلم أنّها تعرف أيضًا. لذلك يفرح بصوت عالٍ، مشيدًا بالحافز الفني، ما يعنيه العيش في مدينة حيث يمكنك العثور على أشخاص من كلّ ركن من أركان العالم لتتبادل معهم النظرات والاهتمامات.

ارتدت إزمي سترة غيدو. وضعت يدها في جيب السترة،

فشعرت بحزمة صغيرة مزعجة ومدهشة. كانت علبة مستطيلة. أخرجتها ونظرت إليها. إنها حزمة من الواقي الذكري. قامت برج العبوة، اصطدمت قطع المطاط الموضوعة كل منها في غلاف بلاستيكي صغير، بالعبوة، مما جعلها تصدر صوتًا رتيبًا. كانت ما تزال تفصلهم سنوات قليلة قبل ذروة سنوات الإيدز. في الوقت الحالي، يتم استخدام الواقي الذكري فقط لتجنب الحمل في حالات الطوارئ. تستخدم إزمي اللولب، مع مرهم مبيد للنطاف اللعين، والذي يعمل كأرض خصبة لعدوى الفطريات، والتي بدورها تلزمها لإدخال كبسولات مبيدة للفطريات. من المفترض أن يظلّ اللولب في مكانه لمدّة عشر ساعات بعد ممارسة الجنس. إن إزمي تكره ذلك. الآن التقطت العلبة الصغيرة واستعرضتها في حالة من الفزع.

«ما هذا بحق الجحيم...».

«لا، لا شيء، هذا بسبب... إنه فقط كذلك... أردت أن أفاجئك!».

«حسناً، لقد فعلتَ!».

«أنا أعني... إنّه من أجلك، لأنك تشتكين دائمًا من استخدام اللولب، أليس كذلك؟ لذلك ظننت أننا ربما نغيّر... الطريقة، أعني... هاها... العودة إلى المصدر... إلى الطريقة القديمة!».

لكنها لم تبتسم. لم تبدو ممتنة لاهتمام غيدو، ولا لهديته الجميلة. سرت عاصفة ثلجية أخرى تحت السترة جعلتها

تشعر بالقشعريرة. لم تقل أيّ شيء. لم تستطيع التفكير في أي شيء لتقوله. على الرغم من ارتداءها القفازات، كانت يداها باردتين، لكنها لا تجرؤ على وضعهما في الجيوب مرّة أخرى. تأملت غيدو مثل رسامٍ يدرس وجه نموذجه.

قال لها غيدو مستدركًا الموقف: «ولكن هل تعلمين؟... لن نحتاجهم بعد الآن!».

انتزع العلبة الصغيرة من يدها وقذفها بدون تردّد في مجرى الصرف الصحي. وهو يؤكد لها بحماس: «لأننا سننجب طفلًا».

قالت إزمي غير مصدقة: «هل ما تقوله صحيح؟».

«صحيح. أنت على حق. أحتاج أن أصبح راشدًا لمرّة واحدة وإلى الأبد. حان الوقت».

«هنا؟ في باريس؟ طفل فرنسي؟».

«لا، بالطبع لا... هل تريدين طفلًا فرنسيًا؟ أتريدين طفلًا يولد مع نظارات مستديرة وصغيرة بدون إطار؟».

ضحكت إزمي لأوّل مرّة منذ اكتشاف العلبة في جيب سترته، وقالت: «وشفاه نحيفة!».

بلا شك، إن باريس مكانٌ جميل، لكنهما سئما من كونهما أجنبيين. إنهما يفتقدان بوينس آيرس. حتى إنهما يفتقدان

تلك الأشياء التي كرهاها، أو تظاهرا بالكراهية لها في بوينس آيرس. الأرصفة المكسورة وبلاطها المتصدع. رائحة البيتزا. الأشجار: تلك الأشجار لا غيرها. سائقو سيارات الأجرة الفضوليون دائمًا، والمستعدون دائمًا للدردشة بمزاجٍ رائق. الناس. أحباؤهم على وجه الخصوص، وسكان بوينس آيرس بشكل عام.

وهكذا، وبعد ما لا يزيد عن كلمتين، اتخذا بعض القرارات المصيرية في حياتهما. قرارٌ بإنجاب طفلٍ، وقرارٌ بالعودة إلى الأرجنتين. لقد ناقشا ذلك من قبل. مع خسارة حرب جزر الفوكلاند، انهارت الديكتاتورية. غيدو الذي لم يكن مناضلًا في يوم من الأيام، وإزمي التي كانت ناشطة، بعض الشيء، في الأوساط المتشددة بالجامعة، لم يعودا يشعران بالخطر.

مرّة أخرى، سرى فيها الشعور بالبرودة وبالتفاؤل والحماسة. مرّة أخرى، حدقت إزمي باهتمام في وجه غيدو، ولكن بطريقة مختلفة تمامًا، كما لو كانت تحاول قراءة تلك السمات التي سيرثها طفلها. أثناء عناقهما وتبادل القبلات، حاولت إزمي أن تتجاهل أن علبة الواقي الذكري الصغيرة كانت مفتوحةً وشبه فارغة.

يوميات ٦

شكوك، شكوك. أريد أن أروي هذه الحكاية من وجهة نظر إزمي. هل يجب أن أختار ضمير المتكلم؟ أنا حقًّا معجبة بصيغة المتكلم. أنا مفتونة بمحدودية آفاقها، وبكل ما لا تعرفه. لا يرى المتكلم ما وراء مجاله البصري. إنه لا يعرف (نحن لا نعرف) ما يفكر أو يشعر به الآخرون. بالإضافة إلى ذلك، أعتقد أن اختياره سيسمح لي بإثراء الشخصية بنبرة صوت معينة، ويمنحني المزيد من الحرية للتعمق في ذاكرته.

بطريقة ما، وبسبب أسلوب الرواية، والزمن الذي تجري فيه الأحداث، كانت هذه الرواية، حتى الآن، تقريبًا، استمرارًا لرواية أخرى من رواياتي وهي «حبُّ لوريتا». تُروى لوريتا بضمير الغائب، وإن كان تأثير الاعتراف عارمًا لدرجة أن لا أحد يدركه. حتى الآن لم أستخدم سوى صيغة المتكلم لتلك الروايات التي تُروى من وجهة نظر الرجل، مثل رواية أنا مريض، ورواية الموت كأثر جانبي. بموجب بعض قوانين الانحراف، فإن تلك الاستراتيجية تسمح لي بفصلهم عن نفسي أكثر.

عناصر السيرة الذاتية: نعم، هناك بعض العناصر، لكن القارئ لا يحتاج إلى معرفة أيّ منها.

إذا قررتُ أخيرًا بشأن اعتماد صيغة المتكلم، وأعدتُ كتابة كلّ شيء من وجهة النظر هذه، حينها ماذا سأفعل بهذا النص؟

البحث

ذات مرّة، كان هناك ملكٌ وملكةٌ لا يستطيعان إنجاب أطفال، وعادة في المجتمعات التي تسمح بتعدد الزوجات يمكن الكشف عن عقم الذكور. أما في جميع الثقافات الأخرى، فإن المرأة هي المسؤولة الوحيدة عن عدم الإنجاب. جعل الشامان الغواراني النساء يأكلن مسحوق الضفادع؛ وكان السود في داكوتا يضعون أحجارًا على شكل قضيب في داخلهن؛ وفي آسيا وأفريقيا، تمّ استخدام علاجات مثل كبد النمر، والمخالب، والعظام أو قرن وحيد القرن. وقد نصح المصريون بسكب الحليب مع الرمل على جسد المرأة بينما يدخلها الرجل. رأى الإغريق أنه عندما يكون عنق الرحم مغلقاً بإحكام شديد، يمكن فتحه بمزيج من الملح الصخري الأحمر والكمون والصمغ والعسل. كما استخدموا تقنية لتوسيع عنق الرحم بإدخال أنبوب من الرصاص في الرحم، وتسكب من خلاله المواد المطرية. أما في روما، فكانت النساء الأرستقراطيات يتوافدن إلى معبد جونو يبتهلن لأجل أن يحملن. وقد كان يتم جلدهن عاريات وساجدات، من

قبل مساعدي الإله بان، بالسياط المصنوعة من جلود الماعز. في القرن الثامن عشر، كان طبيب فالنسيا أرناو دي فيلانوفا، يُدخل فصًا من الثوم في المهبل، فإذا وصلت الرائحة إلى فم المرأة، تأكّد من خصوبتها. كان البرود الجنسي عند النساء مسببًا للعقم، بقدر الرغبة المفرطة. في القرن السادس عشر، أكّدّ الطبيب أمبرواز باريه على ضرورة توسيع عنق الرحم. اتبعت النساء العبرانيات معجزات الأبرار المخفيين وبجّلوها؛ واتبعت النساء الهندوسيات الدراويش وبجّلنهم؛ وصلّت النساء المسيحيات للقديسين وللعذراء وللرّب. كلّهن كنّ ينصتن بوقار إلى ترانيم وتعاويذ خاصة لاستعادة خصوبتهن. ربطن الصوف الأحمر بالحجارة، وقبّلن الثعابين؛ حبسن أنفسهن في داخل منازلهن أثناء الحيض وصُمْن. شربن أو أدخلن في أنفسهن جرعات من مواد غير ضارة أحيانًا، وأحيانًا كانت خطيرة، مثل تلك التي قتلت إمبراطورة بيزنطة، يوسابيا. ذات مرّة، كان هناك ملك وملكة لا ينجبان أطفالًا، وعلى الرغم من إدراكهما لهذه الحقيقة وتبلورها لديهما ببطء وعلى مرّ السنين، إلا أنها ظلت تصدمهما دائمًا. لقد ظنّا أنه أمر لا يصدق، وغير عادل على الإطلاق.

أما بالنسبة لـ إزمي، فإن تصوير الرحم بالأشعة كان هو الأسوأ. كانت على سرير نقّال وساقاها مفتوحتان ومقيّدتان، بينما قام الطبيب بحقن مادة التباين (المؤلمة) بقوّة في عنق الرحم (المتألم)، ليمتلئ الرحم نفسه (وهو يتألم) حتى يندفع

-أو يجب أن يندفع بشقّ الأنفس- من خلال قناتي فالوب، ممَّا تسبب لها بأعظم ألم شعرت به في حياتها. مما جعلها تطلق صرخة لم تستطع السيطرة عليها، حتى غشيت عيناها. وقف الطبيب خلف الستار العازل (من غير إنصاف) لكي يحمي أعضائه التناسلية. سمعت إزمي نقرة آلة الأشعة السينية. ثم سمحوا لغيدو بالدخول. مسّد جبينها وهو خائف. لم تكن إزمي فاقدة للوعي تمامًا، كانت بوضعية نصف جالسة وبدأت تتقيأ على الأرض.

صورة الرحم والبوق، هو الاسم السخيف (والذي لن تنساه أبدًا) لإجراء الأشعة السينية للرحم وقناتي فالوب، وهو بلا شك أسوأ شيء حتى الآن. أسوأ بكثير من الإهانة الصغيرة المتمثلة في قياس درجة حرارتها كلّ صباح عن طريق الشرج. أسوأ بكثير من الإجابة على أسئلة الدكتور سيلفربيرغ التي تقتحم خصوصيتها. لفترة من الوقت، اعتقدت إزمي أنه لا يوجد شيء أسوأ من نسيان أو تجاهل الوظيفة الرئيسة للجنس، المتمثلة بالمتعة، وتحويلها إلى عمل روتيني وواجب ينظّمه مؤشر الزئبق في ميزان الحرارة، وتحويل الرغبة إلى التزام، ومع بقاء التركيز كله على النتيجة. ظنت إزمي أن الأسوأ هو أن تبدأ بالشعور بالأعراض، توترٌ في ثدييها، وألمٌ في فخذيها، وتشنجاتٌ في أسفل بطنها، محاولة عدم فقدان تخيلاتها، وإقناع نفسها بأن كلّ هذه هي أعراض الحمل. إنها نفس أعراض الحمل، هكذا هي، نفس الشيء... حاولت إقناع

نفسها بأن تلك القطرات الأولى من الدم، في ذلك التاريخ بالتحديد، يمكن أن تكون بسبب الزرع الجنيني، ولا ينبغي أن يستمر الحيض لدى العديد من النساء لفترة من الوقت، وأحيانًا طوال فترة حملهن، ولكن ليس لدى إزمي، وهكذا فإن الدم التقليدي، والذي يميل إلى اللون البني في البداية، صار يتحول تدريجيًا إلى اللون الأحمر مع زيادة في التدفق، وبعد ذلك تحوّل الحلم إلى أشلاء وخيبة أمل وحزن، وتحطّم حلمها مرّة أخرى في منبع دمها القديم.

لكن مخطط الرحم والبوق، كان الأسوأ حتى الآن. الميزة الوحيدة هي أنه لم يكن مكررًا. أملت إزمي (وهي تنتقل من أمل إلى آخر) أن النفخ وحقن ثاني أكسيد الكربون ليس ضروريًا في تلك اللحظة من تاريخ الطب، وذلك لتحديد ما إذا كانت قناة فالوب مفتوحة أم مسدودة، ولفتح الانسداد إذا كان ذلك ضروريًا. وأيضاً لفحص قرني الرحم، المكان الذي يلتصق فيه الرحم وقناتي فالوب. آه، أيّة سيمفونية يمكن العثور عليها في قرني رحمها! في سيمفونية (بيتر والذئب)، التي جعلها والداها تستمع إليها مرارًا وتكرارًا عندما كانت طفلة، بهدف إيقاظ قدراتها الموسيقية الكامنة، كانت القرون شريرة ومخيفة... نعم مخيفة، فقد كانت تمثل الذئب.

عندما جاء غيدو وإزمي لأوّل مرّة إلى عيادة الدكتور سيلفربيرغ، كانا مقتنعين، تقريبًا، بأنها زيارة سابقة لأوانها. بعد كلّ شيء، لقد مرّت، فقط ستة أشهر على محاولاتهما الفاشلة

لإنجاب الطفل الذي كانا قد تجنباه تمامًا حتى ذلك الحين. لكن، لم يكتفِ الطبيب بالاهتمام فقط بمحاولاتهما التي دامت ستة أشهر، بل اهتم، بشكل مهين، بالعامين من زواجهما. أطلق عليهما لقب «الزوجين العقيمين». وهذه التسمية المخزية، التي لم يطبقاها على نفسيهما أبدًا، الاسم الذي وحَّدهما في فشلهما، هو ما دوّنه في ملفهما.

إن التباطؤ الذي بدأ به التشخيص سرعان ما جعل إزمي تدرك أنه، قبل كل شيء، كان الأمر يتعلق بالسماح لهذا الجهة الغامضة التي يبدو أنه من المستحيل أن تنسب إلى البشر -الطبيعة القديمة، غير المفهومة- أن تقوم بعملها. لا يمكن للطب أن يفعل الكثير ما لم ترغب الطبيعة في التعاون. كان الخط البياني لدرجة الحرارة غير الموثوق به هو الطريقة الوحيدة لمعرفة ما إذا كانت الإباضة قد حدثت أم لا. كان على إزمي أن تعتاد على البقاء في السرير عندما تستيقظ حتى تُدخل مقياس الحرارة، تنتظر بضع دقائق، ثمّ تسجل النتائج. استهلكت العملية ثلاثة أشهر لمراقبة الخط البياني، وتدوين طول مدّة دوراتها. خلال تلك المرحلة الأولى من استشارتهما، تمت دراسة المرأة فقط. ولأن المرأة شابة، سارت الاختبارات والأشعة السينية والدراسات ببطء، وخلال زيارات متتالية، مما يتيح وقتًا للصدفة أو الحظ، أو الطبيعة. بعد عدّة أشهر، وربما بعد سنوات، يطالب الأطباء بإجراء فحص لعدد الحيوانات المنوية.

مثل أيّ امرأة، مثل الملكات والفلاحات والعبيد، مثل ملايين النساء عبر التاريخ، اجتازت إزمي متاهات العلم من خلال الألم والإهانة والعقوبات، مدعومة بتلك الإرادة، ربما البيولوجية، التي يبدو أنّها صارت الآن تشغل كلّ حياتها، إرادة إنجاب طفل.

إن تصوير الرحم هو الجزء الأسوأ من مراحل العلاج، ولكنه أيضًا الأكثر فعالية. أظهرت النتيجة أن الرحم سليم وخالٍ من الالتصاقات أو التليّف. إحدى قناتي فالوب كانت مسدودة، ربما يتم فتحها بواسطة صبغة التباين. النفخ غير ضروري، لأنه بعد بضعة أيام من الاختبار، ستكون إزمي حاملًا.

يوميات ٧

اليوتوبيا تروي أو تصف مجتمعًا رائعًا ومثاليًا. أما فكرة الديستوبيا فهي أسوأ ما في العوالم الممكنة. يسير زمن الأوكرونيا على طول جداول زمنية بديلة ومعاصرة: على سبيل المثال، كيف كان سيبدو عالمنا لو أن النازيين انتصروا في الحرب العالمية الثانية. بدأت هذه الرواية تتخذ شكلاً من أشكال الأوكرونيا الشخصية، سيرة ذاتية بديلة. ماذا يمكن أن يحدث لي إذن؟ على الرغم من أن قصتها قد تختلف عن قصتي، إلا أن شخصية إزمي التي اخترتها في روايتي، تمثل الأنا الأخرى لمؤلفتها (وليس أنا بالضبط، لأنني لست سوى شخصية بديلة أخرى، مشابهة وغير أمينة).

بعض الصعوبات التي واجهتني (أسقط، أنهض، وأخطو بشق الأنفس): مرّة أخرى، وكالعادة، أعرف ما تقوله الشخصيات؛ ويمكنني أن أروي ما يحدث لها، وأُفسّر أو أُظهر تفاعلاتها. من ناحية أخرى، من المستحيل بالنسبة إليّ وصف الأماكن والأشياء والأجواء في مسودتي الأولى. في

البداية، تكون شخصياتي موجودة في اللا مكان، مثل رسومات الأطفال التي تبدو فيها الرسومات التي هي مجرّد خطوط ومنحنيات وكأنّها تطفو على الورقة، وذلك لافتقارها إلى خط الأفق وأشياء تربطها بالأرض. لحسن الحظ، أنا على دراية بهذا النقص، وفي المسودة الثانية أضيف بعض العناصر الضرورية لتحديد مواقع الشخصيات وربطها بالعالم المحيط بها.

حتى الآن، ليس لغيدو اسم عائلة. في روايتي الأولى، لم يكن لبطل الرواية حتى اسم أول. آه، يا لها من متعة! فهو لم يكن بحاجة إلى اسم.

العودة إلى الوطن

بينما كانت إزمي تحاول بجد وبسرّية متابعة العلاج من أجل إنجاب طفل، عادت إلى وظيفتها القديمة بصفة كاتبة نصوص إعلانية، والتي كانت قد تباهت بأنها تحررت منها، لكنها في الواقع افتقدتها كثيرًا. تمنّت لو أنّها كانت تُجيد اللغة الفرنسية بما يكفي للعمل في وكالة إعلانات في فرنسا. على أوراقٍ كبيرة ومنفصلة لم تعرضها أبدًا على أحدٍ، ولا حتى على غيدو، حاولت إزمي إعداد إعلانات تجارية ونسخ نماذج من الإعلانات التي درستها باهتمام في المجلات والصحف الفرنسية. لكنَّ الإعلان التجاري الجيد يتطلب أن يجيد المرء اللغة بإتقانٍ ويعي مستوياتها، ويدرك الاختلافات بين اللغة المكتوبة والشفوية، واللغة الفصحى واللغة العامية للشوارع، ويكون ملمّاً بتلك الكلمات التي كانت رائجة لدى الجيل السابق، والتعابير الجديدة التي يتداولها الشباب الصغار، وكذلك يتطلب معرفة تهويدات الأطفال، والحكم والأمثال، والأغاني الشعبية، والمزيج الدقيق من التلاعب بالألفاظ والشعور بالتاريخ والثقافة والذي لا يمكن اكتسابه في بضع

سنوات فقط ، وهو أمر قد لا يكتسبه الأجنبي على الإطلاق.

بعد حرب الفوكلاند، بدأت الديكتاتورية تنهار بسبب محاولتها السيطرة على جزر الفوكلاند. آخر جنرال تولى الرئاسة وجد نفسه مضطرًا للدعوة إلى إجراء الانتخابات. أخيرًا، وبعد سنوات عديدة، غطت منشورات الدعاية السياسية، مرة أخرى، جدران المدينة. امتلأت الصحف وبرامج الإذاعة والتلفاز بالسياسة.

عند التعامل مع السياسة، فإنه لا يقال: إعلان، بل دعاية. تدفع الأحزاب السياسية أو مرشحوها مقدمًا، إذ لا بدّ للوكالات (ووسائل الإعلام، ومنتجي الأفلام، والمصورين، وجميع قطيع مصاصي الدماء الصغار، الذين يتغذون على الدماء السياسية خلال عام الانتخابات) التأكد من حصولهم على رواتبهم، حتى لو كان المرشح أو الحزب سيخسر الانتخابات.

بدأت إزمي، من جديد، العمل في وكالةٍ. وشكلت جزءًا من فريق مكرّس للعمل لحساب طرف سياسي، لصالح حزب صغير جدًا، عمليًا هو مجرّد عائلة، لكنه ذو تاريخ طويل وأحلام في السلطة. كان العديد من الإخوة يجتمعون، جالسين حول رئيس حزبهم، وهو خبير اقتصادي هام، يتفاخر بأنّه كان قادرًا على اكتشاف وإدانة كل ثغرة من الثغرات الاقتصادية والسياسية التي سقطت فيها البلاد بسبب عدم الإصغاء إلى تنبؤاته في الوقت المناسب. أراد أن تتمحور الحملة الانتخابية

حول هذا الموضوع، حيث شعروا بصلابة وقوّة موقفهم. كان من غير المجدي محاولة إقناعهم بأن الناس لا يصوّتون لصالح تجار الموت والظلاميين. إلى جانب (وهذا لا يمكن ذكره) أنّه لم يخطئ أي متنبئ حول الكوارث والمصائب التي حصلت في الأرجنتين. في الواقع، كان الأب، والإخوة، وأبناء العم، وغيرهم من الأقارب والأصدقاء الذين شكّلوا الحزب، أشخاصًا أذكياء جدًا، ومن دواعي سروري التحدث معهم حول أي موضوع آخر، لكنهم كانوا عميان البصيرة بشكل غريب عندما يتعلق الأمر بالسياسة، مع أنهم كانوا في وضع جيد للغاية من حيث القوة الاقتصادية. سمحت العلاقة الممتازة بين قيادة الحزب، والشركات الكبرى في البلاد بالتدفق المستمر والوفير للأموال على حملة السباق الانتخابي المثيرة للدهشة. كان العديد من المدراء التنفيذيين في هذه الشركات مقتنعين بفائدة المساهمة بمبالغ كبيرة في حملة الحزب. ويرجع ذلك، من جهة، إلى أنهم ساهموا في حملات جميع الأحزاب، ومن جانب آخر، لأنهم كانوا أشخاصاً يتمتّعون بالسلطة وبالعلاقات الكافية لإفادة الشركة، حتى لو لم يفوزوا بالانتخابات، ولكن بشكل خاص لأن وكالة الإعلان تسترد نسبة كبيرة من تلك المبالغ والتي ستنتهي في حساباتها الخاصة في الخارج.

في غضون ذلك، بدا أن زعيم الحزب وأبناءه قد وضعوا ثقة لا حدود لها في صاحب وكالة الإعلانات، الذي أغواهم بمظهره الجسدي حيث كان، طويل القامة، بوجه جندي

روماني، رجل أبيض سابق لعصره، عرف كيف يجعل ضحاياه يقعون في حبّه، ويستسلمون ببهجة مثلما يستسلم ذكر فرس النبي لشريكته المفترسة.

ضم فريق الحملة كاتبين، وطبيب نفساني متخصص في استطلاعات الرأي ودراسة السوق. كان صاحب الشركة المسؤول عن تصوير إعلانات الحملة التلفزيونية القصيرة، قد رشح نفسه للهيئة التشريعية. بشعره الأصفر المصبوغ والأنيق، وبسلوك سحلية في قاعة بوينس آيرس (أشبه بمحاكاة ساخرة)، أنتج بسرعة، ووفقاً لمطالب الوكالة (التي كانت لها فوائد محدودة في كل عملية إنتاج)، أنتج سلسلة طويلة لها من الأفلام التي شكّلت تدريجيًا أسوأ حملة انتخابية في العام، لكنّها كانت الأغلى سعراً بفضل مجموعة ذكية من العوامل.

بينما عادت إزمي إلى عملها في الإعلان، مثل شخص يعود إلى حبيب قديم، لم ترغب أبدًا في تركه، بينما تخلّى غيدو عن القانون تماماً، مثله مثل شخص يتبرأ من علاقة حبٍ عابرة وفاشلة إلى الأبد. لكن في بوينس آيرس، لم يكن من المنطقي أيضًا الاستمرار في التظاهر بكونه رسامًا. قبل مغادرته باريس، باع جميع حاملات لوحات الرسم تقريبًا، باع جميع فراشيه، وألوانه الزيتية، وألواحه القماشية لأصدقائه، في عملية بيع بالمفرّق.

لقد أمّن له تهريب الحافلات الصغيرة من أمستردام مبلغًا

زهيدًا من الفرنكات، والذي سيكون له الآن بعض الأهمية في الأرجنتين، بعد أن انتهى جنون «المال السهل». تلك الفكرة الوهمية التي فرضتها الدكتاتورية والتي كررتها لاحقًا بعض الحكومات الديمقراطية، فكرة أن البيزو الأرجنتيني يمكن أن يكون معافى وأكثر قوّة، والأهم من ذلك كله، أن يتمتع بقوّة شرائية أكبر من الدولار. بفضل هذا المال، دخل في شراكة مع أحد أصدقائه، وبدأ بإنشاء مشروع متواضع في مجال النسيج.

سرعان ما أصبح غيدو رجلَ أعمالٍ حقيقي، ومخلصًا للتطور النظري لمصالحه. كما هي الحال دائمًا، ابتسم ابتسامة فيها تسامح وتفهّم لخطواته التي بدأ بها شبابه. لقد تخلّص، وإلى الأبد، من ملابسه العملية والملطخة بألوان الرسم التي كان يرتديها في باريس، وصار حريصًا على أن تكون قمصانه مكوية بعناية. لقد تحول من الماريجوانا إلى أقراص الليكسوتان، وأصبح دقيقًا وحريصًاعلى الشكليات بشكل غير متوقع، واشترى عددًا من ربطات العنق الرائعة.

يوميات ٨

من إرّي دي لوكا، وهو كاتبٌ إيطالي:

بينما تطول الصفحات، يزعجني أنني لا أستطيع تذكّر اسم الفتاة. فجوة خمسين عامًا ليست بعذر. تتكون عنها في ذهني بعض الجمل بينما أتقدّم في الكتابة؛ تُضافُ تفاصيل محددة ولكن لا شيء عن اسمها. يمكنني أن أطلق عليها اسمًا اعتباطيًا، اسمًا من الميثولوجيا الإغريقية، ولكنني سأتحول إلى ممارس آخر في المهنة، إلى شخصٍ يقوم باختراع الأشياء.

كقارئ، أنا أنسى أسماء شخصيات قصة ما على الفور. فالأسماء تقليد، ولا تضفي الاستمرارية. ولذلك أترك مكان الاسم فارغًا وأستمر بمناداتها بالفتاة، لأنني لم ألتقِ بها عندما كانت طفلة.

عنوان الكتاب هو: الأسماك لا تغمض عينيها. يقوم إرّي دي لوكا بإثبات الصعوبات التي تعترضني، بأسلوب أنيق. إن كان لوكا نفسه، كقارئ، ينسى أسماء شخصيات قصة ما على الفور، فلماذا نتكبّد عناء تأليفها؟

بالطبع، لوكا يقوم بربط ذكرياته (أو يدّعي ذلك). في هذه الحالة، أنا مجرّد ممارس آخر للمهنة، شخص يقوم باختراع الأشياء. لدي الحق بأن أطلق عليهم الاسم والكنية التي تحلو لي. أو أن أتركهم بدون اسم إن فضّلت ذلك. في بحثه اللا نهائي عن الزمن المفقود، يقوم بروست بذكر اسم شخصيته الرئيسة مرّة واحدة فقط.

التحدّي الأولمبي

ظنت إزمي أن الأيام التي عانت فيها ألمًا ومرارًة بسبب فقدان أختها، قد وّلت. لم تدرك أن سنواتها في المنفى قد أخفت، وأضعفت، أو أجّلت مراحل معينة من الحزن.

لم تكن ريجينا معها في باريس من قبل، ولا شيء في باريس ذكّر إزمي بها. فقط الآن، وهي في بوينس آيرس، تمكّنت من إدراك أثر غيابها الذي كان في كلّ مكان. في الساحة التي لعبتا وكبرتا فيها معًا، في المقاهي حيث كانتا تلتقيان، وفي الشوارع، في الحافلات، في دور السينما، في الأحلام، وخاصة في منزل والديهما. كان هناك كرسيٌّ أحمر ذو أذرع، حيث كانت تجعلها تجلس مغمضة العينين، ثم تقوم بدفعها حول المكان وتلعبان لعبة قطار الشبح. كان هناك كوب على شكل دونالد داك، الكوب الوحيد الذي ترضى ريجينا أن تشرب به الحليب، الأغطية المزخرفة والمخططة بالأخضر والأبيض، فوق السريرين المتماثلين في غرفتهما المشتركة. لقد كانت ريجينا حاضرة في تلك التفاصيل، مثل ذكريات ثقيلة لا تُحتمل، وعلى

ما يبدو راسخة، إلى أن بدأ بطن إزمي بالانتفاخ. فقط في تلك اللحظة بدأ غياب أختها الرتيب بالاضمحلال ببطءٍ، لدرجة أنّه كان من المستحيل ملاحظته.

رغم أنّ الحمل بدا ثابتًا وفي حالة ممتازة، ونعمة لا يوجد سبب يدعو للخوف من زوالها (إزمي وربما غيدو كانا خائفين من القادم لاحقًا). فكما لكلّ شيء بداية، لا بدّ أنه سينتهي أيضاً في وقتٍ ما. وهكذا وجدت إزميرالدا نفسها، في إحدى الليالي، تشعر بانقباضات (إذن هذه هي الانقباضات الشهيرة!) كلّ عشر دقائق، بينما كان غيدو يراقب ساعة يده، ويدوّن ملاحظاتٍ ويجري حساباتٍ.

كانت حقيبة الولادة من أجل الذهاب إلى المستشفى جاهزة منذ أيام. شعر غيدو وإزمي، اللذان قد حضرا دروس ما قبل الولادة بجدية والتزام، وكأنهما عدّاءا ماراثون وقد وصلا أخيرًا إلى لحظة التحدّي الأولمبي، بعد تسعة أشهر من التدريب الشاق. إمّا الآن أو أبدًا! كانت إزمي تلهث بحماس كلما شعرت بانقباضات الحمل، بينما غيدو يمسّد ظهرها ويلهث معها محاولًا مواءمة إيقاع تنفّسها أكثر من اللازم. كلاهما كانا يلهثان بإيقاع وبسعادة؛ حيث تأتي الانقباضات كلّ عشر دقائق، ولم تكن مؤلمة كثيرًا.

اتصل غيدو بالطبيب، الذي بدوره طلب التحدث إلى إزميرالدا، وهدأهما، وطمأنهما أنه هو والقابلة، جاهزان

لاستقبال أي اتصال منهما، وللمغادرة في أي لحظة، وأنَّ عليهما الاتصال مجدداً في حال حدوث الانقباضات كلّ ثلاث دقائق، أو في حال حدوث أي مستجدات أخرى.

سأل غيدو، بصوتٍ مرتجفٍ بعض الشيء: «أيُّ مستجدات أخرى؟».

أجابت إزمي، التي كانت قد درست الموضوع بصرامة: «السدادة المخاطية».

قال غيدو: «لقد نسيت. لقد نسيت ماذا يحصل للسدادة المخاطية».

شرحت إزميرالدا: «السدادة المخاطية تسقط».

سأل غيدو: «وهل هذا أمرٌ طبيعي؟ هل ستعرفين إن حصل ذلك؟».

«إن هذا أمر طبيعي، وسوف أشعر به عندما يحدث. قد ينزلُ ماء الرحم أيضاً».

«لا تخبريني. لا أريد معرفة ذلك».

«لا شيء خطيرٌ يا غيدو. لقد شرحوا لنا الأمر. في هذه المرحلة لا شيء خطيرٌ».

«لا أحبّذ فكرة انفجار أيّ شيء في حوض السمك».

كان جنس الطفل ما يزال مجهولًا، ولكنهما اعتادا على

مناداته: فرخ السمك الصغير، وبالطبع، كان بطن إزمي هو حوض السمك. ونظرًا لأنه لم يكن من الممكن تحديد جنس الطفل على وجه اليقين قبل الولادة، فقد جهّزت الجدّات كمية هائلة من ملابس الرضّع، بأطياف من اللون الأخضر الفيروزي والأبيض والأصفر الليموني. أصبحت الانقباضات أكثر إيلامًا عندما صارت تأتيها كلّ ستّ دقائق.

ثم انطفأت الأنوار. كان ذلك يحدث بشكل دوري، ويمتد بين عشر دقائق وثلاث دقائق. كانت شقة غيدو وإزمي في الطابق الخامس عشر.

قالت إزمي بين انقباضٍ وآخر :»أخبر الطبيب أن علينا الذهاب إلى المستشفى، ما زلتُ أستطيع النزول على الدرج؛ وسيكون ذلك أصعب لاحقًا».

نزل غيدو في المقدمة، حاملًا الحقيبة بيد والمصباح باليد الأخرى. اتكأت إزمي على كتفيه ونزلت بحذرٍ خطوة بخطوة في الظلام. كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل، وكان الحارس نائما، فلم يتكبّد أحد عناء وضع الشموع لإنارة الدرج. كانت رحلة بطيئة وطويلة، ازدادت الانقباضات خلالها. في الطابق الثاني، كانت توجد شمعة واحدة، وبين الطابق الأول والردهة، قطراتٌ من الشمع الذائب.

قال غيدو: «سأقتلكِ إن انزلقتِ!» كان تهديدًا نابعًا من الحبّ.

لكن إزمي انزلقت. كيف يحدث السقوط بالضبط؟ يمكن لآلة التصوير أن تظهر السقوط ببطء وبالتفصيل، ولكن بالنسبة إلى الشخص الذي يسقط، فإنّ السقوط عمليًا لغز غامض. فهو يأخذ وضعية تلو أخرى، ولكن بالرغم من ذلك فهو شيء لا يمكن استيعابه. كيف ولماذا امتدت القدم إلى ما بعد حافة درجة السلم؛ كيف ولماذا أخفقت اليد التي كانت تُمسك بكتف غيدو، ممّا جعلها تفقد التوازن؛ كيف ولماذا لم تمسك بالدرابزين لحمايتها من السقوط؟ لحسن الحظ، كانت على بعد عدة درجات فقط، امتدت ساقا غيدو بإحكام لمنعها من التدحرج. وهناك، صارت إزمي على الأرض فَجأة. وعلى الرغم من أنها شعرت بالسقوط ببطءٍ شديد، لم تستطع إعادة تخيّل أو استيعاب ما حصل. الألم... الألم. شعرت بالألم في كامل جسدها، وبعض الشيء في رأسها، وبطنها أيضاً، وعلى كلِّ حال، لم يكن ألم السقطة هو ما جعلها تصرخ صرخة كتومة،أو نواحًا مسيطرًا عليه، بل عنف الانقباض الذي جعلها غير قادرة على الإحساس بأي شيء آخر.

في غرفة المستشفى، استسلمت إزمي للألم كليًا؛ توقفت عن الادعاء بأنها تستطيع تحمّله. كانا في الطابق السفلي المطلّ على الخارج. كما في الأفلام (وما هي الحياة سوى محاكاة سيئة لهوليوود بكل الأحوال)، تمسكّت بقضبان اللوح الرأسي للسرير لتتخطى الانقباضات، وصرخت صرخات تشقّ الآذان، خارجة عن السيطرة وبدون خجل.

«تنفسي يا عزيزتي، تنفسي!» قال غيدو مذعورًا وهو يمسك بيديها خلال لحظات التوقّف القصيرة بين الانقباضات، وكأنه لم تكن هناك طريقة أخرى للتنفس في محيط الألم الذي ابتلع إزمي، سوى باللهاث. كان هو أيضاً يلهث، كنوع من التضامن ليكون قدوة حسنة لها، وليحدد الإيقاع الذي كانت إزمي تنساه، لأن لهاثها غير المنتظم كان استجابة لإيقاع ألمها الداخلي الذي قد اجتاح جسدها وعقلها بالكامل، وبدا كأنه لا علاقة له بآلام ولادة طفلها والذي صار حينها مجرد احتمال بعيد، بالكاد تستطيع تذكره.

فجأةً، دفع الطبيب والقابلة الباب على مصراعيه، داخلين بعنفٍ، مثل رجال الشرطة في برنامج تلفزيونيّ. كانت الصرخات تُسمع من الشارع بدون أدنى شك. تفقّد الطبيب مدى توسعّها، ثم أمر بحقنة لإزالة الانقباضات غير المفيدة، بينما كانت القابلة تُعلّمها كيفية السيطرة على الألم. تحدثت إليها بصوت هادئ وحازم، وأخيرًا فهمت إزمي أن كلّ التعليمات والتمارين والتقنيات الطبيعية التي ينبغي على المرأة الحامل أن تتعلّمها وتطبّقها أثناء الولادة، لم تكن تفيد في مساعدتها في التخفيف من الألم أو السيطرة عليه، بل كانت في خدمة من حولها. كان الأمر يتعلق بتجنب تلك الصرخات المزعجة والبغيضة، وهي في الواقع ردّ فعل الجسم الأكثر طبيعية ووضوحًا، وأسهل طريقة لتفريغها وتخفيف الإحساس بالانشطار إلى قسمين، وهو بالضبط ما كان يحدث

لها. الانشطار إلى اثنين. في تلك اللحظة، لم تستطع، ولم ترغب أن تتذكر جزء بطنها الذي كان على وشك أن يصبح شخصاً آخر. الآن هي تفهم وتحسد أولئك النساء من السكان الأصليين، اللواتي تخيلتهن معزولات في غابة، كيف يلدن بسلام، وهنّ في وضعية القرفصاء وبمفردهن، وربّما بوجود امرأة أخرى إلى جانبهن، ويصرخن بملء قلوبهن. على كلّ هذا، كان طبيب التوليد الخاص بها متحضراً وكريماً لدرجة أنّه أعفاها من الممارسات المعتادة، والعذاب الإضافي للحقنة الشرجية. بالكاد كان هناك فاصل زمني بين الانقباضات عندما قرّر الطبيب أن الوقت قد حان للذهاب إلى غرفة الولادة.

سأل الطبيب: «هل تريدين إخضاعك للتخدير يا إزمي؟».

لهثت إزمي بسخط وقالت: «يا له من سؤال! بالطبع أريد!».

ردّ الطبيب: «أنتِ منْ عليها أن تقرّر!».

أعطتها ممرضة حقنة فوق الجافية. في البداية، شعرت بالخوف من اختراق الإبرة الموضع بين فقراتها، ثم شعرت بالألم، ثمّ بدوامة هائلة بطيئة. دخل السائل إلى الفراغ فوق الجافية بين الحبل الشوكي والفقرات، دخل -الله وحده أعلم إلى أين؟- إلى جزءٍ من جسمها، لم يكن موجودًا. جزء لم يوجد حتى اللحظة.مكتبة سُر مَن قرأ

في تلك الأيام، كان الآباء -بعض الآباء- قد بدؤوا بحضور

عملية الولادة بعد الإذن من الأطباء -بعض الأطباء. كان غيدو يرتدي ثيابًا طبية بيضاء، ويضع قبّعة وقناعًا طبيين، عندما جعله التردد يظنّ أنّه سيكون من الأفضل ألّا يدخل إلى غرفة التوليد. كانت إزمي ممتنة لذلك، لأنّها الآن تستطيع أن تقلق على نفسها فقط، ومع ذلك لم يسمحوا لها بذلك (كم سيكون من الفظيع أن تصرخ وحيدة في غابة وهي في وضعية القرفصاء). قامت القابلة والممرضات بوضعها في وضعية الولادة، وذلك بتثبيت قدميها في ركائب، مما يسمح لها بالدفع وإسناد نفسها كلما دعت الحاجة للدفع، كما يحدث الآن. كانت بالكاد تشعر بساقيها، ولكنها شعرت بالانقباضات التي لم تكن مؤلمة. ادفعي، ادفعي. تعالت أصواتٌ من حولها. والآن، ادفعي مجددًا. وكأنّه كان من الممكن عدم فعل ذلك، وكأن رحمها لم يكن هو منْ قرّر الدفع بكلّ قوّته حتى يطرد ذلك الجسم الغريب مرّة واحدة، وإلى الأبد، والذي كان الآن، ولأوّل مرّة، يكفّ عن كونه جزءًا منها.

وضعوا الطفلة اللاهثة المتسخة على صدرها. كانت كلتاهما متعبتين وربما سعيدتين. أخذوها بعيدًا، ليعرضوها على والدها وجديّها. انفصلت المشيمة عن إزمي، ثمّ حدث شيء غيّر النبرة في غرفة التوليد، فقد احتدّت الأصوات، وحدثت حالة طارئة معينة، الأمر الذي جعل إزمي تُدرك أنّ شيئًا ما لم يكن على ما يُرام. وبعدما قام الطبيب ببعض المناورات غير المفهومة، والتي رأتها بدون أن تحسّ بشيء

لأنها كانت ما تزال تحت تأثير المخدّر، شرحت القابلة لها عن وجود نزيفٍ خفيفٍ.

قالت لها الممرّضة: «لا تقلقي. إنّ هذا يحدث أحيانًا. رحمك كسولٌ قليلًا؛ فهو لا يتقلص كما ينبغي، سوف نعطيك الاوكسيتوسين لتحفيز التقلصات».

بعد عدّة ساعات، لم تعد إزمي في حالة خطرة. كانت في قسم العناية المركزة، وتجري لها عملية نقل الدّم. كانت الطريقة الوحيدة لوقف النزيف الذي يهدّدها، هي باستئصال الرحم.

كانت ابنتها رائعة الجمال، ولن تحظى بأشقّاء أبدًا.

يوميات ٩

وكيل أعمالي، وأصدقائي، وزملائي، وأحد الصحفيين، جميعهم يسأل عما أكتبه. ما هو هذا المشروع الذي أكّرس له الكثير من الوقت والذي يمنعني من القيام بالتزامات أخرى؟ يسألونني من باب اللطف وإبداء الاهتمام، أكثر من كونه فضولًا. بينما أحاول أنا تغيير الموضوع. من الخطأ تحدث المرء عما يكتبه. لا يمكن أن نقرّ بوجود مشروع، هو لا شيء إلى أن يتمّ الانتهاء منه، وهذا أكثر صحة عندما يتعلق الأمر بكتابة الرواية. ذات مرّة كتبتُ نصّامن نمط «خيال الفلاش»، حول هذا الموضوع:

يتحدث كاتبٌ عن فكرة القصة التي هو على وشك كتابتها. يرويها على طاولةٍ في مقهىً، الفكرة جيدة. يصبح الهواء متوترًا حول كلماته، وتصبح القصة ملموسة ومجسدة إلى درجة أنّ دخان السجائر لا يستطيع اختراقها؛ وتشكلِ حلقات دخان سجائرهم حدود مخططها الشفاف. لكن لاحقًا، عندما يحاول تحويلها إلى أحرف، يكتشف فيها صدوعًا لم يلاحظها من

قبل، صدوعًا تفلت الكلمات من خلالها؛ يغزو ضباب التفاهة النّص، وترفض الآلهة الضحية المقدّمة، التي لم تعد طاهرة، والتي استمتع بها الآخرون قبلها.

ومع ذلك، من الصعب كبح جماح أنفسنا. إنّ سرد القصّة أكثر سهولةً وإمتاعًا، وأقلّ التزامًا بكثير من كتابتها. إنّها تخلق وهمًا زائفًا بأنها موجودة بالفعل، ولا تحتاج إلّا إلى بعض من الصبر، وأنه بمجرد الجلوس إلى لوحة مفاتيح الحاسوب لفترة زمنية كافية، يمكن أن ننجزها. لكن هذا ليس صحيحًا بالطبع: فالمشروع الأدبي هو لا شيء، هو ليس أكثر من هواء وأكاذيب. إنّ الصراع مع الكلمات هو الذي سيحدد وجودها، فإذا انتصرت الكلمات، وإن كان من المستحيل هزيمتها، والسيطرة عليها؛ فستعود الفكرة إلى الفوضى التي ما كان يجب أن تنبثق منها. الإغراء عظيمٌ، وقد ارتكبتُ خطأ بالاستسلام له، فأخبرت أحد زملائي عن الولادة المأساوية لابنة غيدو وإزمي.

قال لي بثقة: «لكن هذا لم يعد يحدث الآن. في هذه الأيام، لم يعد هناك نزيفُ ما بعد الولادة الذي يعجز العلم عن السيطرة عليه. استئصال رحمها! فكرة غير واقعية». ومع ذلك فأنا لم أخترع الموقف، ولم أستطع أن أتجنّبه. ليس لدي خيال. أنا غير قادرة تمامًا على تأليف أيّ شيء. كلّ ما أفعله هو أن أجمع، وبشكل منطقي إلى حد ما، تفاصيلَ ممّا أستنبطه من الواقع. فأنا أعرف البطلة في الحياة الواقعية، وأعلم عن ذلك النزيف الرهيب، الذي كاد أن يودي بحياتها ويقضي على إمكانية

إنجابها المزيد من الأطفال. أنا أفضّل المعلومات المباشرة. كنت لأحبّ إجراء مقابلة معها، ربما كنت سأقوم بتدوينها. لكن في هذه الحالة، كانت الظروف مأساوية بما يكفي للحذر ولمنع أي نوع من الاستقصاء. لقد وجدت بقية المعلومات على الإنترنت. وهذا هو الغرض منه على أيّ حال.

الحقيقة هي أن الطفلة حديثة الولادة موجودة الآن في قصتي. لا أستطيع أن ألوم أحداً غير نفسي. أنا نفسي منحتها حياتها، والآن، تبّاً لكلّ شيء، يجب أن أمنحها اسمًا أيضًا.

ذنب

وهكذا بدأت إزمي تعاني من أسوأ أشكال الإحساس بالذنب، النوع الذي يتغذى على ذاته، الذنب الذي لا حدود له، ولا يمكن السيطرة عليه: الشعور العميق بالذنب، الذي يلازمها دائماً، لتجد نفسها في موقف من الضعف والهشاشة، مما يحوّلها إلى امرأةٍ يسهل التلاعب بها، وتصبح مثل دمية جاهزة للرقص على أنغام أي شخص قادر على التقاط شكوكها ومخاوفها، وعقدة شعورها بالذنب المستمرة والمرهقة والمملّة. الشعور بالذنب لكونها أمًا.

بدأ كلّ شيء بسرعة وبشكلٍ غير متوقع. كانت قد غادرت لتوّها غرفة العناية المركزة، وتمَّ نقلها إلى غرفتها، حيث كانت والدتها تنتظرها مرتدية نظارات شمسية وقناعًا. كانت إزمي ضعيفة جدًا، وهذا ما أخافها بعض الشيء.

«ماما! لماذا تغطين وجهك؟».

«يجب عليّ أن أضع القناع لأنك مصابة بفقر الدم. مناعتك ضعيفة جدًا».

«لا أحد يرتدي قناعًا.. ولا حتى في العناية المركزة».

«لكن أنا والدتك يا إزمي. أنا أحبك أكثر».

«والنظارات الشمسية؟ هنا؟ في الداخل؟».

«حتى لا يلاحظوا أنني أبكي. الآن سيقومون بإحضار طفلتك، وعليك الاستعداد لها. أنت بحاجة إلى خلع ثوب النوم، وحمل الطفلة لتلامس بشرتك. إنه أمر هام للغاية بسبب هذين اليومين اللذين انفصلت فيهما عنك. هذا ما قالته غلوريا».

كانت غلوريا اختصاصية علم النفس التي تراجعها آلسيرا. وكانت قد ساعدتها بعد وفاة ابنتها. أخذت آلسيرا نصيحتها كما لو كانت من الإنجيل.

«أين غيدو؟».

قالت آلسيرا بلطف شديد، وصوت متطلّب:

«لقد أرسلته كي يذهب لشرب القهوة. يجب أن تكون الأم وابنتها في هذه اللحظات وحدهما. وستبقى الطفلة معك في الغرفة حتى تبدأ في الإحساس بك. يجب أن ترضعيها».

«ماما، ابحثي عنه، من فضلكِ. أريده إلى جانبي لأنني أشعر بأنني في حالة سيئة. لقد خرجتُ للتو من العناية المركّزة. لا يمكنني أن أحمل المسؤولية عن أيّ شيء».

«سوف أساعدكِ».

«أرجوكِ يا ماما!».

وحين خرجت والدتها للبحث عن غيدو، بوجهها المغطى بذلك القناع الغريب، ظلّت إزمي وحيدة للحظات، وأدركت أنها لا تعرف ما الذي تفعله هناك. بعد جهدٍ جهيد، تذكّرت سبب ذهابها إلى المستشفى، لكنها شعرت، بطريقة ما، كما لو أنّها نسيت الأمر، أو أنّه لم يعد هامًا بعد الآن. حينها بدأت تشعر ببعض التحسّن، والشيء الوحيد الذي كانت تريده هو أن تتعافى تماماً، ثمّ تعود هي وزوجها إلى المنزل، دون أيّ أحدٍ آخر، لكي يكون كلّ شيء كما هو معتاد. من هي؟ وماذا كانت؟ ومن أين أتت هذه الطفلة؟ (نظرت إلى جسدها، فوجئت بذلك البطن البارز المنتفخ)، تلك الطفلة التي حاول الجميع الضغط عليها حتى تتمكن من الاعتناء بها، في الوقت الذي لم تكن في حالة تسمح لها حتى بالاعتناء بنفسها؟

عاد إليها ذلك الشعور الغريب مرّات عديدة. ذلك الشعور الفظيع بالذنب، ذلك الرفض اللا إرادي للأمومة، والذي سيختفي بعد ساعات قليلة، لمجرّد أن تضم ناتاليا بين ذراعيها، وتلامس بشرتها، تلك اللحظات التي تكونان فيها وحدهما معًا، وتتمكّن من إعطائها الزجاجة اللعينة، تلك الأداة البلاستيكية والمطاطية التي تفصل بينهما، إنها تفرّق بين الاثنتين. كم تمنّت أن تكون قادرة على إطعامها من جسدها، والتواصل مع ابنتها

في هذا اللقاء الحسي والعاطفي، ووضع ثديها المثقل بالحليب في فم ابنتها. لكنها كانت ممنوعة من إرضاعها. فقد أدى فقر الدّم الناجم عن النزيف، بالإضافة إلى كمية المضادات الحيوية التي تناولتها، إلى جعل كل منهما، إزمي وابنتها، خطرتين على بعضهما. ابنتها ناتاليا ريجينا: بعد مناقشة محتدمة مع زوجها، رأت إزمي أنه يجب أن يكون الاسم الأوسط للطفلة هو ريجينا، وهو الاسم الذي يُختصر بالحرف الأول منه؛ لقد فهمت أنّها لا يجب أن تثقل كاهل الطفلة باسم امرأة ميتة.

فهل بعد ذلك بدأ كل شيء؟ هل كان ذلك هو الرفض الذي لا يمكن السيطرة عليه، رفض عابر، لما هو أكثر ما أرادته في الحياة؟ كان عليها أن تسأل نفسها هذا السؤال عدّة مرات.

قالت لها إحدى الممرضات: «إن طفلتك الصغيرة تتمتّع بصفات قيادية». بعد مدّة، وعندما حملتها بالفعل على جسدها، وفوق جسدها، وفي جسدها، وحتى بعد ذلك بمدّة أطول، كانت تتذكّر بفخر تلك الملاحظة، والتي مع الوقت بدت فظيعةً للغاية: «لقد انفجرت بالبكاء وتبعها الآخرون في جوقة!».

وكيف بكت! بكت ليلًا عندما أعادوها إلى الحاضنة! طلبت إزمي منهم ترك الطفلة معها في الغرفة، لكن طبيبها لم يوافق، فلا بأس أن تبقى معها خلال النهار، ولكن في الليل كان على الأمّ أن تستريح وتستعيد قوّتها. بالنسبة إلى إزمي، كانت فكرة

أن تبقى ابنتها بعيدة عنها وهي تبكي، بمثابة تعذيب جسدي، مما زاد من الآلام العديدة الأخرى التي هاجمتها على الرغم من المسكّنات (آلام الولادة، وعملية بضع الفرج، وعملية استئصال الرحم).

وممّا لا شكّ فيه أن شيئاً ما حدث في تلك اللحظة، الشعور الذي هدّها لفترة طويلة، ولبقية حياتها، شعورٌ بالرعب والهوس المرتبط بالعديد من أشكال المعاناة التي كانت تنتظر ابنتها، بالإضافة إلى المخاطر البشعة للحياة وللعالم. كان العيش فظيعًا؛ أن تحيا وأنت تحمل على ظهرك وفي أحشائك بذرة الموت. كانت طفلتها هشّة جدًا، وحسّاسةً وضعيفة جدًا، ومعرّضة للخطر جدًا.. كيف يمكنها أن تحمل طفلتها بينما هي غير قادرة على الوقوف وناتاليا بين ذراعيها؟ كيف تحمل الطفلة؟ كيف ولماذا لا تسقط من بين يدي أمها؟

قالت حماتها التي جاءت من سانتا في لرؤية حفيدتها الألف: «مثل راديو». هي نفسها أنجبت سبعة أطفال بكلّ يسر ومرح. «المولود الجديد كجهاز راديو. هكذا تحملينها، أترين؟ وكأنها جهاز راديو. يصدر الكثير من الضوضاء ولكنه لا يتحرك. حيثما وضعتهِ، هو المكان الذي يبقى فيه».

يوميات ١٠

كنت أرغب بسرد قسمٍ واحد من الرواية بصيغة المتكلم، حتى أفصله عن البقية، قسَّم تفكّر فيه إزمي بابنتها، محاولة إعادة استعراض حياتها، محاولة اكتشاف مكمن خطئها. باختصار، تستحضر فيه ذلك المخزون من الأخطاء التي نغرق فيها نحن الأمّهات كلما راودتنا الشكوك (أكثر من اللازم) حول ما قد فعلناه لأولادنا وبأولادنا. ولكن إذا رُويَ هذا القلق الشائع والتقليدي بصيغة المتكلّم، فأنا بذلك أخاطر بخلطه مع هذه اليوميات. عندما اتخذت القرار بكتابة هذه اليوميات، نبذت تمامًا فكرة كتابتها بصيغة المتكلّم لبقية الرواية وبدون استثناءات. من جانب آخر، اختفت فكرة التلخيص تمامًا. إن استرجاع ذكريات من الماضي يزعجني قليلًا، ولذلك اخترت أن أمضي وفق التسلسل الزمني.

ولماذا قد يهتم القرّاء باختياراتي؟ لماذا ستثير الشكوك التي تراودني اهتمامهم؟ ولكن إن اتّبعنا مسار هذا المنطق حتى نتائجها النهائية، فلماذا قد يهتمّون برواياتي على الإطلاق؟ إن

كانت هذه الرواية أو غيرها؟ لماذا يقرؤون رواية خيالية؟ أليس من الأفضل أن يحصر المرء ذاته، كما تفعل الغالبية العظمى من الناس، اليوم، في قراءة الكتب التعليمية واكتساب المعلومات، وعندما يرغب في قراءة الأدب (لأنه يفعل ذلك)، هل عليه أن يقتصر على الجانب الترفيهي، السمعي والبصري؟ أليس من الأسهل أن نتأثّر بوجهِ ممثلة بارعة على أن نتأثر بالكلمات التي تصف معاناتها؟ أليس من الأسهل مرافقة دموعها المزيفة، بدموع المرء الصادقة ولكن السطحية، المتعاطفة والخالية من الألم؟ ومع ذلك، ماذا نكون نحن بدون الكلمات؟ أصغر من حبة زيتون، كما يقول التلمود، حيث حجم حبة الزيتون هو حدّ ما هو محرّم (كل ما هو أصغر من حبة الزيتون مباح). أصغر من حبّة سمسم وفقًا لألف ليلة وليلة. أقل من لا شيء.

السنوات الأولى

السعادة هي سيدةٌ مراوغة. فهي تحبّ فن التنكّر، وتخفي وجهها الساحر والهادئ خلف حجابٍ، حتى لا يتمّ التعّرف إليها، وحتى لا يعرف أحد أنّها موجودة، حتى يُجبر البشر البائسون على النظر إلى الوراء، لإثارة ذكرياتهم، محاولين دائمًا، بتردّد، إعادة ترتيب لوحة ذكرياتهم ليسألوا أنفسهم: هل تتذكّر؟ كانت موجودة ولكننا لم نلاحظها! كانت تلك هي السعادة! كانت سنوات ناتاليا الأولى، بالنسبة إلى والديها، سعادة خالصة متنكّرة في هيئة عوائق هيّنة، وقد استغرقا سنوات حتى أدركا ذلك.

هل كانت ناتاليا جميلة حقًا كما رأتها إزمي؟ تساءلت إزمي: كيف كانت ابنتها بالفعل؟ كيف رآها الآخرون؟ خلال الأيام الأولى، كانت بالكاد ترفع ناظريها عنها، ويعود ذلك من جهة، إلى أنها كانت مفتونة بجمالها وبوجودها، وبوجهها الصغير وبجسدها ويديها، وخاصة قدميها، كانت مثالية ومثيرة للمشاعر لدرجة جعلتها تبكي أحيانًا. ومن جهة أخرى، لأنّها

شعرت أن نظرتها الأمومية هي التي تحافظ على حركة تنفسها الضعيف. كيف من الممكن أن تتأكد تمامًا أن ابنتها ستتابع التنفّس إن هي توقّفت عن النظر إليها؟

عندما عادوا إلى المنزل، كانت إزمي قادرة على الوقوف والقيام بتبديل ملابس الطفلة، مع أنّ حركتها بطيئة وتحتاج إلى الكثير من الجهد. أوّل مرّة نزلت فيها إلى الشارع، بدت زاوية الشارع بعيدة جدًا، وكأنّها على الطرف الآخر من العالم. لم تستطع تخيّل قطع تلك المسافة مشيًا على الأقدام. في البداية، حدّد غيدو الزمن اللازم لتسخين الزجاجة لإطعام ناتاليا، وجعلها تتجشّأ، وتغيّر حفاضها. ومع تعافي إزمي وتدريبها، انخفض ذلك الزمن إلى النصف. كانت تنتظر عودة غيدو إلى المنزل ليلًا، لكي يحمّماها سوية. كانت خائفة من أن تنزلق الطفلة وتغرق في حوض الاستحمام.

قامت جدتها بتقليم أظافرها لأوّل مرّة، ووجدت إزمي العملية مؤلمة. كان توتّرها خارجاً عن السيطرة. تلك الأصابع الصغيرة، والرقيقة جدًا، سهلة الخدش بحركة طائشة من المقص. في الواقع، خدش المقص جلد الطفلة شديد النعومة، مما حرّر قطرة دم، وجعل والدتها تطلق صرخة مرعبة.

«إنّهم يعطونني أصعب مهمة»، قالت آلسيرا محتجّة، «يريدونها أن تكرهني منذ البداية!».

ولكن ناتاليا لم تكره جدتها أبدًا.

الجدّ ليون، والذي كان حنوناً للغاية، ربما كان أشعث الشعر، غير مرتّبٍ، وذقنه غير حليقة، وعيناه محمرتان، فقد سُمح له بحمل ناتاليا فقط عندما يكون جالسًا.

هل هذا ما تكون عليه الحال عند إنجاب الأطفال؟ أن تكون خائفاً ليل نهار من أن تفقدهم؟ لم ترغب إزمي أن يلمس أحدٌ طفلتها. سمحت لزوجها ووالدتها بحمل ابنتها على مضض، ولكن عند مجيء أقربائها وبعض إخوة غيدو إلى العاصمة، كانوا يقومون بزيارتهم وخاصة أولادهم، أبناء عم ناتاليا الصغار الذين كانوا يقفون عند سريرها، كانت تقفز من مكانها لتقف معهم وتشرف على عملية اللمس ومداعبة الطفلة بضعفٍ مؤلم لشخص لا يستطيع منع حدوث شيء مؤذٍ. القليل منهم فقط تجرأ على حملها، وعندما كانوا يفعلون ذلك، كانت الأمّ تطلب منهم متوسّلة بصوت مرتعش، أن يعيدوها إليها، وكأنها خائفة من اختطاف مفاجئ، كأنها تتوسّل مجرمًا خطيرًا أن يعيد شيئًا مسروقًا.

كانت ناتاليا في الشهر السادس عندما وافقت إزمي لأوّل مرّة على أن تكون بعيدة عنها. حين تركتها في حضانة والديها وشعرت وكأن جسدها يتقطّع إربًا. أخذها ليون وآلسيرا في جولةٍ بالسيارة. عندما عادا معها بعد نصف ساعة، كانت إزمي واقفة عند باب المبنى، بوجه زائغ وبتكشيرة رعب ويأس.

الطفل كائن هشّ لدرجة مرهقة، وهناك قائمة كاملة تؤكد

ذلك. قرأت إزمي أن الحوادث هي السبب الرئيسي لموت الأطفال الصغار. فالطفل قد يقع من على السرير إن لم يكن محميًا بحاجز من الوسائد، ولكن قد يتعرض أيضًا للاختناق بواسطة تلك الوسائد والفراش إن كان ناعمًا أكثر من اللازم (كان هذا الخطأ غير الشائع مؤكدًا حسب بعض الإحصائيات المعينة)؛ قد يموت من البرد، إن لم يكن مغطىً بالشكل اللازم، ولكن قد يختنق ببطانيته أيضاً؛ قد يتعرض للأذى دون ممتصّ صدماتٍ في السرير؛ قد يختنق بسبب قيئه؛ قد يسقط (وبالنتيجة، سقطت ناتاليا، مرّة، من فوق طاولة التبديل في عمر الستة أشهر)؛ قد يغرق في حوض الاستحمام؛ وقد يتعرض لحرقٍ بسبب زجاجة شديدة الحرارة، ولكن مخاوفها لم تتلاشَ بمرور الزمن، بل بالعكس، فذلك الخوف توسّع بشكل لا نهائي عندما بدأت ناتاليا بالتحرك بمفردها. فالآن قد تحرق نفسها في المطبخ، وقد تجرح نفسها بواسطة سكين أو مقص أو قطعة ورق أو حافة حادة (العالم كلّه يحتوي حواف حادّة). قد تغرز نفسها بمسمار أو بشوكة أو ببرغي أو بقلم رصاص أو بإبرة؛ قد تغرز أيًا من هذه الأشياء في عينها، في إحدى عينيها الواسعتين العسليتين والرائعتين؛ قد تدسّ أصابعها الصغيرة في مأخذ من مآخذ الكهرباء، والتي كانت في تلك الأيام، كبيرة بما يكفي لتتّسع لأصابع طفلٍ. قد تسحب كرسيًا، كأسًا، قِدراً أو مقلاةً مليئة بالزيت الساخن على نفسها؛ قد تخنق نفسها بصدريتها أو بسلسلة لهَّايَتِها؛ قد تعلقُ أصابعها بالباب، أو تضرب رأسها بإزار الحائط، أو بقطعة أثاث، أو بالجدار؛ ربما تختنق بنواة

الفاكهة، أو بحصاة أو بقطعة كعك أو زرّ أو بقطعة نقدية أو بلعبة أو بحبة فستق أو بكيس بلاستيكي؛ قد تسد أنفها بواسطة غطاء قلم حبر أو عين دمية رديئة الصنع؛ قد تبتلع دبوسًا أو كرة زجاجية أو قلم تلوين أو بعض السمّ -السمّ! كل شيءٍ حولها كان سمًا العالم نفسه كان سمًا: مواد التبييض والمنظفات وسلسلة كاملة من مواد التنظيف، والجرائد، والصابون، والأدوية، والبطاريات، ومستحضرات التجميل، والقطع التي كانت تحملها من الأرض المتسخة. ولكن الطعام أيضًا، حتى الطعام من الممكن أن يسبّب لها حساسية؛ من الممكن لطفلتها أن تموت بسبب التهاب في الحنجرة في كلّ مرّة تبتلع طعامًا جديدًا. بدأت إزمي بفرك القليل منه على جلدها، ثمّ أخذت تضيفه تدريجيًا، وبكميات ضئيلة، في الطعام المألوف قبل أن تزيده بحذر شديد. وضعت إزمي ممتص صدمات على حواف الطاولة المنخفضة، كما تجنبت استعمال أغطية طاولات طويلة، والتي كان من الممكن لناتاليا من خلال شدّها أن تقلب الأواني على نفسها. قامت بتغطية المآخذ الكهربائية، ونصبت قواطع للكهرباء، ووضعت واقيات على الأبواب حتى لا تُغلق بقوة. كانت جميع الأدوات الكهربائية التي تزيد استطاعتها عن ٢٢٠ فولتاً تشكل خطرًا. كان المنزل بأكمله خطِرًا، والخارج أيضاً خطرًا. الشمس خطرة، واستخدام المواصلات العامة خطر، ولكن كذلك السفر بالسيارة. دفعها بعربة الأطفال في الشارع خطر، فالدخان الخارج من عوادم السيارات يسمّم الهواء على ذلك الارتفاع تمامًا. وخطر العدوى! لمس الطفلة

من قبل أصدقاء وأقرباء يتمشّون في الشارع دون غسل أيديهم أو فركها بالكحول أو بالمطهّر. الأرصفة كانت قذرة؛ الناس في ذلك الهواء المسموم الملوّث بالجراثيم دون الإحساس بالمسؤولية. الناس يسعلون ويتكلمون ويدخنون ويطرحون الأبخرة السامة، ملوثين الهواء في ذات البيئة التي تحتضن ابنتها الصغيرة.مكتبة سُر مَن قرأ

كانت ناتاليا معجزة استثنائية في عائلة والدتها. ومجرد واحدة بين حشد اليافعين الرعاع من عائلة والدها. أولئك الأطفال، أبناء العم، كان الكثير منهم مهملين، مصابين بالبرد، أو الحمى، أو التهاب الشُعب الهوائية، أو الانفلونزا، أو الجدري المائي، أو التهاب اللوزتين، أو الحمى القرمزية، أو بأحد أنواع الطفح الجلدي المجهول، التي تعرف بأعدادها فقط، السابعة أو الثامنة. والأسوأ من ذلك، الأسوأ بكثير، هو أنهُ يمكن أن تبدو عليهم علامات الصحّة الجيّدة لأنّهم قد يكونون في مرحلة خطيرة من المرض قبل ظهور الأعراض المرئية، قد يكونون في مرحلة احتضان المرض، وهي أكثر المراحل نقلًا للعدوى على الإطلاق.

شعرت إزمي، أو ظنّت أنها تشعر بالتعاطف مع ابنتها. عندما أعطوا ناتاليا أوّل حقنة لقاح، تلوّت إزمي من الألم، وتقيّأت عند عودتها إلى المنزل. عندما فحصها طبيب الأطفال وبكت ناتاليا بشدّة، اضطرت إزمي أن تضغط على أسنانها لتمنع نفسها من الصراخ. وعندما أُصيبت ناتاليا بالتهاب الشعب الهوائية، لم تنم

إزمي مدّة ثلاثة أيام، وكأنها هي من كانت تختنق بالبلغم الذي يعيق تنفس ابنتها. علّمها الطبيب الاختصاصي في علم الحركة كيف تربّت على ظهر ناتاليا بيد مغلقة. كانت إحدى يديها تمتد بطول ظهر الطفلة، وعليها أن تقسر نفسها على صفعها حتى تستطيع الطفلة إخراج البلغم -صفعها! كان ذلك لا إنسانيًا. ومن العجيب أن الطفلة لم تبكِ عندما ضربتها؛ ولم يكن ذلك سوى دليل إضافي للتساؤلات التي انتابتها.

غيدو، وباعتباره ابنًا لعائلة كبيرة، كان أبًا بطريقة طبيعية أكثر، فهو يعلم أن الأطفال الرضّع ينتمون إلى أمهاتهم أكثر؛ أخذ الأمور بهدوء أكثر، بنوع من الحب الهادئ، والمستمر، كان أقلّ يأساً من إزمي وبما يتناسب مع شخصيته، فمعارفه كانت نظرية أكثر، وكأنه لم يرَ رضيعاً في حياته على الإطلاق، كما لو لم يكن لديه طفل أمام ناظره. قرأ وبشغف كلّ ما وقع بين يديه من كتب تربية الأطفال، وكان يوجد في متناوله، دائمًا، نصائح راسخة وموثقة من قبل السلطات حول كيفية تعليم ناتاليا وإطعامها وحمايتها.

عندما بلغت الطفلة الصغيرة الثالثة من العمر، قررت إزمي أن تعود لتعمل بدوام نصفي، وترسل ناتاليا إلى إحدى دور الحضانة، مدركة أن سلوكها قد تجاوز المعتاد، حتى وباعتبارها الطفلة الأولى، الطفلة الأولى دون منازع.

في اليوم الذي تجاوزا فيه مرحلة تأقلمهما، وهو، في

الأرجنتين، الوقت اللازم للأطفال ليعتادوا على دار الحضانة، ويتقبلوا الانفصال عن أمهاتهم، والذي لم يكن موجوداً في البلدانِ الأخرى، الأقلّ «جنوناً من الناحية النفسية»، ذهبت إزمي إلى العمل وهي تعاني من تشنجات في صدرها، تسببها تنهداتها المكتومة. كانت ناتاليا تلعب في الملعب الرمليّ، وهي بالكاد ترمقها بنظرة، مظهرة القليل من الاهتمام عند وداعها. بدت مرتاحة بعض الشيء.

يوميات ١١

أكتب هذه اليوميات في نفس وقت كتابة المسودة الأولى للرواية. أعلم أن القصة الرئيسية للنص سوف تتغير قليلا. ما الذي سيحدث إذن لهذه التعليقات أو الشروحات؟ هل سيكون لها معنى على الرغم من كلّ شيء؟ هل سأعيد كتابتها، وأجعلها تتناسب مع النسخة النهائية؟ قرائي لن يعرفوا أبدًا، لأنهم لا يعرفون حتى الآن اتجاه الرواية، ولا أين يكمن هدفها، وفي أي طريق تسير (إلا إذا كانوا قد قرؤوا الغلاف الخلفي، وأحيانًا يعد هذا كاشفًا بصورة خطيرة). كلّ شيء غير حقيقي، كلّ شيء خيال، حتى هذه الصراحة الظاهرة، وهذا الكشف عن أسرار معينة، إنما هي أسرار أدبية صحيحة وغير صحيحة على حدّ سواء. أعرف بالفعل العديد من المواقف التي سيتعين على شخصياتي مواجهتها. لقد قمت بتدوينها في ملف بعنوان «الأفكار». ليس هذا فقط: أعرف أيضًا أشياء كثيرة عن مصائرهم، والتوجه العام لحيواتهم. لكن لا يمكنني البوح بها. سيتم الكشف عن كلّ شيء في الوقت المناسب.

روضة وسلحفاة

هل يمكن أن تكون هذه هي البداية؟ هل كانت تلك الواقعة في الروضة هي البداية؟ ما ردّ فعلها على تلك الحادثة؟ سوف تطرح إزمي، بعد سنوات عديدة، هذه الأسئلة على نفسها. وهل كان يجب أن تكون أكثر صرامة، كأن تجري معها محادثة جادة، أو أن تعاقبها؟ ولكن كيف تُعاقب طفلة في الرابعة من عمرها؟ كأن تحرمها من الحلوى لمدّة أسبوع أو أسبوعين، أو حتى نهاية العام؟ أو أن تحرمها من ساعتها أمام التلفاز لمشاهدة الأفلام الكرتونية؟ على الرغم من أنّه لا يمكننا اليوم أن نتصوّر ذلك، ففي منتصف أعوام الثمانينيات لم تكن توجد تلفزيونات فضائية، كانت فقط هناك قنوات عادية، وعدد من برامج الأطفال التي شاهدها جميع الأطفال في نفس الوقت، وتحدّثوا عنها مع بعضهم بعضًا. هل يجب أن تعاقبها أم العكس؟ ألا ينبغي لها أن تحميها، وتخرجها على الفور من ذلك المكان الذي اختارته لها بعناية شديدة، مع الكثير من الحب والخوف والقلق، وهي نفس المشاعر التي كانت في تلك الأيام؟ ألا ينبغي لها أن تنقذها؟ هل كان أمرًا جيدًا؟ هل

كان تركها بين يدي تلك الشابة الصغيرة، المعلمة «النفسية»، المشغولة جدًا، قرارًا صائبًا؟ تلك المعلمة التي حكمت مسبقًا على ابنتها، والتي لم تعاملها، بلا شك، مثل الأطفال الآخرين، الذين أساؤوا معاملتها بطريقة ما؟

دخلت إزمي إلى الروضة غاضبة من استدعائها مرّة أخرى خلال أوقات العمل. كان قد خُصِّصَ يومٌ واحدٌ للانضمام إلى الأطفال في زيارة كادلي داك، وآخر لمساعدتهم في صنع أزياء ورقية، ويومٌ للتحدث إليهم عن عملها، والذي لا يمكن للأطفال في هذا العمر فهمه بأيّ حال.

قالت إزمي للأمهات الأخريات الغاضبات مثلها: «إذا لم يكن بوسعي فعل شيء آخر، فإن أوّل ما سأفعله هو إخراجها من هذه الروضة».

لكنّ تلك كانت، بالطبع، كذبة. لأنَّ إزمي، كما غيرها، أرادت أن تكون طفلتها مثل باقي الأطفال الذين في سنّها، مثل باقي الأطفال من طبقتها الاجتماعية، بما في ذلك انضمامها إلى روضة جيّدة وغالية الأقساط.

على الرغم من غضبها، عندما دخلت إلى روضة الأطفال شعرت بالارتياح لأنها غادرت ضجيج المدينة في الخارج، ودخلت إلى جنّة صغيرة. شعرت بالاطمئنان لرؤية ملعب الرّمل من جديد، والذي كان هامًا جدًا في التأثير على قرارها. كان قرارًا صعبًا للغاية، فقد قاما، هي وغيدو، بزيارة عشر

روضات أخرى، قبل اختيار الروضة الأنسب من بينها. إنّ شهرة روضة بابيليتو، وواقع أنّ جميع الألعاب والمعدات الخطرة كانت موضوعة على الرمال (بينما في روضات أخرى، كانت المزلجة، والأرجوحة، وقضبان التسلق -التي لم تكن بالنسبة إلى إزمي سوى مصائد قاتلة مصممة لإصابة أو قتل ابنتها- موضوعة على البلاط الصلب لأرضية الفناء). وكذلك بسبب التفاصيل الرائعة التي كانت تغطي الحافة الإسمنتية التي تحتوي على الرمال بقطع من الإطارات المطاطية. بالإضافة إلى ابتسامات المعلمات الشابات، ببشرتهن الفاتحة وبأفكارهن المتحررة، واللواتي كنَّ يتقاضين رواتب أكثر بقليل مما في مؤسسات أخرى. وكذلك بسبب الحكمة والخبرة العملية للمديرة، وقبل كلّ شيء، الأمهات الأخريات، والتوصيات، كلّ ذلك ساعدها في اتخاذ القرار الصعب بتخصيص مبلغ من المال لأجل روضة ناتاليا، والذي كان يكفي لدفع قسطٍ أوّلي لشراء شقة، أو عقارٍ بأكمله، إذا أضافت جميع المدفوعات على مدار السنوات.

تم تحديد الموعد بعد انتهاء الدوام المدرسي. الأطفال بملابسهم المميزة بمربعات باللونين الوردي والأبيض (للبنات) أو الأزرق والأبيض (للصبية)، لم يكونوا موجودين، لكن كلّ شيء في الغرفة الصفراء الصغيرة كان يوحي بوجودهم: الكراسي المنخفضة ذات الألوان الزاهية، وطاولات العمل الصغيرة، والألعاب المكدّسة بعناية في الصناديق، هيا نجمعها

ونضعها بعيدًا / حتى يوم آخر / إذا قمنا بجمعها ووضعناها بعيدًا / قريبًا سنلعب جميعًا، وكم مرّة جربت إزمي، بدون جدوى، إحداث تأثير رائع للأغنية في غرفة ناتاليا في المنزل.

كانت المعلّمة جالسةً خلف مكتب صغير، مصنوع من الفورميكا، مصمم للحديث مع أولياء الأمور. كانت شابة ذات شعر قصير جدًا، وابتسامة لذيذة. وعلى أحد جانبي الجدار، كانت توجد خطافات، علّق عليها الأطفال حقائبهم الصغيرة. بينما على حقيبة ناتاليا كان يوجد اسمها وصورة زرافة طرزتها إزمي بطريقة يدوية غير متقنة.

بدأت معلّمة الروضة الكلام كما كان متوقعا، قالت: «ناتاليا رائعة».

وواصلت ذكر العديد من الصفات غير العادية التي تتمتع بها ناتاليا، ومن بينها، ذكاؤها الشديد، وتطورها الاجتماعي الجيد، وخاصة تأثيرها على أقرانها. استمعت إزمي، وهي في غاية السعادة، ونسيت جدول أعمالها: كان بإمكانها البقاء هناك لساعات، مستمتعة بالثناء الذي تسمعه على ابنتها. من الواضح أن ناتاليا تمتلك صفات قيادية، وكان من الهامّ جدًا توجيهها في هذه المرحلة من حياتها، وسيكون بإمكانها تولي هذا الدور القيادي بطريقة إيجابية إذا كان والداها...

إذا كان والداها... نظرت إزمي إلى المعلّمة بقلق: ماذا يريدون من والديها؟ تنهّدت منهَكَةً.

«لا أعرف ما إذا كنتِ قد سمعتِ بما حدث هذا الصباح مع السلحفاة يا إزميرالدا».

لماذا كانت هذه المعلمة، على كونها أصغر منها بكثير، تخاطبها باسمها الأوّل؟ كان من الصعب على إزمي أن تعتاد على هذه التغييرات الاجتماعية التي تعمل بشكل سريع على تفكيك التسلسلات الهرمية التي تعلّمتها، بجد واجتهاد، واحترمتها خلال طفولتها في سنوات الخمسينيات.

«نعم، أخبرتني ناتاليا. كان ذلك الفتى هو سبب المشكلة، أليس كذلك؟ نفس الفتى الذي ضرب طفلة صغيرة أخرى على جبهتها بمطرقة آلة اكسيليفون».

قالت المعلمة وهي تغض بصرها: «لقد كانت حادثة السلحفاة فظيعة بالنسبة إلى جميع الأطفال». كما لو أن ذكرى المشهد أزعجتها لدرجة أنها لم تعد قادرة على النظر في عيني إزمي.

«لقد وجدنا السلحفاة تطفو على بطنها في دلو الماء الذي يستخدمونه لغسل أيديهم بعد تلوين الأصابع».

«كم هو مروع!» قالت إزمي موافقة المعلمة ومجارية حزنها. الآن بعد أن اتخذت المحادثة منحى مختلفًا، أصبحت أقل اهتمامًا بكثير. نظرت خفية إلى الساعة. في غضون ساعة واحدة، كان لديها اجتماع، من المفترض أنه غير رسمي، ولكنه في الواقع هامّ جدًا، إنه اجتماع مع مالك الوكالة وعميل جديد.

«ظننا ذلك... حسنًا، تافيتو هو مشكلة، بالطبع. حتى إنّنا نفكّر في مطالبة والديه بسحبه من الروضة. مع أنه في السن المناسبة، لكنه قد لا يكون ناضجًا بما يكفي لمرحلة الروضة. بالإضافة إلى أنه على وشك أن يصير لديه أخٌ صغير. أنتِ تعرفين كيف يصبحون في هذه الحالة».

لكن إزمي لم تكن تعلم، ولا تعرف. نظرت إلى الساعة مرّة أخرى، هذه المرّة دون أن تحاول إخفاء أي شيء.

وتابعت المعلمة قائلة: «ظننا ذلك... لكنه ليس فقط تافيتو. هذا ما كنتُ أحاول إخباركِ به عندما كنّا نتحدث عن القيادة. إن ناتاليا لها تأثير كبير على تافيتو».

«أنا متفاجئة. إنها لا تذكره إلا عندما تريد أن تخبرني عن مشكلة أحدثها. لدي انطباع بأنّه طفل متوحش جدًا».

«نعم، ليس هناك شكّ في أن تافيتو لديه مشاكل، لكن... نظن أن ناتاليا هي التي أعطته فكرة وضع السلحفاة في دلو الطلاء».

ما هذا الهراء الذي كانت تتحدث عنه؟ شعرت إزمي بنفسها ترتعش من شدّة الغضب، لكنها سيطرت على نفسها. أدركت على الفور الفروق الدقيقة والسخيفة للموقف، فردّت بابتسامة متواطئة:

«هل تقصدين القول أن ناتاليا متّهمة بأنها المؤلفة الفكرية لـ جريمة السلحفاة المروعة؟».

بدا أن معلّمة الروضة محصنة تماماً أمام الدعابة أو السخرية.

قالت بصرامة: «السلحفاة لم تمت». «لكنها في عيادة الحيوانات الأليفة في حالة خطيرة».

يوميات ١٢

المواد: طالما كنت أشعر بالفضول الشديد حيال كيف وأين يجد الكتّاب المواد التي يبنون بها أعمالهم. من الغريب أنّه، وعلى الرغم من أنني أنتمي إلى المهنة، إلا أنني ما زلت قارئة ساذجة. أحتاج إلى ضربة قاسية على رأسي لتجعلني أكفّ عن الاعتقاد بأنّ كل ما يرويه المؤلف عن شخصياته قد حدث له بالفعل. عندما قرأت رواية «العالم بحسب غارب»، كنت مقتنعة اًن جون إيرفينغ كان طفلًا وحيدًا. وفي فندق نيو هامبشاير، توضح لي أنّه كان ينتمي إلى عائلة كبيرة. صار من السهل جدًا اليوم الرجوع إلى أيّ سيرة ذاتية، لكن القارئ الساذج لا يهتم بها، أو لا يثق بها؛ إنه يفضّل النسخة التي تبدو له أكثر وضوحاً ليحتفي بها. إلى أيّ مدى يجب أن يعرف المرء الواقع من أجل الكتابة عنه؟ يقال إن هنري جيمس احتاج إلى نصف ساعة فقط من التحديق عبر ثقب المفتاح في غرفة كانت تقيم فيها سيّدة، لكتابة روايته «صورة سيدة». أشك في ذلك، لكن الفكرة عذبتني لفترة طويلة.

المواد: صندوق الرمل هو نفسه الصندوق الموجود في روضة رينبو، الروضة التي التحقت بها بناتي الثلاث. تافيتو، الطفل صاحب المشاكل (الله أعلم ما هو اسمه الحقيقي، مع أنني حتى لو كنت أعرف، فلن أفصح عنه)، كان زميلًا لإحدى بناتي ضمن مجموعة الأطفال البالغين من العمر ثلاث سنوات. ضربَ أحد زملائه، وعضّه، وشدّ شعره. ضرب ابنتي بالوما على جبينها بمطرقة الاكسيليفون، مما تسبَّب لها بنتوء طفيف، قررت المعلمة علاجه بطريقة لا تُنسى، وذلك عن طريق فركه بالزبدة. ترددت شائعات بين الأمهات بأن تافيتو كان يتعرّض للضرب في كثير من الأحيان في المنزل. كما أغرق الصبي سلحفاة في دلو الماء الذي يستخدمونه لغسل أيديهم بعد تلوين الأصابع، لكن تمّ إنقاذ الحيوان على الفور. في المدارس الخاصة، الطلاب هم عبارة عن زبائن. لا شك أنّه أمر مضر أن تخسر المدرسة طفلًا واحدًا، ولكن الأمر يصبح أكثر ضررًا، عندما يبدأ الآباء في سحب بقية الأطفال. إن فكرة طرد تافيتو جاءتني لتكون بشكل لطيف، من خلال إخبار الوالدين أنه لم ينضج بعد بما يكفي لمرحلة الروضة، والتوصية بالعلاج النفسي كما هو متوقع.

الطفل الميت

نشأت ناتاليا وسط البالغين مثل أيّ طفل بكر، وأصبحت جميلة (بشعر داكن كثيف، وعيون عسلية، وابتسامة مؤثرة احتوت على كلّ جمال الكون)، بالإضافة إلى تميزها باستخدام مفردات تدلّ على سعة إدراك وفصاحة، استعارتها من الكبار. كانت مدركة تمامًا للتأثير الذي أحدثته واستمتعت بإذهال معلميها.

في أحد أيام السبت، وهو اليوم الذي كانت تتناول فيه الغداء عادةً مع جدها وجدتها لأمّها، جعلت العائلة بأكملها تضحك وتبكي في الآن نفسه.

لم يستطع غيدو العثور على المملحة. سأل: «أين هي؟ لقد اختفت المملحة!».

فجأة هتفت ناتاليا: «أخذها الجيش بعيدًا».

وعندها فقط أدركوا كيف كانوا ينقلون قصة حياتهم إلى الفتاة الصغيرة، من غير قصد ودون تفكير. نهض الجدّ ليون

من على الطاولة، وهو يشهق.

كانت الجدة آلسيرا تفرحها بتقديم الهدايا. صارت لدى ناتاليا المجموعة الكاملة من دمى ماي ليتل بوني الباهظة الثمن؛ كان لديها في غرفتها لعبة على شكل منزل صغير بجدران بلاستيكية وطاولة صغيرة وكراس؛ وتملك أشرطة فيديو لجميع أفلامها المفضلة، ومجموعة ألعاب بلاي موبيل الكاملة والمعقدة، وأوّل لعبة نينتيندو، وعندما حان الوقت، صار لديها جهاز أتاري، ثمّ بلاي ستيشن.

«ألا تظنين أنك ترشينها؟» قالت إزمي ذات يوم، محتجة بسبب قلقها على نفسية ابنتها الهشة، وكذلك على جسدها الذي طالما عدّته مهدداً على الدوام. «ألا تخشين من أن يكون حبّها لك فقط بدافع المصلحة الذاتية؟».

أجابت آلسيرا: «المصلحة الذاتية هي دافعٌ جيدٌ جدًا للحب». ثمّ تابعت: «لماذا يحبّ الأطفال والديهم؟ بالطبع لأنهم بحاجة إليهم. ولأنها ليست بحاجة إليّ، يجب أن أشتري عاطفتها مثل أيّ جدّة!».

كانت الفتاة الصغيرة على وفاق مع جدتها؛ بينما تنبذ الجدّ ليون، وهو أمر لم يكن من الصعب فهمه، فقد كانت تنبعث منه رائحة خاصة بمرضى السكري، الذين لا يعتنون بأنفسهم جيداً. لقد أصبح بطيئاً وثقيلاً، يطارد حفيدته بطريقة مؤثرة، لكنها مزعجة. دائماً ما يسعى إلى الحصول على قبلة على

خده المترهّل، وهي قبلة تقدمها ناتاليا على مضض. حاولت إزمي أن تنقل لابنتها الحبّ الذي تشعر به تجاه أبيها. حاولت أن تجعلها تتعرّف، بطريقة ما، إلى شخصية والدها أثناء طفولة إزمي ومراهقتها. عرضت عليها صور رجل طويل وفخور بنفسه، بلحية شقراء وهو يلعب التنس. أخبرتها عن روح الدعابة التي يتمتع بها والدها. أخبرتها كيف كان يساعدهم على ارتداء زي تنكري يظهرهم في الكرنفال «كمصابين بجروح خطيرة» لتخويف الناس، وكيف ابتكروا جميعاً النكات العملية في ذكرى يوم الأبرياء المقدّسين. لكن تلك البراءة ضاعت إلى الأبد، ولم يعد يتم الاحتفال بـ يوم الأبرياء المقدسين، ويبدو أن صورة الأب التي أرادت إزمي أن تحفرها في ذهن ابنتها لا علاقة لها بالشخصية الحقيقية، الحاضرة والمثيرة للشفقة، للجدّ ليون.

رأت إزمي دفاتر ومجلدات ناتاليا المدرسية التي كانت قد احتفظت بها لرسائل الحب، نظرت إليها مرتعشة، بشغف وسعادة. بدا خط يدها المرتب، وأعمدتها الحسابية المنظّمة، وانبعاث الضوء والألوان في رسوماتها، وكأنها معجزة رائعة غير مستحقة. منذ أن استولت الديكتاتورية على السلطة، بدأ التعليم الحكومي يتدهور في البلاد. التحقت ناتاليا بمدرسة ابتدائية خاصة، مما خلق عند والديها، اللذين كانا، مثل معظم أبناء جيلهما، قد تلقيا تعليمهما في المدارس العامّة، إحساسًا بشيء من الإحراج. كان المالك والمدير يتحدثان إليهما دائمًا

عن ذكاء ناتاليا الرائع، وهما يصغيان، منتشيْن، كزبائن سذّج.

عندما كانت ناتاليا في الصف الثاني، وأثناء انتظارها عند باب المدرسة، التقت إزمي بوالدة طالب جديد كان قد انتقل من مدرسة أخرى.

قالت: «ابني يمرّ بوقت عصيب. أتساءل عما إذا كنتُ قد فعلت الشيء الصحيح بتغيير مدرسته. في المدرسة الأخرى، كان لديه الكثير من الأصدقاء. لكن التعليم هنا أفضل بكثير!».

علمت إزمي من الأمهات الأخريات، أن الطفل الصغير الجديد يعاني من مرض وراثي تنكُّسي خطير، وأن الأطباء توقّعوا أنّه لن يعيش طويلًا بعد فترة المراهقة. اعتبرت إزمي أن المرأة مجنونة. كان إخضاع الطفل لتغيير المدرسة عملًا جنونيًا. ولكن أليس كونكِ أمّاً هو نوعٌ من الجنون؟ تخيلت نفسها في مكان تلك الأمّ، وهي تتجاهل حكم الموت بكل الطرق الممكنة، وتحاول أن تتصرف كما لو أن ابنها لديه مستقبل، وكأنَّ تجاهل الخوف يمكن أن يلغي وجود ذلك الخوف.

عندما صادفتها مرّة أخرى، وجدت نفسها أمام طلب غير متوقع.

قالت المرأة: «يتعين عليكِ أن تساعديني. لقد أعلن

زملاء ابني الحرب عليه، ويبدو أن ناتاليا هي المسؤولة عن المجموعة».

قالت إزمي: «إنّهم في السابعة من العمر». ثم تذكرت حادثة السلحفاة. «الأطفال قساة. دائمًا يتعين على الشخص الجديد دفع الثمن. أنا متأكدة من أن ناتاليا لا تعرف أن ابنكِ مريضٌ».

كانت المرأة ترتدي بنطالًا من الجينز، بشعرٍ غير ممشّط وبوجهٍ مرهَق.

أجابت: «إنهم يدعونه الطفل الميت».

بعد ظهر ذلك اليوم، في وقت تناول الحليب ومشاهدة الرسوم المتحركة، أطفأت إزمي التلفاز ووقفت أمامه. كانت علامة على أن لديها شيئًا جادًا للمناقشة. نظرت ناتاليا إلى عينيها بتعبيرهما الواثق والصريح، بينما تحدثت إزمي معها عن زميلها الجديد.

قالت: «يجب أن تكونوا لطفاء معه. لا يمكنكم أن تكونوا لئاما».

أجابت ناتاليا: «لكننا لسنا لئامًا معه. إنه غبي. إنه سيء. لقد سرق مقلمة فلورنسيا».

فكّرت إزمي أنّ المرض والتعاسة لا يجعلان الناس دائماً أفضل أو ألطف أو أكثر كرمًا. أو أكثر ذكاء. في عمر السابعة من الصعب جدًا الشعور بالتعاطف مع شخص يعاني كثيرًا. كان

من المنطقي فقط أن يبقى الأطفال الآخرون على مسافة منه.

في تلك الليلة تدخّل غيدو، وبصوته الأكثر صرامة وإقناعًا، أوضح لناتاليا السبب الذي يفرض عليها التصرّف بطريقة حسنة مع الطفل الجديد. أدمعت عيناها العسليتان، ومن خلال دموعها، أشرقت ناتاليا بابتسامة جلبت لوالديها شيئًا من الحب والراحة.

قالت ناتاليا: «الآن فهمت، أعدك بأننا لن نسميه الطفل الميت مرّة أخرى».

وقد وفت بوعدها. شكرت والدة «الطفل الميت» إزمي بحرارة على تدخلها لصالح ابنها. بعد حفلة عيد ميلاد أحد الأطفال، نُقِلَ «الطفل الميت» (كرهت إزمي نفسها لأنها تشير إليه بهذه الطريقة، حتى لو كان ذلك في سرها فقط، لكنها لم تستطع تجنب ذلك: فقد كانت دائمًا تنسى اسمه) إلى المستشفى، وغاب عن المدرسة مدّة أسبوعين. كانت هناك شائعة بين الأمهات أن مجموعة من الأطفال في الحفلة قاموا بحبسه في دورة مياهٍ رُشّت بالمبيدات الحشرية.

بدأت ناتاليا تعود إلى المنزل مع لوازم مدرسية جديدة، رائعة وجذابة: مثل حقيبة أقلام مستوردة، مبراة معدنية على شكل طائرة هليكوبتر، قلم يحمل علامة تجارية لا يستخدمه أطفال المدارس الابتدائية عادة.

«هل صحيح أن ابنك أعطاها هذه الأشياء؟» سألت إزمي والدة «الطفل الميت».

«نعم هذا صحيح. جوليان ممتنّ للغاية! يبدو، الآن، أن ناتاليا تدافع عنه أمام المجموعة».

لم يرق لإزمي ما كان يحدث، ولكن ليس هناك متّسع من الوقت للرّد، لأن الصبي المريض قد سُحب من الفصل قبل نهاية العام. بحلول الوقت الذي تحدثا، هي وغيدو، فيه عن الأمور، وقررا أن ناتالي بحاجة إلى إعادة كلّ ما حصلت عليه، كان «الطفل الميت» قد عاد بالفعل إلى مدرسته السابقة.

يوميات ١٣

إنّها قصة مروّعة، مأخوذة من الحياة الواقعية، بالطبع. في أحد صفوف مدرسة بناتي الابتدائية، كان هناك ولدٌ صغير يعاني من مرض عصبي تنكُّسي. نقلته أمّه من مدرسة أخرى لأسباب تعليمية، ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى ندمت على قرارها. غالبًا ما كان الصبي يغيب عن المدرسة بسبب مرضه؛ ولذلك كان يفتقد أصدقاءه. لم يحبّه زملاؤه الجدد وسخروا من مشاكله، مع الافتقار المطلق للرحمة أو التعاطف لدى الأطفال في سن السابعة. وفي العام التالي، عاد إلى مدرسته القديمة. بعد سنوات قليلة علمتُ بأنّه قد مات.

في نسخة سابقة من هذه اليوميات كتبت:

في هذه المرحلة، ليس لدي المزيد من الأعذار. إنها مسألة المضي قدمًا في موضوع الرواية المحوري، وقد يكون ذلك مستحيلًا. ربما بدأ القارئ يشكّ في ذلك، لكنني أعرف هذا. لدي ثلاث بنات. ما يحدث لاحقاً، أي ما يجب اتّباعه وفقاً لخططي شيء لا يُطاق؛ إنه أمرٌ لا يحتمل بالنسبة إلي، وعلى

الأرجح لن أكون قادرة على القيام به.

لكن، في هذه المرحلة، يعرف القارئ بالفعل، ولأسباب مادية (عدد الصفحات المتبقية)، أن الرواية ستستمر. لذلك، دع هذا التعليق بمثابة تذكير بأنّه في كتابة هذا الرواية، تتفاقم صعوبات أدبية بسبب الصعوبات النفسية التي تواجه المؤلفة.

سيسيليا

واصلت إزمي التقدم في حياتها المهنية بوصفها مؤلفة إعلانات. لقد تغيرت طبيعة عملها بشكل كبير عن أوائل السبعينيات، عندما بدأت العمل في وكالات الإعلانات قبل ذهابها إلى فرنسا. في تلك الأيام، باستثناء بعض الوكالات رفيعة المستوى، كان القسم الفني منفصلًا عن غرفة النسخ. ففي غرفة الرسم كان الراديو دوماً مُشغلًا، والكتّاب يقومون بزيارة المصممين والمخرجين الفنيين، وهم دائمًا على استعداد للحديث والنقاش، مع أن أيديهم، ربما، كانت مشغولة على طاولات الإنتاج وهم يقومون بقص ولصق النسخ الضوئية، حيث كان يتم تجميع الإعلانات بطريقة حرفية. عندما عادت من فرنسا، كان على إزمي أن تتعلم كيفيّة العمل بمثابة جزء من فريق، مع مخرج فني. واكتشفت كم يكون التعاون بهذه الطريقة أكثر منطقية ومتعة. يرى المعنيون بالرسم الأشياء بطريقة مختلفة، فقد أطلقوا صورًا أثارت بدورها الأفكار؛ لقد أوجدوا نظاماً لتوحيد الإعلانات المختلفة في حملة واحدة، بدءًا بفكرة الرسم. وقد كانوا عباقرة في تجسيد الإعلانات التجارية التي

ألّفتها إزمي، والتي جاءت من عالم الكلمات، وكانت مجرّد هياكل فارغة وأفكار غامضة. لقد استمتعت تمامًا بالعمل الثنائي بجانب الطاولات التي تُنجَز عليها الرسوم، والتي بدأ استبدالها الآن بأجهزة الكمبيوتر.

أصبحت الآن مخرجة إبداعية في وكالة متوسطة الحجم. تكسب الكثير من المال، لكن لم يكن لديها جدول زمني محدد، ففي أي لحظة يمكن أن يوجد غداء عمل، أو ما هو أسوأ من ذلك، عشاء عمل. إذ كان من الضروري البقاء طوال الليل من أجل إنجاز عرض تقديمي في الوقت المحدد، وعلى إزمي أن تبقى في العمل لتنسيق فريقها وتشجيعه. على أنها لم تكن تريد التفكير في الأمر، إلا أنّها كانت تعلم أن حياة المؤلفين قصيرة جدًا. ممَّا يتطلّب صنع الإعلانات وهم شبابٌ؛ ويتطلب عقلية منغمسة في الحاضر. الواقع، والحياة، والعالم الذي تظن أنه ملكك، يستمر حتى حوالي سن الأربعين. من الممكن أن تتأقلم بعد ذلك، لكنه أمر صعب؛ أن تبدأ في النظر إلى الشباب بانعدام ثقة، أو برفضٍ، أو على الأقل بحسدٍ. وستبدأ في استخدام هذا التعبير الرهيب «في أيامنا»، ويصبح فهم العالم أكثر صعوبة، وشاقًا جدًا. بعد ذلك، في أفضل السيناريوهات، يأتي زمن القوّة، ولكن ليس زمن الإبداع، إن المؤلفين الوحيدين الذين تزيد أعمارهم عن خمسين عامًا وما يزالون أقوياء، هم أولئك الذين تمكنوا من تسلّق السلّم إلى المناصب الإدارية، وأولئك الذين أسسوا الوكالات الخاصة بهم، أولئك الذين يمكنهم بيع

فكرة شخص آخر، وإغراء العملاء، مثل ساحر الثعابين (لأن القدرة على الإغواء لا تعرف العمر)، أو أولئك الذين أصبحوا شركاء في الوكالات التي كانوا يعملون فيها (ولتحقيق ذلك أيضًا، يجب أن يكونوا سحرة ثعابين).

كلما هنأ شخص ما إزمي على نجاحها المهني، لم يكن بإمكانها إلا التفكير في سيسيليا.

سيسيليا هي امرأة من باراغواي. إنها رائعة. كانت سمينة وسعيدة، تهتم بكل شيء. هي جليسة أطفالٍ تعتني بناتاليا عندما يكون غيدو وإزمي خارج المنزل، لكنها لا تقيم معهم، لأنها كانت متزوجة ولديها ابنة أكبر بكثير من ناتاليا. اعتمدَ التطور المهني، المثير للاهتمام لدى نساء الطبقة المتوسطة في البلاد، إلى حدٍّ كبير، على عمل هذه الفئة من النساء اللائي ينظفن منازل الآخرين، ويعتنين بأطفال الآخرين، ويحضّرن للعائلات وجبات الطعام، ويعملن خارج منازلهن، يسافرن ذهابًا وإيابًا من أماكن عملهن. نساء لم يسألهن أحدٌ أبدًا، بإعجاب، كيف يتمكّنَّ من الاحتفاظ بوظائفهن إلى جانب إدارة منازلهن ورعاية أزواجهن وأطفالهن.

يمكن لإزمي أن توكل ابنتها بهذه الطريقة فقط لسيسيليا. منذ أن عادت إلى العمل في مجال الإعلان، سيطر عليها هاجس واحد، فظيع، محل مجموعة المخاوف التي دفعتها إلى الجنون عندما كانت ابنتها طفلة. خشيت إزمي من سقوط

ناتاليا من النافذة. كانت شرفة المنزل تحتوي على درابزين أمان طويل جدًا ومغطى بالكروم. لكن لم تكن هناك قضبان على النوافذ. لم تستطع إزمي إقناع غيدو بضرورة وضع قضبان على النافذة ؛ فقد اتهمها بالجنون، وعلى الأرجح كان على حق. في حلم متكرر، جعلها تستيقظ وهي تصرخ، كانت ترى أنها عائدة من العمل إلى المنزل، لتجد نفسها بين مجموعة كبيرة جداً من الأشخاص، من بينهم جيرانها، وفي بعض الأحيان، كان والداها أو أبناء عمومتها أو زملاؤها مجتمعين عند مدخل المبنى. جميعهم يحيطون بشيء لم تكن تستطيع رؤيته. لم ينظروا إليها أو يتحدثوا إليها. كانت إزمي تشقّ طريقها بمرفقيها بين الحشد، لأنهم لم يسمحوا لها بالمرور، لكنهم لم يدفعوها بعيدًا أيضًا. أخيرًا تتمكّن من إلقاء نظرة خاطفة على ما ينظرون إليه باهتمام وصمت شديدين: في وسط الحشد، كانت هناك يقطينة محطّمة ملقاة على الأرض، وكانت تلك اليقطينة هي ابنتها.

وهكذا، في كل مرّة عادت فيها إزمي إلى المنزل، وكلما اقتربت من المبنى، كان القلق والخوف يعتصران قلبها. وحين لا تجد أي تجمع غير عادي من الناس في المدخل، وتسير في البهو لأخذ المصعد ويستقبلها مشرف المبنى بابتسامة بشكل طبيعي، حينها كانت تتنفس الصعداء. ثم تستعيد رباطة جأشها وتفتح باب شقتها، وهي مقتنعة أنّ شيئًا لم يحدث، وأنّ يومًا آخر قد مرّ دون أن تسقط ابنتها من النافذة. وذلك فقط بفضل

سيسيليا السمينة، سيسيليا الرائعة. على الرغم من أنّهما كانا يعرفانها منذ سنوات، إلا أن إزمي كانت تخاطبها أوست كدليل على الاحترام والمودة. وسيسيليا، تخاطبها بشكل أقل رسمية بـ فوس، لأن هذه هي الطريقة التي تتحدث بها نساء باراغواي.

بالطبع، كانت علاقة معقّدة. إزمي تحب سيسيليا، وتكرهها في الآن نفسه؛ فهي تحبها لأنها تستطيع الاعتماد عليها كثيرًا، وتكرهها لأن سيسيليا تقضي ساعاتٍ أطول في اليوم مع ابنتها، أكثر مما كانت تفعله هي. عشقتها ناتي. وسيسيليا، مثل أي عاملة منزلية (لم يعد استخدام كلمات مثل «الخادمة» أو «الفتاة»، أو «عاملة النظافة» كافياً لوصف امرأة قوية مثلها)، وسواء أكانت تحب أو تكره رئيستها، فهي مضطرّة لغسل ملابسها، ولإعداد وجباتها، وللعناية بابنتها، ولتنظيف قذارتها وقذارة عائلتها. لدى إزمي كلّ شيء، بينما هي تفتقد كلّ شيء، وكذلك تملك إزمي ما يكفي لدفع راتب سيسيليا. على الرغم من أنّه، في حالة سيسي، كان عليك أن تكون مدركًا تمامًا للموقف، لكي تستطيع تخيّل تلك الكراهية، التي أخفتها المرأة حتى عن نفسها. لم يفهم غيدو أو يهتم بتعقيد الموقف، فبالنسبة إليه، سيسيليا هي سيدة بدينة رائعة تعدّ له أفضل شراب.

لم يكن من الممكن أن تتخلّص سيسيليا على الإطلاق من لقب «السيدة البدينة الرائعة»، سيسيليا اليائسة من فقدان وزنها، رغم أنها حضرت اجتماعات ضمن برنامج الشرهون المجهولون. لم تكن تأكل أيًا من الأطعمة التي تعدها للآخرين

في منازلهم، ولم يغرِها الكعك أو الخبز. وبدلًا من ذلك، كانت تُحضر معها حافظات طعام بلاستيكية تحتوي على وجبات خفيفة وقليلة، بما يسمح به نظامها الغذائي، والذي يتكون في الغالب من الخضار. في الثلاجة، كانت هناك دائمًا زجاجة صودا كبيرة، تملؤها سيسيليا بسائل يشبه عصير الفاكهة، خالٍ من السعرات الحرارية تقريبًا، تشرب منه طوال اليوم للتحكم بشهيتها، بشكل محدود، لأنه كلما تمكنت من خسارة سبعة أو ثمانية باوندات، تعود لتكسبها مرّة أخرى.

في أحد الأيام الكارثية واللعينة، بدأت إزمي تلاحظ فقدان بعض النقود من درجٍ في غرفة النوم، حيث تحتفظ فيه بما أسمته «صندوق المصروفات النثرية». لم يكونا، لا هي ولا غيدو، حذرين بشكلٍ كبير، ولكن منذ تلك اللحظة فصاعدًا، قرّرا عدّ المال معًا كلّ ليلة. سرعان ما أصبح واضحًا جدًا أن شخصًا ما، يأخذ المال بطريقة منتظمة ومتوقعة.

قال غيدو: «إنها سيسيليا».

أجابت إزمي: «مستحيل».

لم يرغبا حقاً في إخبار ناتاليا بذلك، ولكن فجأة وأثناء نقاشهما، وجداها واقفة بارتباك وقد سمعت ما دار بينهما من حديث وبدا وجهها محمرًا جدًا.

سألت إزمي: «ما بك يا ناتي؟».

«رأيت ذلك...»، قالت ناتاليا، «لقد رأيتها».

«ما الذي رأيته؟ من؟».

«سيسيليا. رأيت سيسيليا وهي تأخذ المال من الدرج. لكنها طلبت مني أن أعدها بألّا أخبركما أبدًا. قالت إنّه إذا أخبرتكما، ستغضب مني جدًا. وسوف تضربني».

تضربها! شعرت إزمي أن ركبتيها تيبستا. كانت تترك ابنتها وحيدة لساعات مع امرأة تهدّدها، وتضربها. ومن الممكن أن تكون قد ضربتها بالفعل! أيّ أمٍّ فاسدة ومتوحشة هي حتى تفعل ذلك بابنتها؟ ثمّ هزت رأسها. فعندما يتعلق الأمر بالسلوك البشري لا يوجد شيء مستحيل، ولكن من الصعب عليها التفكير في أن سيسيليا يمكنها ضرب ناتاليا، إلى جانب ذلك، فناتاليا فتاة كبيرة بما يكفي للدفاع عن نفسها عند التحدث إلى والديها.

«هل ضربتكِ من قبل؟» سألها غيدو بنبرة فيها تهديد وسخط لدرجة أن ناتاليا تراجعت.

«لا، بابيتو، سيسيليا لم تضربني أبدًا. لهذا لم أصدّقها... سيسيليا لطيفة. لكنها قالت بعد ذلك إنني إذا لم أخبركما، فسوف ترتّب غرفتي كل ظهيرة قبل أن تعود ماما إلى المنزل».

بدا ذلك أكثر احتمالًا. كانت إزمي ترى أن الفتاة، البالغة من العمر تسع سنوات، يجب أن تكون قادرة على الحفاظ على

غرفتها نظيفة بشكل معقول، وقد شنت حربًا مكثفة ومستمرة لتحقيق هذه النتيجة. لقد طلبت من سيسيليا عدم التدخّل، وفي المرّات القليلة الماضية بدا لها أنّها تحرز تقدماً.

قالت لغيدو بحسرة: «غدًا سأتحدّث معها... لا أحتمل أن أتّهمها بأي شيء. سأقول لها ذلك... لا أدري، لا أعرف. سأفكر في بعض الأعذار».

عرفت إزمي أن سيسيليا تعاني من مشاكل مالية. كان زوجها قد سقط وكسرت ذراعه أثناء إصلاح سقف منزلهما. عمل الرجل في أعمال مختلفة، وفي وضعه الحالي لا يمكنه العمل. أصبح كلّ عبء أعمال المنزل يقع على عاتق سيسيليا. منحتها إزمي قرضًا على أن تسدده تدريجياً من راتبها.

كانت محادثتهم في اليوم التالي مؤلمة. قرر غيدو وإزمي فصلها من العمل، لكنهما سوف يعفيانها عن دفع القرض، ويمنحاها مبلغًا مقطوعًا كمكافأة نهاية الخدمة.

عندما علمت سيسيليا أنّهما كانا على وشك طردها، قالت: «أعرف ما الذي تتهميني به. وأنا أقول لكِ أنّكِ مخطئة».

قالت إزمي: «لكن يا سيسيليا أنا لا أتّهمك بأيّ شيء. الأمر فقط أنني قررت قضاء وقت أقل في العمل والتركيز أكثر على المنزل».

«لا تكذبي عليّ يا إزميرالدا، أعلم أن لديك نقودًا مفقودة»، انكسر صوت سيسيليا في النحيب وخفضت رأسها قائلة:

«لكني أقسم لكِ بكلّ شيء مقدس على أنّكِ مخطئة». وقبّلت ميدالية العذراء التي كانت تحملها دائمًا حول رقبتها.

أخذت سيسيليا حافظة طعامها البلاستيكية، وزجاجة العصير من الثلاجة. طلبت الإذن بالتوقّف وزيارة ناتاليا من حين لآخر، لكنها لم تظهر مرّة أخرى. في الوقت المناسب اكتشفت إزمي أنّ سيسيليا، بعد مرور عام على مغادرة منزلها، قد وقعت ضحية نوبة ذهان مستعرة لا يمكن تفسيرها، وهي نادرة الحدوث في عمرها (كانت تبلغ من العمر اثنين وأربعين عاما)، ونُقِلت إلى المستشفى في عيادة مويانو.

ذات يوم، وجدتها وهي تركض لتعبر الشارع بشكل أخرق، وتحمل حقيبة كبيرة بالية. في تلك اللحظة، اتخذ الأمر بأكمله معنىً مختلفاً في ذاكرتها. لقد عانقتها بحرارة.

«سيسيليا! هذه أنا، إزمي!».

قالت سيسيليا: «أنا رأيتكِ. قد أكون مجنونة، لكنني لست عمياء... هل معك سيجارة؟».

«أنت تعرفين أنني لا أدخن يا سيسي».

رمقتها سيسيليا بتلك النظرة الماكرة، التي يكتسبها المجانين عندما يتم حبسهم لفترة طويلة، ولا يتوقعون أي شيء جيد من العالم.

«إذن أعطِني المال لشراء بعض السجائر».

يوميات ١٤

على الرغم من وجود بعض الاختلافات، لكن شخصية سيسيليا مستمدة من شخصية ماري، وهي امرأة عملت في منزلي عندما كانت بناتي صغيرات. كنّا معجبين ببعضنا بعضا، ونخاطب بعضنا بصيغة الاحترام الرسمية (وهي لم تكن من باراغواي). بناتها الثلاث كنّ أكبر سنًا من بناتي، وفي وقت ما عملن لديّ بمثابة جليسات أطفال. كانت ماري تعاني من البدانة. وحصلت على المساعدة من جمعية مكافحة السمنة.

فجأة، أصيبت، عزيزتي، السنيورة ماري، باكتئاب خطير غيّر تعابير وجهها، بعدما كانت شخصًا طبيعيًا بامتياز. تفاقمت حالة اكتئابها إلى درجة أنّها اضطرت للتوقف عن العمل، لأنها لم تعد قادرة على النهوض من الفراش. كانت تُعالج بواسطة مجموعة من مضادات الاكتئاب. وفي أحد الأيام جاءت لتلقي التحية، بدت كشخص مختلف. كان وجهها ملتويًا ومشوهًا بتكشيرة، وعيناها تلمعان، غير قادرة على التركيز. تحدثت بشكل مشتت، وهي لا تستطيع إنهاء جملة متكاملة، تلجأ

باستمرار إلى تعابير مثل: «أتفهمين» و «كما تعلمين» لملء الفراغات.

السنيورة ماري (هكذا كنا نخاطبها دومًا)، كانت امرأة حساسةً، ذكيةً وهادئة ومرحة. كانت بناتي يحببْنها بقدر ما كنتُ أحبُّها. وفي سن التاسعة والثلاثين، أصيبت بالجنون، ولم يستطع أحدٌ مساعدتها. تابعتُ وضعها لفترة، من خلال مجموعة طويلة ومتنوعة من الأطباء النفسيين في المنطقة. قامت جمعية المساعدات الاجتماعية الخاصة بزوجها -حيث كان موظفًا في مكتب حكومي- بتحمل تكاليف العلاج والرعاية الصحية في المستشفى، ولكن لم يكن هناك طبيب محدّد مسؤول عن حالتها. الأطباء الذين كانوا يزورون المصحات النفسية من حين إلى آخر، كانوا يرونها دائماً لأوّل مرّة. تردّدت ماري على الكثير من المصحات النفسية، ولم يكن هنالك من يوحّد سجلات مرضها، لا أحد لتتحدث إليه، لا أحد ليهتم بشخصها، لا أحد ليعرفها، لا أحد ليفسر ما كان يحصل لها أو لماذا. ذهبتُ لزيارتها مع زوجها عدّة مرّات. أحياناً كنّا نجدها مصابة بجروح، قيل لنا أنها سقطت على الدرج، أو ارتطمت بالباب. حوّلتها الأدوية التي كانت تتناولها إلى شيء أخرق، لا مبالٍ وكسول، تقوم بمصّ الحلوى لترطّب فمها الجاف، الملوّث من الزوايا باللعاب الجاف. عندما توقفت عن أخذ الأدوية، بدأت بالصراخ والدفاع عن نفسها ضد الأعداء غير المرئيين بالنسبة إلينا، كانت تتلقى رسائل على الراديو والتلفاز، أو من

منشورات تظهر في الهواء؛ تسمع أصواتاً تعذبها. لا يوجد كلمات تعبر عن عذاب بناتها اللواتي كنّ في عمر المراهقة، لم يرغبن في زيارتها لأنهنّ لا يتحملن رؤيتها في تلك الحالة. ولم تتعافَ إطلاقًا.

الجَدّ ليون

لم تتفاجأ إزمي عندما وجدت، للمرة الثانية، واقيًا ذكريًا في جيب غيدو. كانت قد مرّت عدّة سنوات، وهذه المرّة، لم تكن رزمة في جيبه، بل واقٍ ذكريّ واحد فقط، وكان مغلقًا بعناية في غطائه الشفاف. لم ترتدِ إزمي معطف غيدو، بل كانت تتفقّد جيوبه قبل أن ترسل المعطف إلى مغسلة الغسيل الجاف. كانت مهمة الواقيات الذكرية قد تغيرت بشكل ملحوظ، فمرض الإيدز أعادها إلى مهمتها الأصلية، تلك المهمة التي منحتْها اسمها أصلًا، الواقي: لتقي المستخدم من الأمراض. كانِ مكروهاً من قبل الرجال من جيله، ولكن بالرغم من ذلك، أصبح ضروريا. وبالرغم من مقاومة الرجال لاتخاذ تلك الاحتياطات، كانت النساء تُصررْنَ عليه.

ذات ليلة، كانت ناتي في منزل إحدى صديقاتها لحفلة يليها مَبيت. وفي وقت العشاء، وجد غيدو الواقي الذكري موضوعاً في صحنه.

«هاها... أراهن أنك قد وجدتِه في جيب المعطف الأزرق».

«نعم» ردت إزمي، وكان عليها أن تشرح موقفها. هل هي من النساء اللاتي يتفقّدن جيوب أزواجهن؟ «كنت أريد إرساله للغسيل».

«أعطاني إياه أحدهم في الشارع»، قال غيدو بسرعة، كالعادة، وبطريقة غير مقنعة: «بعض الشباب كانوا يوزعونها، في حملة توعية حول مرض الإيدز، لا تقولي إن ذلك لم يحصل معك أيضًا!».

ذلك محتملٌ بالطبع، ولكن لم يكن صحيحًا. وإزمي تعلم ذلك، وغيدو يعلم أنها تعلم. وبدون تعليق إضافي، قبلت العذر، وقرّرت أن تتركه في صندوق الأعذار، والذي أصبح ممتلئًا بالأخطاء الخالية من تفسير؛ ساعات عمل طويلة بشكل سخيف، نظارات شمسية سوداء نسائية وجدتها في السيارة (إنها لزبونة لم تعد لأخذها، كما فسّر غيدو، وأعطاها لإزمي كدليل على براءته). وتفسيره للطخة من المسكرة على قميصه على أنها لطخة دهان من السيارة (هل كانت صاحبة المسكرة تبكي؟ هل كانت تبكي عليه؟). كان كلاهما على علم أن درج الأعذار قد امتلأ وفاض، ولم يعد هناك مكان لأي عذر آخر، وإن فتحاه، لن يستطيعا إغلاقه مجددًا.

لماذا لم تصرّ إزميرالدا؟ لمَ لَمْ تمضِ قدماً بذكر المواعيد، والسلوك، وتلك المكالمات الهاتفية التي تنتهي حالما يسمع المتّصل صوتها؟ هل هي من النساء الخائفات اللاتي يفضلن

عدم مواجهة الحقيقة؟ بالطبع لا. كان باستطاعة إزمي أن تتخيل أسوأ ما يمكن، وأن تواجهه مباشرةً. فهي امرأة قويّة، واضحة، ومستقلة، ولم تكن خائفة على الإطلاق. باستطاعتها أن تعيش حياةً طبيعية، بدون غيدو. هنالك أسباب أخرى لم تستطع أن تتذكّرها في تلك اللحظة؛ بينما كانا يتناولان الطعام بصمت، دون أن ينظرا إلى بعضهما بعضا (كان التلفاز يساعد في ذلك) ولم تستطع أن تتذكّر ذلك تمامًا. أسباب عدم الاستمرار بالحفر في تلك الأرض التي حُرّكت فيها الأوساخ، حيث كان من الواضح أنَّ شيئًا ما مدفونٌ تحتها، ولم يكن كنزًا مخفيا. صوت غيدو، على سبيل المثال، نبرته التي تغيرت بشكل كبير عندما كان يجيب على الهاتف أحيانًا، دون أن يدرك ذلك. وتلك الكلمات اللعينة: «نفس الشيء هنا»، والتي كانت تقال بشكل غير شخصي لدرجة السخافة. «نفس الشيء هنا»، «كما قلت»، هي أكثر ردٍّ رسمي مناسب، تحت ظروف معينة، على جملة «أنا أحبّك». الردّ الذي كان يجنّبه قول الجملة الخطيرة «أنا أيضًا». كلّا، إزمي لم تكن خائفة أبدًا. أو ربما كانت خائفة بعض الشيء.

بعد بضعة أيام، ذهبت إزمي مع والدتها للتسوق. ناتي التي كانت ما تزال تكره واجهات العرض في المحلّات، والتجوّل في المراكز التجارية وغرف القياس، ظلّت في بيت جدها تشاهد التلفاز تحت رعاية ليون. كأيّ سيّدة ذكية، كانت آلسيرا تعلم أنَّه من أكثر المسلمات بداهةً في اللغة، هي تلك التي تقول

يجب على الغرباء الاهتمام بشؤونهم الخاصة، ولكن فيما يتعلق بزواج ابنتها، كانت في صفّ غيدو، أو ربما في صفّ مؤسسة الزواج نفسها. وتعلم أن لا نصيحة، ولا ملاحظات الآخرين، لها تأثير على العلاقة الحميمية الغريبة بين الزوجين. إن كان الزواج ينهار في جميع الأحوال، فلا أحد يستطيع أن يتهمها بالمساهمة في الكارثة. إن بقي الزوجان معًا، ستكرهها ابنتها بشكل أقل، عندما تتذكر كلمات آلسيرا دفاعًا عن زوجها. وإزمي كانت تتفهم موقف والدتها بشكل ممتاز، لذلك رغبت بالتحدّث إليها، لذلك السبب بالتحديد، فهي تحتاج حججًا ذكية لصالح غيدو.

عوضاً عن التجوّل على محال الملابس، جلستا في مقهى جميل وقديم، ولكن مجدّد، لتناول الشاي مع الكعك الذي ذكّر إزمي بطفولتها، وتحدثتا مدّة ثلاث ساعات تقريبًا.

عندما عادتا إلى المنزل، كان صوت التلفاز عاليًا لدرجة أنه سُمع من المصعد. كانت ناتاليا جالسة أمامه بهدوء، وكان الجَدّ ليون ميتًا.

وجدوه في غرفة النوم ملقيًا على الأرض، بجانب السرير، وهو يرتدي نفس البيجاما التي كان يرتديها عندما تركوه. ففي الآونة الأخيرة، كان يصعب إقناعه بارتداء الملابس إن لم يكن يخطط للخروج من المنزل. كلتاهما علمتا مباشرةً أنّه ميت، من لونه، ووضعية جسمه المشدودة، غير القابلة للحركة،

وبصفة معينة لا يمكن وصف ذلك الغموض المنبعث من الجثث. تظاهرتا، ودون الحاجة إلى استشارة بعضهما، بأن الموقف جِديّ، ولكن قابل للتصحيح. طلبتا سيارة إسعاف، وقامتا بتغطيته بلحاف أزرق، وكأنهما تستطيعان حمايته من البرد. حاولتا إبقاء ناتاليا في غرفة المعيشة، ولكن لم تستطيعا منع وجهها الخائف الصغير من اختلاس النظر من باب غرفة النوم. عانقتها إزمي وكأنها ترغب أن تعيدها إلى داخل رحمها لتحميها من رعب الحياة.

أكّد الطبيب الذي وصل مع سيارة الاسعاف، ما تعرفانه بالفعل، ورفض نقله. قال أنّه ميّت منذ ساعتين تقريبًا. بالطبع لا يمكن معرفة ذلك سوى بعد القيام بالتشريح، ولكن بخبرته الطبية، لن يكون الشريان التاجي الهائل له تفسير غير اعتيادي. كان الطبيب شابًا غامضًا جدًا وعصبيًا جدًا. يعاني من عيب طفيف في النطق، مما جعل كلماته صعبة الفهمِ بعض الشيء، وخاصة بالنسبة لآلسيرا التي كان سمعها ثقيلًا. ليس هناك الكثير ليقال، ولكن الرجل الشاب بدا بائسًا، وتحدّث بإسهابٍ عن تنشيط الجهاز الودي، والغدة الكظرية، وإعادة الاستقطابَ القلبي الطبيعي، وزيادة تكوين التخثرات، والالتهاب، وتضيق الأوعية، وكأن تلك الكلمات الغريبة وغير المفهومة بالنسبة للشخص العادي، كانت جزءًا من الطقس الذي سيساعدهما بشكل ما على تقبّل ما لا يمكن تقبله.

فقط بعد رحيل الطبيب، انفجرت آلسيرا بالبكاء، وذهبت

إزمي للاتصال بغيدو. كانت ناتي شديدة الهدوء، منكمشة على نفسها في الزاوية، على الكرسي الكبير.

في الأيام التالية، سألت آلسيرا العديد من الأسئلة، وكأن معرفة التفاصيل ستعيد الوقت إلى الوراء، وتصحح الأخطاء. هل طلب جَدّكِ شيئًا حلوًا؟ ربما، ردّت ناتي، لم تكن متأكدة. ألم تشرح لها أن جّدّها كان مصابًا بمرض السكريّ؟ أن السكر مضرّ له، مضرٌ كثيرا؟ ألم يكن هناك عبوة كولا في الثلاجة؟ سألت آلسيرا. نعم، قالت ناتي، وقد شربتها هي. كانت باردة وحلوة المذاق. كان الجَدّ يبحث عن شيء ما في المطبخ (السكر، فكرّت آلسيرا، كان يبحث عن السكر، السكر، السكر؛ كان يعلم أنه يعاني من نوبة نقص سكر في الدّم، ويبحث بلهفة عن السكر) ومن ثم ذهب إلى غرفة النوم. ولكن علبة السكر كانت في مكانها المعتاد. ألم يقم جَدّك بالصراخ؟ ألم يطلب المساعدة؟

«أمي، هل أنتِ مجنونة؟ اتركيها وشأنها. هل تتهمين فتاة في العاشرة من العمر بشرب الكولا؟».

«أنا لست مجنونة، هي ليست صغيرة جدًا، وأنا لا أتهمها بأيّ شيء، أنا أريد أن أعرف فقط».

«أن تعرفي ماذا؟ أبي قتل نفسه، أنتِ تعلمين ذلك. كان يقوم بقتل نفسه ببطء ولوقت طويل. هل كنت ترغبين بمعرفة المزيد؟ كان بإمكانك طلب التشريح!».

«أريد أن أعلم السبب يا بنيّتي. لماذا كنّا سوية طوال حياتنا؟ ولماذا لم أكن معه في تلك اللحظة؟ هذا ما أريد معرفته!».

الأمر الهامّ، الأمر الهامّ الوحيد، هو أنَّ الشعور بالذنب، الذنب اللعين، لن يؤذي ناتاليا، آخر من رأت الجَدّ على قيد الحياة، والتي كانت معه عندما فارق الحياة.

سألتها إزمي بعد بضعة أيام: «هل تفتقدين جَدّكِ؟».

«أحيانا نعم، وأحيانًا كلا». نظرت إليها ناتاليا بعينيها الصافيتين: «كانت رائحة جَدّي كريهة».

ربتت عليها إزمي متأثرةً بصراحتها البريئة. سوف تعلّمها الحياة الكذب. في تلك الأثناء، كان عليهم فعل شيء حيال تلك التجربة المريعة، لتحريرها من ألم الشعور بالذنب، لكونها آخر منْ رأت الجَدّ على قيد الحياة، ولم تتمكّن من فعل شيء لمساعدته. وهكذا قرر والدا ناتي أن يقدما لها العلاج الأرجنتيني المثالي، الترياق الوطني لكل أمراض الجسد والروح.

بدأت ناتاليا بأول جلسة علاج لها عند طبيبة نفسية للأطفال، وقد كانت عيادتها، لحسن الحظ، في نفس المبنى الذي تسكن فيه العائلة، وهو أقرب لأخذها ذهابًا وإيابًا. في البداية، رفضت ناتاليا الذهاب إلى العيادة. قالت إنّها مملّة، وأن الدكتورة إيبيرمان أرادت لعب الورق، وكانت تخسر دائمًا. إنها فقط تعرف لعبة الرمي والغو فيش. توقفت عن الحديث عن

ذلك لاحقًا، وشعر والداها بالارتياح عندما دعتهما الطبيبة إلى عيادتها. كانا يحتاجان إلى المعلومات.

بعد صمت طويل ومزعج، والذي عدّته المعالجة ضروريًا، بدأ اللقاء بطريقة تقليدية إلى حدٍ ما.

«برأيكما، لماذا دعوتكما للتحدث إليكما؟».

حاولت إزمي أن تجيب بعدّة إجابات لكنها تلاشت وسط الصمت. كان غيدو يُصغي فقط. السبب الذي قدمته الدكتورة إيبيرمان كان سهلاً على الفهم: لقد فاتت على ناتي عدّة مواعيد، وإلى جانب ذلك، لم يدفعوا بعض الأجور مقابل الشهر الأوّل.

تبادل غيدو وإزمي النظرات، مشوشين. أخذا بعض الوقت ليدركا أن ناتاليا كانت تحتفظ بالمال، بمبلغٍ كبيرٍ جدًا من المال. ولكن الأمر الآخر هو: أين كانت تذهب حينما تقول لهما أنّها في جلسات العلاج؟

لم تحاول ناتاليا إنكار أيّ شيء. شرحت لوالديها، بحجج مقنعة، أن طبيبتها مغفلة (الشيء الذي كان غيدو قد بدأ يشكّ به بالفعل)، وأنّها لا تعاني من مشكلة نفسية، وتقضي وقت مواعيد علاجها مع صديقاتها من المدرسة في المركز التجاري الجديد في الحي، وأنّها أنفقت المال على مخفوقات الحليب والحلوى. اقترحت أن يشتريا لها حاسوبًا بدل إرسالها إلى طبيب نفسي. ثمّ جعلت الدموع تغرغر في عيني والديها.

«سوف أقوم بإعادة المال حتى آخر سنت، أنا أعدكما».

سألت إزمي بصرامة: «من أيّ مالٍ يا ناتي؟».

«بمال أسناني. ما يزال عندي بعض الأسنان اللبنية».

رغم تأثرهما بعرضها، قرر غيدو وإزمي أن جنية الأسنان لن تجلب لها أي مال مقابل أسنانها التي تضعها تحت وسادتها، بعد الآن. حُظِرَ عليها المركز التجاري لبقية السنة. قابلت إزمي معلمتها وقد طمأنتها. كانت هناك ثلاثة معايير للسلوك المدرسي الطبيعي: عدم قيام الطفلة بالتشويش في الصف، الحصول على علامات جيدة، ووجود أصدقاء لديها، وبذلك تكون طبيعية. وفقاً للمعلمة، فإن ناتاليا مثالية. لم يبدُ أنّ وفاة جَدّها قد أثّر عليها كثيرًا. لم يتغير سلوكها، وكالعادة، لديها العديد من الأصدقاء الذين كان لها تأثير كبير عليهم. قرّرا تحريرها من الدكتورة إيبيرمان.

«إن أجبرناها على ذلك، فلن ينجح الأمر»، قالت إزمي وهي تخبر والدتها بالقصة بخجل.

«تلك الفتاة تحذو حذوي!»، قالت الجَدّة آلسيرا ضاحكة. ثمّ أردفت: «ألم أخبركِ ألف مرة بأنني كنت أحتفظ بمصروف دروس البيانو وأصرفها لأشتري لزميلاتي في الصف صودا البرتقال وشطائر اللحم والجبن في حانة الحليب؟».

«نعم، نعم، أخبرتِني ألف مرة! أخبرتِ كلتانا، أنا وهي!

ومن هنا، خطرت لها الفكرة!».

«أوه بالطبع. كالعادة، سوف تقومين بإلقاء اللوم عليّ. حسناً، أنا والدتك -أنا معتادة على ذلك».

في الحقيقة، كانت طفولة ناتاليا على وشك الانتهاء. إن وضعتَ أذنك على الأرض، يمكنك سماع قفزات المراهقة قادمة مدوية بحوافرها الحديدية.

يوميات ١٥

لا تزال هذه العائلة بدون لقب. تسمية العائلة ليس بالأمر الهيّن. اسم العائلة يكشف عن الأصول، ويُحدد تقاليد وعادات معينة، وشكل العلاقة بين الشخصيات، وذكريات عائلية معينة. يبدو أن إزمي يهودية. هذا مؤكد. يمكن أن يكون غيدو ذا خلفية متوسطية، على الرغم من أنني أفضّل عدم الاعتماد على قوالب الأسر الأرجنتينية العادية، المكوّنة من إسبان أو إيطاليين، أو مزيج رائج منهم. قد يكونون أيضًا كرواتيين أو يونانيين...

تخبرني شبكة الإنترنت أن هناك إحدى وعشرين دولة على حوض البحر الأبيض المتوسط: إحدى عشرة دولة أوروبية، وخمس دول آسيوية، وخمسٌ أفريقية. على أيّ حال، جدتي لأبي من أصل مغربي.

وما زلت غير متأكدة.

تعليقاً على حبكة شبه الرواية هذه (الحبكة غير المكتملة). أنا لست قادرة على التعامل مع قصة مغلقة، ولا تهمني كثيرًا أيضًا. لم يسبق لي أن انبهرت بالروايات البوليسية، وبصيغة

أكثر عمومية، أشعر بالانزعاج من تلك الروايات، حيث يتم الكشف في الفصول الأخيرة عن سرّ يغير أو يعطي معنىً لما جاء من قبل. بمرور الوقت، ومن خلال قراءاتي، أصبحتُ أحب الحبكات المغلقة بشكل أقل؛ إنها تبدو لي على نحو متزايد متوقعة النهايات. حتى في الروايات الرائعة مثل رواية «البحر»، ورواية «الضوء القديم» للإيرلندي جون بانفيل، أشعر بانزعاج من الإخفاء المتعمّد لبعض الحقائق والمصمم لمفاجأة القارئ، والذي بفضل الخبرة لم يعد يتفاجأ بأي شيء. من ناحية أخرى، أنا معجبة بتلك الروايات ذات الحبكة والنهايات المفتوحة، والتي تبدو خالية من التشويق (ظننت أنها مشوّقة بالفعل)، وخاصة بدون مكائد أو حلول، مثل رواية «حزن وجمال»، ورواية «منزل النائمات الحسناوات» للياباني ياسوناري كواباتا.

لسبب ما، لا أشعر بالحاجة إلى ذكر قراءاتي التكوينية في هذه اليوميات، وكذلك الكتب التي أقرؤها خلال فترة الكتابة. ربما وبشكل أدق لأنها بمثابة مذكرات.

طلاق

في بعض الأحيان، كانت إزمي تحاول أن تنظر إلى حياتها من الخارج. على سبيل المثال، كيف يمكن أن تروي قصة زواجها؟ هل ستحكي عن مشاجراتهما؟ أم عن لحظاتهما السعيدة؟ أم عن أحداث يومية معينة؟ هل يمكن أن تضع نفسها في مكان غيدو، وترى نفسها من وجهة نظره؟ لم تستطع. ولم تكن تريد فعل ذلك.

إنّها قصة يمكن أن تروى من خلال ثلاثة مواقف متشابهة إلى حدّ بعيدٍ. هذا المشهد -وهو المشهد الثالث الذي يلعب فيه عنصر موجود في الجيب دورًا- جرت أحداثه في مطعم تقليدي في بوينس آيرس. كان الوقت متأخرًا، تناول غيدو وإزميرالدا العشاء مع الأصدقاء. كان المكان يستحضر ذكريات من طفولتهما. عدًّا من قائمة الطعام، وحتى رؤوس الغزلان التي تزين الجدران وقد أكلها العث قليلًا. كل شيء كان يثير لديهما مشاعر رقيقة.

انتهى العشاء. وُجِدَ ستة أشخاص حول الطاولة وهم

يشربون القهوة ويدخنون. لم يكن قد حُظر التدخين في الأماكن العامة بعد. في غضون ست سنوات، من بين الأشخاص الستة الجالسين على هذه الطاولة، سيموت أحدهم بسبب السرطان (نوع من السرطان لا علاقة له بالتبغ)، وسيقلع ثلاثة آخرون عن التدخين. أخرجت إحدى النساء سيجارة، وأسرع غيدو لإشعالها لها بعود ثقاب، مما أثار حديثًا مسليًا عن تفضيل استخدام الكبريت على أحسن أنواع الولاعات.

أخذت إزمي علبة الثقاب الصغيرة التي أخرجها غيدو من جيبه، والتي تحتوي على إعلان عن فندق من الفنادق التي تؤجّر الغرف بالساعة.

«ما هذا؟»، سألت بهدوء وكأنّها لا تعرف.

ثمّ، وبشكل غير متوقع، وخاصة بالنسبة لها، صفعت إزمي زوجها، وردّ عليها بصفعة مماثلة مباشرة. هذا شيء جديد، تزامُن سريع لأحداث لم تحصل بينهما من قبل، ولن يحدث ذلك أبدًا مرّة أخرى. كلاهما مدهوش ممّا حدث للتو! نظر كل منهما إلى الآخر في حيرة. كيف ستستمر الأمور الآن؟ ماذا حدث بعد ذلك؟ لم يعرف أصدقاؤهم المحرجون ما إذا كان ينبغي عليهم التدخل، أم النهوض والمغادرة، أو التظاهر بعدم وجود شيء خاطئ والاستمرار في الحديث.

بعد بضعة أيام، سألت إزمي والدتها، بقصد فعل العكس تمامًا: «ماذا عليّ أن أفعل؟».

«ما الذي ترغبين أنتِ بفعله؟»، ردّت آلسيرا وهي تعلم جيدًا ما تتوقّعه ابنتها منها، وغير راغبة في إرضائها.

«أنا لا أعرف. لا أعرف حتى ما إذا كنت أنا من يقرر. يا له من ابن عاهرة».

«وأنت أبداً...؟».

«لا تُجري مقارنات. ذلك لا علاقة له بالموضوع. الخيانة الزوجية هي أقل ما في الأمر. ما يفعله غيدو هو إهمال ولامبالاة. إنه لا يهتم بأيّ شيء يخصني. أنا لست هامّةً بما يكفي ليرمي علبة الثقاب بعيدًا بدلًا من وضعها في جيبه!».

بحلول الوقت الذي بدأت فيه ناتاليا تذهب إلى المدرسة الثانوية، كان هناك بالفعل جهاز كمبيوتر في منزلها منذ عدّة سنوات، ومثل الغالبية من أبناء جيلها، كانت ابنة أبوين منفصلين.

يوميات ١٦

كنت أقرأ مذكرات رجل لم يكن كاتبًا في يوم من الأيام، يدعى إميليو بوبليت دياز. هذه المذكرات المؤثرة لأنها، بالضبط، تفتقد إلى أسلوب أدبي، إذ تروي، من ضمن ما تروي، القصة المرعبة لجنون والدِ إميليو. يحاول الرجل، تحت تأثير كابوسه الذهاني، قتل ابنه البالغ من العمر ثماني سنوات، وهو كلّ ما لديه في العالم.

لن أضيف أيّ شيء جديد إلى موضوع فيليسايد القديم، والذي تمت دراسته على نطاق واسع من قبل المحللين النفسيين وعلماء الاجتماع. حبّ الآباء لأبنائهم هو حبّ يتضمن جانبًا من الجنون. قرصة واحدة إن تكررت، قد تتحول إلى كراهية. ميديا قتلت أبناءها، ليس فقط للانتقام من جايسون. كان عليها أن تحرّر نفسها من أبنائها. هذا الشعور بالتبعية المطلقة الذي يثيره حبّ الأم، إنما هو بسبب الأبناء أنفسهم، وبسبب العلاقة المسعورة التي تربطها بهم. نحن رهن لما نحب. عندما نحب بهذه الطريقة الوحشية والمطلقة، فإننا نتعلق بشكل مطلق

ووحشي. من منّا يريد حقًا أن يكون أطفاله مستقلين؟ الشخص الحرّ بالفعل، هو ذلك الشخص الذي لا يحب أحدًا. من يحبّ، يعيش حياة الحبيب، ويتبع مصيره. إننا نحيا بابتسامة طفل ونموت بدموعه. فكيف يمكننا ألا نكرههم؟ أليس من الطبيعي، إذن، أن تقول الأم، وهي تتحدث عن أطفالها الصغار أحيانا -تلك العبارة الرمزية التقليدية- أرغب في رميهم من الشرفة؟ أليس من الطبيعي، أحيانًا وفي نوبة جنون، أن تتخلص منهم، وتتخلص من نفسها أيضًا؟ أليس من الطبيعي أن نرغب في قتل شخص نحبه كثيرًا؟ لماذا هم ليسوا جزءًا منا؟ كيف يجرؤون على أن تكون لهم أذواقهم ورغباتهم وأحلامهم ومعارفهم وآمالهم الخاصة بهم، وليست آمالنا نحن؟ هذا غير مقبول. إنه أمرٌ لا يطاق أن يكونوا أناسًا منفصلين عن أجسادنا، وعن نفسياتنا. قال (جبران خليل جبران)، المعلم الروحي لأبناء جيلي: «أولادكم ليسوا لكم أولادكم أبناء الحياة». إنّها كذبة سخيفة.

ربما لهذا السبب أشعر في داخلي بالحاجة إلى كتابة هذه الرواية، والحاجة إلى هذه الابنة. أثناء كتابتي لها، أقرأ كتبًا أخرى عن الأطفال صعبي المراس، وهي حالة الرهاب التي تميز أبناء جيلي المضطرب بسبب ما جاء لاحقًا، ربما نتيجة تمرّدنا. في رواية «ما أحببت» تتمتع سيري هوستفيدت بحسٍّ جيدٍ لسرد القصة، ليس من وجهة نظر أحد الوالدين، ولكن من وجهة نظر صديقٍ للعائلة. لقد انتهيت لتوي من قراءة رواية

«العشاء» لهرمان كوخ، وهي نوع من الروايات البوليسية، التي تتمتع بقدرة فائقة على الإقناع، وتجعل القارئ يتماهى مع حجج شخص ذكي وعقلاني، ويصدف أنه وحش أيضًا. تتضمن رواية «العشاء» فكرة رائعة لتصوير الأب على أنه فظيع ومشوه مثل الابن. شخصية إزمي في روايتي، أليست شخصية كريمة جدًا، طيّبة جدًا، طبيعية جدًا؟ لكن، ألا يمكن أن يكون هذا ما تشعر به أي أم، وهذه هي الصورة التي ترى نفسها فيها، على الرغم من ذنبها؟

جليسة أطفال

قالت بيلار: «أنا لن أتصل بالشرطة، فقط من أجلك. ولا أعرف ما إذا كنتُ بذلك أقدّم لك خدمة».

في الساعة الرابعة والنصف فجرًا، قفزت إزمي من السرير، فزّت من حلم هادئ، على صوت رنين الهاتف. كانت الثواني القليلة التي استغرقتها لالتقاط الهاتف كافية لتهدئة أعصابها. لم تكن ناتاليا تخرج مع أصدقائها، ولا هي ترقص في الخارج، ولا تخيّم في مكان ما. وإذا كان الأمر كذلك، فهل كان بوسع إزمي أن تنام، وتحلم بسلام؟

كانت ناتاليا تقوم برعاية ابنة بيلار الصغيرة.

لقد كانت تلك فكرة آلسيرا، وهي فكرة جيدة.

قالت الجَدّة: «من الهامّ لها أن تكسب مالها الخاص. من أجل مصلحتها، من أجل اعتزازها بنفسها. وكذلك لأجل أن تعرف أن المال لا يسقط دائماً من السماء».

كانت السماء التي تسقط منها الأموال، عادة، على ناتاليا هو

منزل جدتها. جدتها، التي لم تعد تعطيها الألعاب المتطورة، بل تغدق عليها المال بكميات يصعب تحديدها.

قالت آلسيرا مشيرة إلى نفسها بضمير الغائب: «أريدها أن تستمر في زيارة جدتها كما كانت تفعل عندما كانت صغيرة. ولتحقيق ذلك، يجب أن يكون هناك سبب وجيه. وليكن مجيئها من أجل المال، أنا لا أهتم بذلك، طالما أنني أراها».

كانت ناتاليا تتناول الغداء في منزل جدتها مرّة واحدة في الأسبوع. كم كانت تعطيها آلسيرا؟ من الصعب أن توجّه هذا السؤال إلى ناتاليا مباشرة، لأنها ذكرت مبالغ صغيرة غير واقعية. كذلك رفضت آلسيرا أن تفصح عن ذلك.

قالت: «إنه سرٌّ بيننا. لكن لا تقلقي... ليس بالشيء الذي سيغير حياتها» مكتبة سُر مَن قرأ

ومع ذلك، فقد تغيّرت حياة ناتاليا كثيرًا، وأصبحت بطريقة ما تحديًا يواجه التمويل. كم كان يعطيها غيدو؟ ظنت إزمي أنه يعطيها القليل جدًا، أقل مما قدّمه لها لدعمها هي. أم أنّه كان العكس تمامًا؟ هل أعطى ابنته ما حرم زوجته منه؟ من الصعب معرفة ذلك، لأنها لم تستطع أن تسأل ناتاليا مباشرة. في هذه الأيام، ليس ثمة أسئلة لتوجّهها إليها. كانت إزمي مدركَة تمامًا ما يعنيه دخول مرحلة المراهقة. ربما كان جيلها هو الجيل الأول من الأطفال الذين أصبحوا مراهقين حقيقيين، حسب مفهوم الكلمة حاليًا. لم يحدث قط قبل الستينيات من القرن

الماضي، انقسام مثل هذا الانقسام بين الأجيال. قصص آلسيرا (الصور والأفلام والكتب) تتحدث عن حقبة مختلفة، ربما حقبة سعيدة، عندما كان سنّ المراهقة يمتد حتى سن الرابعة عشرة (تلك الفترة من الحياة التي اختفت الآن ومنذ فترة طويلة، عندما كان الأطفال يعانون من حَبِّ الشباب، خجلين وبمزاج صعب، مدفوعين بمزيج من النشاط الهرموني والقمع الاجتماعي)، ثم يتحوّل الناس إلى مرحلة البلوغ. حيث اقتصر الشباب، المتلهفون لترك الطفولة، وخاصة سن المراهقة، على تقليد الكبار. كان الصبيان يرتدون سراويل طويلة، والفتيات يرتدين بفخر ملابس أمهاتهن. ويرقص الجميع على نفس الموسيقى. تمامًا كما كانت الأمور منذ عصور ما قبل التاريخ، حيث يتذمّر الكبار من الصغار، لكن الفجوة لم تكن مستعصية. ربما كان عقد الستينيات في القرن العشرين هو الوقت الذي اتّسع فيه هذا الشرخ وأصبح أكثر عمقًا، أصبح خندقًا مائيًا مليئًا بالتماسيح التي هدفها الدفاع عن قلعةِ مراهقةٍ أكثر تحديدًا وأكثر هيبة وأطول أمدا، وذلك بموسيقاها وأزيائها ولغتها التي يقلّدها الأطفال والبالغون على حدّ سواء.

لم تنسَ إزمي الجدالات الانفعالية التي خاضتها مع والديها، خاصة مع آلسيرا، فجهزت نفسها لانتقاد حياة ابنتها، وملابسها، وأصدقائها. في المرحلة الأولى من المراهقة، على الأقل، فاجأتها ردود أفعال ناتي. كانت ناتاليا دائمًا لطيفة وحنونة، ولم تتحدَّها أبدًا، وفي مناسبات نادرة، عندما تغضب

منها إزمي، كانت تقف وتخرج من الغرفة، كاظمة غيظها، دون أن يمنعها شيء عن ذلك. وبطريقتها الهادئة والذكية، وبدون إحداث ضجة، أصبحت هي أيضاً خبيرة في فن التلاعب على والديها المنفصلين.

«ماما، لديَّ مشكلة»، قالتها ابنتها عبر الهاتف في وقت مبكر من الصباح. إن دهشة سماع صوتها بذاك الوضوح والارتياح أعاد روح إزميرالدا، التي كانت ترفرف بالقرب من السقف، إلى جسدها المنهار. انتزعت بيلار الهاتف من يد ناتاليا. لقد بدت مستاءة جدًا. ارتدت إزمي ملابسها بأسرع ما يمكن، وركبت سيارتها وطارت إلى هناك. شعرت بالأسف لأنها اقترحت يومًا ما وظيفة مجالسة الأطفال على ابنتها. كانت تعرف بيلار جيدًا، وتعرف أنها قادرة على الخروج عن نطاق السيطرة في نوبة غضب. الآن، الشيء الهامّ الوحيد، هو إنقاذ ابنتها. وسيناقشون ما حدث عندما يعودون إلى المنزل.

كانت هذه هي المرّة الثالثة التي تجلس فيها ناتاليا مع أغوستينا، ابنة بيلار البالغة من العمر ست سنوات، أثناء خروج والديها. مضت المرّتان الأخريان على ما يرام، إحداها كانت لبضع ساعات ذهبا خلالها لحضور حفلة، وفي الثانية، خرجا في موعد لمشاهدة فيلم. لكن هذه المرّة ذهبا إلى تشاسكوموس لزيارة والدة غاستون (حماة بيلار)، وخططا لقضاء الليلة هناك. كان يوم جمعة: لقد طلبوا من ناتاليا البقاء حتى ظهيرة يوم السبت.

«كان علينا العودة في منتصف الليل! وكان من الممكن أن نتعرض لحادث على الطريق!».

صرخت بيلار بشدّة، ووجهها محمرّ من الغضب. من خلفها، بدا غاستون محبطًا، ويصدر إشارات إلى إزمي بعدم الردّ عليها. لم يكن هناك داع لتلك الإيماءات، لأنّ إزمي تعرف صديقتها جيدًا، تعرفها بما يكفي لفهم أنه لا يوجد شيء أسوأ من إلقاء المزيد من الحطب على النار عندما تكون في مثل تلك الحالة. من الأفضل تركها تزيح ما في صدرها. لديها الكثير من الأسباب. كانت الشقة رائعة. لم تر إزمي منزلًا مثله من قبل. وكانت ناتاليا جالسة على مقعد صغير (قفص الاتهام)، ففكّرت إزمي أنها لم يسبق أن رأت ابنتها جميلة إلى هذا الحدّ. كان شعرها الأسود الكثيف مسدلًا على خط الرقبة المنخفضة لفستان الحفلة، والذي لم تتعرف عليه إزمي (ولكن من يستطيع التعرف على جميع ملابس ناتاليا؟)، وكانت عيناها العسليتان مكحولتين على نحوٍ خفيف، الأمر الذي رسمَ هالات سوداء على عينها أظهرت، وهي في سنّ الرابعة عشرة، جمال وجهها الذي كان مايزال طفوليًا.

أوّل ما لاحظته إزمي أثناء دخولها إلى الشقة، ومع كل خطوة خطتها، هو التصاق قدميها بأرضية الخشب المزخرف. كانت الأرضية بأكملها مغطاة بمادة لزجة وداكنة، بطبقة متجانسة نسبيًا. كان يتخلّل هذا الشريط المتماسك، على نحوٍ متقطّع، هنا وهناك، بركٌ من القيء، خاصة في الزوايا. اكتشفت

لاحقاً أن الضيوف الذين تمت دعوتهم إلى الحفلة المرتجلة، كانوا قد تعثروا بأرجاء المنزل، وأهرقوا مشروباتهم (معظمها كوكا كولا مع فيرنت)، وداسوا على السائل المنسكب. كانت هناك أكواب ورقية في كلّ مكان، ولا يوجد ما يشير إلى تناول أي شيء، بالإضافة إلى وجود عدد هائل من علب النبيذ وزجاجات الكحول الفارغة من مختلف الأنواع والأحجام. وأكواب مملوءة بالرماد وبأعقاب السجائر مرمية على الأرض وعلى الطاولة. لاحظت وجود بقع النبيذ، والحروق العرضية على الوسائد الصغيرة والكراسي وطاولة القهوة والسجاد. كانت الكراسي مقلوبة رأسًا على عقب، ووسائدها مرمية على الأرض، وستارتان من ستائر نوافذ الشرفة مسحوبتان جزئيًا، كما لو أنّ شخصًا ما أمسك بها في محاولة لمنعها من السقوط. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك كمية مذهلة لا يمكن تفسيرها من الشعر في كلّ مكان، معظمه عالق على الأرض. كان أحدهم قد كنّس شظايا من الزجاج المكسور وقطعًا من الخزف، وتكبّد عناء إخراج بقية التحف ومنافض السجائر والمزهريات من الطريق، ووضعها فوق خزانة الكتب.

سألت إزمي: «كيف حال أغوستينا؟».

قال غاستون: «الطفلة بخير، إنها نائمة بسلام».

«ماما، ماميتا»، قالت ناتاليا التي لمست في هيئة والدتها الخوف، ولكن أيضاً الحبّ. وتابعت قائلة: «كنّا سنعيد كل

شيء إلى مكانه مرّة أخرى. أردنا تنظيف وترتيب المكان لكنهما لم يسمحا لنا!».

«أيّ تنظيف وأيّ ترتيب؟ وماذا عن كلّ ما كسرتموه ودمرتموه؟ ما الذي كنتِ ستفعلينه بشأن الأرضية؟».

قالت ناتاليا مرتبكة وقد أخفضت عينيها: «لا أعرف، لا أعرف... ربما سأمسحها؟».

«كنتِ ستمسحين الأرضية أيتها التعيسة البائسة! فتخربينها تمامًا! لقد اتصل بنا الجيران في الساعة الثانية صباحًا! هل تعلمين أين وجدنا هذه الفاسقة الصغيرة؟ لقد وجدناها في فراشنا وهي تعبث مع صبيّ!».

كلمتا «فاسقة» و «تعبث»، أحدثتا تأثيرًا سحريًا على إزمي. لقد كانت حتى ذلك الحين خافضة رأسها، خجولة من سلوك ناتاليا، أما الآن، ومع سماع تلك الكلمات، استقامت في وقفتها، ونظرت إلى صديقيها بغضبٍ يوازي غضبهما، متأهبة للردّ عليهما. على الرغم مما اكتشفته للتو، إلا أنّها كانت فخورة جدًا بالحرية الجنسية لابنتها. ألم تتمرد هي أيضًا، وحتى بيلار نفسها، ألم يناضلن ضد الأعراف التي حدّت من رغبة المرأة وقيّدتها؟ ألم يتحدّين جميع القوانين للحصول على تلك الحرية التي أهانتها بيلار الآن، وبنفس الكلمات التي وجهها إليهما الآخرون؟ ألم يستعملوا كلمة «تعبث» ليشعروهما بأنّهما تفعلان شيئًا قذرًا وممنوعا؟ وعدّوهما أدنى من النساء

اللواتي يتبادلن الجنس مقابل المال.

قالت بحزم: «لن أدعكِ تتحدثين عن ابنتي بهذه العبارات».

لكن بيلار لم تكن تنظر إليها. كانت إلى جانبها تمامًا، وفي لحظة تجاوزت فيها فيضانات غضبها حدودها الموسومة بالكلمات وامتدت إلى الأفعال. كانت إزمي قد سمعت قصصًا عن قدرة بيلار على تدمير مجموعة من الأطباق عن طريق تحطيمها قطعة تلو الأخرى على الأرض، أو تمزيق أفضل بدلات زوجها بالمقص. فجأة، ألقت بيلار بنفسها على ناتاليا بقوة، وهي تلهث. أمسكت بها من ملابسها وبدأت تهزّها وتهينها بأشدّ الألفاظ. لم تحاول ناتاليا الدفاع عن نفسها. لقد نظرت إليها فقط بعيون واسعة وبنصف ابتسامة، مما أثار غضب صاحبة المنزل أكثر. اضطر غاستون وإزمي إلى التدخل وفصلهما.

«بيلار، يا عزيزتي، تعالي إلى هنا»، قال غاستون ممسكًا بذراعيها في محاولة لإعادتها من ذلك المكان الغريب الذي جعلها تطلق عنان غضبها. «تعالي معي، دعينا نذهب إلى المطبخ وسأعدّ لكِ بعض الشاي. ستأخذين حبة ريفوتريل وتذهبين مباشرة إلى الفراش، وأنا سأقوم بالتنظيف...»، وفي غضون ذلك أشار إلى إزمي وناتاليا بالرحيل.

قالت إزمي قبل مغادرتها: «سأدفع مقابل كلّ الخسائر».

«بالطبع ستدفعين مقابل كلّ شيء! لأنني لن أتكبّد عناء

مقاضاتك في المحكمة! سأذهب إلى منزلك وأحطم كلّ شيء... سأترك منزلك كما تركتِ منزلي!»، صرخت بيلار، بينما دفعها زوجها تدريجيًا نحو المطبخ، وهمس بهدوء في أذنها كما يفعل الناس مع الخيول.

في السيارة، لم تعرف إزمي ماذا تقول.

«لم تخبريني أبدًا أنَّ لديكِ حبيبًا».

«ليس لديَّ حبيب يا أمي. لو كان لديَّ حبيب لأخبرتكِ. ولكنتِ أولّ من يعلم». نظرت ناتاليا إليها بوجهها الواثق والهادئ.

«هل كانت بيلار تكذب؟».

«لا، لم تكذب. بالفعل، لم يكن حبيبًا. كان مجرد صبي. ألم تفعلي شيئاً من قبل مع صبيّ ليس حبيبك؟».

عند التفكير، كان على إزمي أن تعترف، نعم لقد فعلت ذلك. بغض النظر عن مدى محاولة والدتها غرس فكرة أن المرأة لا تشعر بالرغبة الجنسية إلا مع الرجل الذي تحبه، فإن إزمي، كانت مذنبة ومضطربة، قد أثارها أكثر من مرّة رجال لم تحبهم على الإطلاق. وإن لم تكن في عمر ناتاليا بالطبع. أم كانت؟ الذاكرة غير دقيقة...

«يا صغيرتي، هناك شيء واحد فقط...».

«لقد قلتِ لي ذلك مرّات عديدة يا ماما. لا تقلقي. نعم، فقط باستخدام الواقي الذكري. دائمًا ودائمًا ودائمًا. أنا لستُ انتحارية. لا أريد أن أحبل، ولا أريد أن أموت بسبب الإيدز».

«من أين أتى كلّ هذا الشعر؟»، سألت بدافع إبقاء المحادثة مستمرة بطريقة ما، وكذلك بدافع الفضول.

«كان أحد الصبية نائمًا على كرسيّ، وقرر اثنان آخران المزاح معه، فقاما بقص شعره».

تنهّدت إزمي، بينما كان ذهنها مشغولًا في محاولَة تنظيم خطة عمل. كان عليها أن تتحدّث إلى غيدو لتخبره بكلّ شيء. لا بدّ أن يجري الوالدان، معًا، حديثًا طويلًا وجادًا مع ناتاليا. فمن الهامّ إظهار جبهة موحدة في مثل هكذا مواقف. من الواضح أن إزمي ستدفع مقابل التنظيف والإصلاحات من مدخراتها الحالية والمستقبلية. سيتعين عليهم فرض عقاب ما. لكن كيف تُعاقب فتاة في الرابعة عشرَ من عمرها؟ ليس هناك الكثير من الاحتمالات سوى حبسها. لم تقل ناتاليا لأمّها كلمة واحدة. ولماذا تكشف مثالًا آخر عن فشلها؟ ثم سألتها أمّها عن الشيء الوحيد الذي بقي لغزًا لا يمكن تفسيره:

«كيف يعقل أن أغوستينا لم تستيقظ؟ مع كل تلك الموسيقى؟ ثم على صراخ بيلار؟».

أجابت ناتاليا: «إنّها في السادسة من عمرها يا ماما. تنام أغوستينا دائمًا بعمق. ألا تعلمين أن الأطفال الصغار ينامون

بعمق شديد؟ كانت ما تزال مستيقظة عندما وصل الصبية الأوائل. ربما شربت شيئًا من كوب أحدهم؛ فقد كان من المستحيل أن أكون موجودة في كلّ مكان».

وبعد صمت ثقيل، سُمع صوت ناتاليا الخفيض مرّة أخرى:

«ماميتا... سامحيني. لقد كانت كارثة. أنا أستحق كلّ اللوم. تفضلي وعاقبيني. سأدفع من مدخراتي. لم أستطع إيقاف ما حدث، هل تعلمين؟ إنها ريتا. لم تخبرني عن ذلك. لقد اتفقنا على أن تأتي لزيارتي في تلك الليلة، وأعطيتها عنوان بيلار. لم يخطر لي أبدًا أنها ستدعو الجميع إلى حفلة. كان شيئًا فظيعًا. جاء الكثير من الأشخاص الذين لم أكن أعرفهم، جاؤوا مع مشروباتهم... أقسم أنني حاولت طردهم، لكنهم استمروا في القدوم... خرج الأمر عن السيطرة...».

على الرغم من أنَّ شريك غيدو كان يشير إلى مشروعهما المشترك باسم «ورشة عمل صغيرة»، إلا أن غيدو أصرّ على تسميته «تجارة المنسوجات»، وكان دائم الانشغال بعمله بصفته رجل أعمال. ومن ضمن تلك المشاغل قراءة كتب عن الاقتصاد، وسير ذاتية لرجال أعمال مرموقين. لقد تقبّل على مضض، المهمة التعيسة المتمثلة في الغضب من ابنته.

قال لازمي: «ألا تعرفين صديقتك بيلار؟ أنتِ تعلمين أنها مجنونة! لقد ارتكبتِ خطأً فادحًا عندما ألقيتِ ناتي المسكينة في ذلك المنزل. على كلِّ حال، سأتحدث مع ابنتك. هذه المرّة تمادت كثيرًا».

بعد أسبوع، عندما اتصلت بيلار لتخبرها بأنها اكتشفت أن حزمة من الدولارات مفقودة من درج خزانتها، لاحظت إزمي ارتعاشًا في صوت صديقتها السابقة، ولم تكلّف نفسها عناء سؤال ناتاليا.

«إن ناتي مختلفة!» قالت لها آلسيرا في وقت لاحق. «ابنتك لديها جينات تجارية، مثل والدها وجدّها. لقد أخبرتني كيف نظمت حفلةً وجمعت رسوم الدخول، وقد اتّضح أن الأمر قد سار بشكل ممتاز».

لكن من دون شك، شعرت إزمي بشيء من الذنب، لأن مجرد التفكير في الأمر، يعني درجة من الشك واتهام ضمني ضد ابنتها. لا شكّ أنها ليست نفس تلك الحفلة.

يوميات ١٧

رواية أخرى عن طفل صعب المراس: «نحتاج إلى الحديث عن كيفن». في الأدب القصصي، غالبًا ما يكون الأطفال السيئون صبية. هل الأمر في الحياة الواقعية أيضًا كذلك؟ لا شك أن الذكور كانوا، وما يزالون، حتى في هذه المرحلة من التطور البشري، لديهم ميلٌ أكبر إلى العنف. هل هي ثقافة أم جينات أم هرمون التستوستيرون؟ على الأرجح، هو مزيج متوازن من كل ذلك، مثل كلّ ما يحدث للبشر. «نحتاج إلى الحديث عن كيفن» هي رواية للكاتب الأمريكي الشمالي ليونيل شرايفر، والتي كانت مصدر إلهام لفيلم رديء. لكن الكتاب جيد، ومرعب.

الرواية مكتوبة بضمير المتكلم. الأم تكتب رسائل إلى الأب الغائب. يُعد لقبهم، كاتشادوريان خيارًا ممتازًا . فهو يشير إلى عائلة أرمنية، مما يضفي الحيوية والحياة على قصة عائلية. جميع أحداث الرواية مؤرخة بدقة ومرتبطة بالتاريخ السياسي للبلاد؛ كل واقعة تحدث في حيّ معين، في مكان

محدّد وموصوف بشكل جيد. أوه... يا لدقة الرواية! هل من الممكن الالتفاف على ذلك؟

والدة كيفن، إيفا، ليست امرأة عادية، كما أنّها ليست أمًا عادية. الابن وحش منذ ولادته، لكنها الوحيدة التي تدرك هذه الحقيقة. أكانت هي السبب؟ إيفا لا تحبّ ابنها. إنّها تقوم بكلّ ما هو متوقّع منها كأمّ، وبدقّة آلية، لكنها تقرّ بالنفاق الشديد لكي تُظهر الحبّ الذي لا تشعر به. هل إيفا لا تحبّ ابنها لأنها تدرك منذ البداية أن كيفن وحش، أم العكس؟ هذا يذكرني برواية أخرى حول ذات الموضوع، والتي بدأت بالفعل في تشكيل نوع أدبي موضوعي، ألا وهو عن الأطفال المشاغبين. (لكن أليس جميع الأطفال مشاغبين؟). إنها الكاتبة دوريس ليسينغ في روايتها الطفل الخامس. ما هو، ما هو ذلك الطفل الخامس الذي يأتي ليخرب ويشوّه سعادة العائلة؟ ثم جاءت روايتها «بِن في العالم»، والتي خيبت أملي. حُسمت الشكوك. تتّجه القصة نحو الخيال العلمي، وتبيّن أنَّ بن هو مزيج غريب من الجينات القديمة. نوع من البشر السابق لتاريخ الإنسان العاقل. من ناحية أخرى، كان من الرائع التفكير فيه على أنه مجرد طفل آخر، ولكنه مختلف، يقاتل منذ أن كان في بطن أمه ضدّ جسد تلك الأم الغريب والمهدِّد، كان جسمًا غريبًا عن المرأة التي يتغذى عليها.

اسمحوا لي أن أعود إلى والدة كيفن، الشخصية الرائعة. إنها امرأة قاسية على نفسها، تدرك أخطاءها ونواقصها، تعرف

برودها وافتقارها إلى الحب الحقيقي لابنها. جلّ عاطفتها مكرّسة لعلاقتها مع زوجها، ثمّ، لحبها لابنتها الصغرى. لكنَّ الأم في روايتي تتأرجح بين الارتباك واليأس، ولا تفهم العالم من حولها، ولا تفهم ما يجري مع ابنتها. بشكل عام، هي لا تفهم. إنّها تحب ناتاليا بلا حدود، حبها طاغٍ وثابت، لا نقاش فيه.

لقد استخدمتُ وقائع من موقف حقيقي لوصف الحفلة في منزل بيلار. في مناسبة معينة، اضطررت إلى الذهاب إلى قاعة أقيمت فيها حفلة نهاية العام لبناتي لأنَّ إحداهن فقدت محفظتها. تم الترحيب بي من قبل مالك الصالة وشريكه، وهما شخصان في مثل سني. اشمئزا وغضبا، وهاجماني كما لو كنت مسؤولة عن تلك الفوضى، اصطحباني لرؤية الغرفة حيث أقيمت فيها الحفلة. ولأول مرّة، فهمت لماذا لم تقبل بناتي أبدًا اقتراحاتي لإقامة حفلةٍ في المنزل، مائدة مشتركة، كما أسميتها باستخدام مفردات وبراءة مراهقة في الستينيات. بالإضافة إلى الكوارث الأخرى (الفوضى والدمار الذي أحدثه هؤلاء الأطفال بطفاية الحريق لا يوصف)، وكانت أرضية القاعة مغطاة حرفياً بعمق ثمانية بوصات بطبقتين من الزجاجات والقوارير وعلب المشروبات. ومن الصعب تخيّل كيف وأين تحرّكَ رواد الحفلة ورقصوا. لم يكن المشهد ليساعدني على اتخاذ خيارات أدبية، على أيّ حال: كان مشهدًا مخيفًا، لكن قبل كل شيء، كان غير واقعيٍّ.

مسحوقٌ أبيض

نجحت ناتاليا في اجتياز المدرسة الثانوية رغم لامبالاتها، تلك اللامبالاة التي كانت بالنسبة إلى إزمي مؤلمة، في حين وجدها غيدو طبيعية. كانت تظهر عليها شرارات مفاجئة من الاهتمام، فتبدو ناتاليا متحمسة في سنة دراسية أو في مادة، أو مع أستاذ معين، مما يجعل إزمي تعيد بناء أوهامها من جديد. فالأمر بالنسبة إليها هو فقط حصول ابنتها على مهنة. وبمجرد توجيهها في الاتجاه الصحيح، ستكون مثل السهم الذي يصيب الهدف دائمًا، سيكون لدى ناتاليا مستقبلٌ لامع ورائع. لقد كانت ناتاليا ذكية جدًا واستثنائية في تميّزها، لدرجة أنه لم يكن بوسع الناس أن يكتشفوا تلك الحقيقة.

عندما جرّبت ناتاليا الانضمام إلى فريق الهوكي في المدرسة، درست إزمي على عجل قواعد اللعبة، الأمر الذي أثار إعجابها. حتى إنّها تساءلت: كيف لم تهتم من قبل بمثل هذه الرياضة المثيرة؟ لمدة ثلاثة أشهر، تخيّلتها وهي تسافر حول العالم مع المنتخب الأرجنتيني، وتسجل أجمل

الأهداف، وتنال استحسانًا في الملاعب، وتخيلت كيف ستنشر صورها على أغلفة المجلات. حدث الشيء نفسه مع لعبة التنس، ولكن بدرجة أكبر، ولأنها بطلة تنس، لن تضطرّ إلى مشاركة نجاحها مع فريق، اللعب ضمن فريق سيكون عبئًا على موهبتها. ثم جاءت السباحة. غيدو، بشخصيته الشبيهة بالحرباء، وميله الطبيعي للاندماج مع محيطه المختار، على الأقل بشكل سطحي (مجرد قشرة جميلة بلا ثمار، كما تظن إزمي الآن)، فهمَ أمزجة ابنته المتقلبة أفضل بكثير من إزمي؛ فقد كان أقل قلقًا بشأن تقلباتها، واشترى لها أفضل المضارب السويسرية، كما طلب أنواعاً من عصي الهوكي الأكثر تطورًا من جنوب إفريقيا، الكثير من الميداليات والجوائز التي لم يَسمح بإعادة بيعها عندما تراجعَ شغف ابنته. اعتقد غيدو أنه حيث تُضرم النار، يبقى الرماد موجودًا، وأنَّها في أيّ لحظة يمكن أن تبدأ من جديد، لذلك فقد جُمعت كل تلك الأشياء في أكوام في غرفة التخزين، ضمن الشقة التي عاشت فيها ناتاليا وإزمي بعد الطلاق، جنبًا إلى جنب مع معدات الرسم القديمة التي أحضرها غيدو من باريس، والتي نجت من البيع حين تخلّص من معظم أدواته: المرسم، الرسومات غير المكتملة، ومجموعة من الفرش والمدى التي لم يعد يستخدمها، ولكنه لم يرغب في التخلّي عنها أيضًا.

بموجب قانونٍ غريب، رُبطت قيمة العملة المحلية بالدولار، مما جعل المنتجات الأجنبية في المتناول ويمكن الحصول

عليها بسهولة. أما تجارة غيدو في النسيج (أو ورشة العمل الصغيرة)، مثل الكثير من المشاريع الأخرى، فقد تعرّضت لمنافسة شديدة بسبب البضائع المستوردة، ولذلك فصلت عمالها القلائل، وركّزت على استيراد الملابس من الصين. بصفته رجل أعمال مكافح، أوضح غيدو لشريكه (الذي قضى وقته وحيدًا في منافسة العملاء والموردين والدعاوى بشأن الأضرار) مدى أهمية المشاركة في اجتماعات رابطة صناعة الملابس، واتحاد المنسوجات الصناعية. في الوقت الذي كان صديقه فيه يكافح من أجل الحفاظ على نشاطه التجاري، كان غيدو، الذي يرتدي ملابس رياضية من ماركة دولتشي آند غابانا، أو سروال جينز من كالفن كلاين، وقمصان من ماركة تومي هيلفيغر أو رالف لورين، يلعب كرة المضرب مع روّاد أعمال طموحين آخرين. أو، على الأقل هكذا شوهد، حسب أكثر وجهات النظر فظاعة، وهي عينا الزوجة السابقة اللتان لا ترحمان، بعد أن تمّت خيانتها.

أحياناً تصورت إزمي ابنتها بمثابة عالمة، من شأنها أن تُحدث ثورة في علم الوراثة (الله أعلم ما هو السبب، ولكن كان دائمًا علم الوراثة وليس أي مجال علمي آخر هو الذي يحضر في ذهنها). في مناسبات أخرى، أعادت قراءة أوراق مدرستها (حيث احتفظت بجميع دفاتر ملاحظات ناتي)، وتخيلتها بمثابة روائية موهوبة، يحترمها النقاد ويحتفي بها الجمهور. لقد تخيلتها قبطانًا لسفينة حربية، أو متسلقة جبال

تقهر قمم جبال الهيمالايا التي لم يتم تسلقها من قَبل (ولا حتى من قِبَل شعب الشيربا نفسه). ألم يكن من الممكن أن يصبح مصير إزميرالدا مختلفًا لو أنها وُلدت في عصرٍ آخر من تاريخ البلاد، أو من تاريخ العالم؟ لقد ظُلِم جيلها كثيرًا. عانوا من الدكتاتورية، ثمّ من المنفى، ومن ثمّ عانوا من كارثة اقتصادية تلو أخرى... ثمّ انتهت أوّل حكومة ديمقراطية بالفوضى وبمعاناة من التضخم المفرط. بعد ربيع قصير، ألقى الركود مرّة أخرى بثقله على البلاد.

عندما كانت إزمي وصديقاتها يتحدثن عن أطفالهن، وهو الموضوع الرئيسي لأحاديث النساء، وعلى الرغم من كل شيء قالت إزمي: «ما الذي نتمناه لأطفالنا؟ نريد لهم أسهل وأصعب شيء، وهو أن يكونوا سعداء!».

وأومأن جميعاً بالموافقة وتنهّدن، وهنّ يكرّرن نفس العبارة: هذا هو الشيء الوحيد الذي نريده لأطفالنا، أن يكونوا سعداء! بالطبع كنّ يكذبن.

يا لهم من أطفالٍ مساكين! هكذا فكّرت إزمي، هم أيضًا، عانوا شيئاً كهذا في أيامهم: لقد تحملوا أعباء أنانية الوالدين. أدركتْ أنها رأت ابنتها بعيون الأم -بعيون تختلف عن نظرتها إلى غيدو، ولكنها لا تقل قسوة عنها- بعيون لم تعتقد أنها ستمتلكها أبدا، عيون قاسية جدًا، ومتطلبة ومستعدة دائمًا للكشف عن أصغر تقصير أو نقص لدى ابنتها، فقط لكي

تحاول إخفاء ذلك النقص على الفور عن أعين العالم. أو العكس تمامًا. خلال الإعداد لحملةٍ إعلانية لسلسلة مطاعم برغر، حضرت إزمي عدّة اجتماعات تحفيزية، طُلب فيها من الأمهات وصف أطفالهن. اللافت للنظر، أنّ أوّل ما ظهر، كان نوعاً من المنافسة بين الأمهات لإثبات أيّ منهن لديها الأبناء أو البنات الأكثر تمردًا، أو الأصعب مراسًا، أو الأكثر عصيانًا أو إهمالًا أو عنفًا أو تعقيدا. كما لو كنّ بحاجة إلى أن يظهرن لبعضهن بعضاً وللعالم، الصعوبات الهائلة التي يتحمّلنها في مهمة الأمومة المرهقة والشاقة. تقول آلسيرا: إن التحدث عن الأطفال بالسوء، يشبه البصق في الجنة. وربما في جيل آلسيرا، في زمن آلسيرا، وهو عصر النفاق بامتياز، عندما كانت آراء الآخرين جادة، وغير قابلة للتغيير ولاعنة، اقتصرت الأمهات على مدح أطفالهن. بينما الآن، فالأمر يتطلب تدخل معالج نفسي جماعي، وطرح أسئلة محددة لاستخلاص شيء إيجابي من هؤلاء النساء، لاستخلاص بعض الصفات الجيدة والجديرة بالثناء في الأطفال الفظيعين. والذين كانوا عبئًا ثقيلًا على الأهل من جهة، وسببًا في شعورهم بالذنب.

لقد تغيّر الإعلان أيضًا في السنوات القليلة الماضية بشكل كبير. أدركت إزمي، التي طالما كانت لديها نزعة ساخرة، أنّه الآن فقط، أصبح من الممكن تسجيل بعض الإعلانات التجارية التي كانت قد اقترحتها منذ السبعينيات. الآن، بدأت الفكاهة تسيطر على الشاشة، وأحيانًا روح الدعابة الشاذة. على

أنّه ما يزال من المستحيل إنتاج تلك السلسلة التي تخيّلتها ذات مرّة من أجل مادة لاصقة لأطقم الأسنان: حيث يقف الرقيب باكستر بأسنانه الاصطناعية، مسمرًا في فتيل قنبلة يدوية، ويتأرجح طرزان من شجرة إلى شجرة، والسكين بين أسنانه، ثم يمسك السكين في قبضته وطقم الأسنان ملتصق بنصل السكين. عندما يتعلق الأمر بالمنتجات الخاصة بالتنظيف، ومستحضرات التجميل، وأغذية الأطفال، والسيارات، والحفاضات، فإنَّ مثل هذه الفكاهة الخام تبقى غير مقبولة، لكنها تنتشر بشكل كبير في عالم المنتجات الأخرى المُعلَن عنها. على أي حال، إزمي سعيدة الآن جدًا لكونها مديرة مبدعة، مع سلطة استيعاب إبداعات فرقها الشابة، واستخدامها وبيعها على أنها إبداعاتها الخاصّة. كانت هناك إعلانات حديثة لم تكن تفهمها، كونها تحمل أفكارًا بدت لها غريبة. كان من الصعب عليها التعود على فقدان بعض القواعد التي بدت ثابتة وأبدية، مثل الحاجة إلى تكرار اسم المنتج مرّاتٍ عديدة، بينما في هذه الأيام قد لا يتمّ ذكر اسم المنتج على الإطلاق. عملتْ في وكالة أصغر، حيث تحصل على دخل أقلّ ممّا كانت تحصل عليه قبل سنوات قليلة، وهي تعلم أن أيّامها في العمل في مجال الإعلانات معدودة.

عندما كانت ناتاليا في السنة الثالثة من المدرسة الثانوية، كانت ما تزال الهواتف المحمولة ترفًا محدودًا، لكنها امتلكت هاتفًا. كانت سنوات التسعينيات تقترب من نهايتها، بدأت جميع

الأحلام والتخيّلات التي استثمرها غيدو في عمله، بالإضافة إلى العمل والالتزام الذي ساهم به شريكه، تتلاشى في الهواء. ومع ذلك، كان لديه ما يكفي من المال ليهدي ابنته هاتفًا في عيد الميلاد. بشرط أن تتكفل إزميرالدا بدفع الخدمة الشهرية. تضاءل دخل إزمي، ولم يكن الأمر مجرد مسألة عمر. مع ركود اقتصاد البلاد، كانت سوق صناعة الإعلانات هي أوّل ما تراجع. صار يتمّ تصوير الإعلانات التجارية بميزانيات منخفضة، ويتمّ نشر عدد أقل من الإعلانات المطبوعة، وكذلك انخفضت الرواتب. حتى مدّخرات آلسيرا من العملات الأجنبية، التي بدت أبدية، قد انخفضت قيمتها بسبب الانخفاض الشديد لقيمة البيزو الأرجنتيني، وبدأت جدّة ناتاليا تشعر بالقلق.

استقبلت إزمي صوت ناتاليا عبر الهاتف المحمول:

«ماما، لديّ مشكلة. عليكِ الذهاب إلى المدرسة غدًا. أنتِ وبابا. سأشرح لك الأمر في وقت لاحق».

في تلك الليلة، بدت ناتاليا منزعجة ومنشغلة. حيث كانت عادة تبدي سلوكًا مرحًا، على الرغم من حقيقة أنها ترتدي ظلال المراهقة المظلمة، خاصة الأسود والرمادي. في أعوام الستينيات، في مدرسة إزمي الثانوية، كان ارتداء الزيّ الموحّد إجباريًا، وأكثر شيء كرهته هي وزميلاتها هي تلك التنانير الرمادية ذات الثنيات، والقمصان الزرقاء الفاتحة، والسترات الزرقاء المتباينة، التي اضطررن لارتدائها كلّ يوم. في أحد تلك

الأيام الماضية، اتفقت جميع الفتيات في صفّها على ارتداء سترات حمراء، في تحدٍ صارخ وجريء للقواعد التنظيمية للمدرسة. الآن، حيث لم يعد هناك أيّ مدارس تطالب بارتداء زيّ موحد، ولا حتى الملابس البيضاء التي كانت خاصّة بالمدارس الثانوية الحكومية. تبدو حشود الأطفال المتجمّعة حول المدارس الثانوية، ومن مسافة بعيدة، وكأنها سحابة عاصفة، وعند النظر عن قرب إلى حشد من الفتيان والفتيات، تجدهم جميعًا يرتدون ملابس متطابقة، إنهم يرتدون، طواعية، زيًا موحدًا، هو عبارة عن سراويل جينز أو سراويل قطنية، وبلوزات داكنة (ألوان قاتمة دائمًا)، وأحذية رياضية (أحذية رياضية دائمًا)، ويجلسون بفضول على الرصيف لأنه لم يعد من الضروري ارتداء ملابس أنيقة أو حتى نظيفة، فملابسهم لا تتطلب عناية خاصة على الإطلاق. كان الفتيان يرتدون الألوان الفاقعة للحفلات، ولكن بشكل عام، أصبحت الألوان الزاهية والدافئة والمكثفة والمبهجة، والأحمر والأصفر والفيروزي والبرتقالي، علامة على مرحلة البلوغ المتأخرة. متماثلة وبشكل مثير للشفقة مع السيدات المسنات المبهرجات.

كانت ناتي المبتهجة، المستعدة دائمًا لمشاركة تفاصيل يومها في المدرسة، والمسلية على نحوٍ خاصّ عندما تتحدث عن ريتا، صديقتها المقرّبة، وعن انتقاداتها المضحكة واللاذعة بشكل دائم، كانت قد استُبدِلَت في ذلك المساء بفتاة بدت أكبر سنًا، منشغلة ذهنيًا بذاتها، وتنظر إلى طبقها من وجبة باستيل

دي باباس في صحنها نظرةَ منْ يكره حبّات الزبيب كما لو أنّها مستعدّة لانتقائها وانتزاعها من الوجبة. وهذا هو بالضبط ما بدأت تفعله.

«لكن يا ناتاليا، لقد أحببته دائمًا».

قالت ناتاليا بحزن: «لم أعد كذلك. إنها تشبه الذباب».

«لماذا علينا الذهاب إلى المدرسة غدًا؟».

«للتحدث إلى المدير. من الهامّ جداً أن تذهبا. في الساعة الحادية عشرة. أعاني من صداعٍ يا ماما».

وكان من المستحيل الحصول منها على المزيد من المعلومات.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وفي مكالمة هاتفية، أكّدت لها أمينة سرّ المدرسة، ما قالته ناتاليا. ولكن في الساعة الحادية عشرة، كان من المتوقّع أن تقدم إزميرالدا حملة إعلانية لمضاد تعرق جديد تم الترويج له على أنه مانع تعرق ذكوري، بهدف بيعه للنساء، وهي مفارقة غريبة وحديثة، ولكن ليست بالسخيفة، وهذا ما أكّده الواقع العملي من خلال استطلاعات التسويق. حاول غيدو التنصّل من المهمّة، لكنّه وافق أخيراً على تولي زمام الأمور.

أنهت إزمي التزامها في العمل، بما في ذلك الغداء مع العميل، وكانت في طريقها إلى المنزل عندما تلقت مكالمة.

قال غيدو: «أنا قادم. أريدك أن تفتّشي غرفة ناتاليا».

«وعن ماذا أبحث؟».

«لا أدري، لا أعرف. أي شيء يفاجئك بأنّه غير عادي».

«هل من المفترض أن أفتّش الغرفة في غيابها؟ وهل من المفترض أن أكون مسؤولة عن أسوأ وأخطر تصرفاتها البلهاء كالعادة؟ أنا من يجب أن أواجهها، وأضع حدًا لها، وأقوم بتأديبها. وأنت الرجل الطيب الذي يفسدها ويقدم لها الهدايا في عطلات نهاية الأسبوع؟».

تنهّد غيدو، قائلًا: «حسنًا، سنفعل ذلك معًا»، أضاف، ولديه سبب وجيه للشعور بالضجر وعدم الرغبة في الجدال: «سأكون هناك خلال خمس عشرة دقيقة».

لم تضطرّ إلى البحث طويلا. في الجزء الخلفي من الخزانة، كان قد تم إخفاؤه في صندوق أحذية. وُجد كيسٌ بلاستيكي صغير شفاف، بدون ملصق، يحتوي على حوالي خمسين جرامًا من مسحوقٍ أبيض.

انفجرت إزمي بالبكاء. مرتجفة، ولأوّل مرّة منذ سنوات، سمحت أن يحتضنها غيدو، الذي كان يتنفس بصعوبة، ويكاد يلهث.

أخبرها غيدو بكلّ شيء عن الاجتماع المؤلم مع بيبي رونغستوكينغ (بيبي ذات الجوارب غير المتطابقة)، الاسم

الذي أطلقه الأطفال على مديرة المدرسة، في إشارة إلى الشيء الوحيد المساير للموضة المسموح به داخل خزانة ملابسها الأنيقة، ولكن الكلاسيكية: مجموعتها الواسعة من الجوارب، وهي مجموعة متنوعة على شكل شبكة صيد السمك، مزينة بحجر الراين.

أعربت رونغستوكينغ عن أسفها لأن والدة ناتاليا لم تحضر. كان معها مدرسٌ قدّم نفسه باسم لوكاس. بعد العديد من البدايات الخاطئة، مثل شخص يحاول التقدم نحو هدفٍ، بينما يريد في نفس الوقت تجنبه، تحدثت المعلمة عن ناتاليا بارتباك وتناقض، لكنها لم تقل شيئًا جديدًا، ولا شيءَ لم يقله الكثيرون من قبل: تحدّثت عن جمالها، ولطفها، وعن تأثيرها على زملائها في الفصل... ولكن بعد ذلك، مال الخطاب نحو المنطقة المقلقة، المنطقة التي أرادت، ولم ترد الوصول إليها، فقد تحدثت عن أطفال هذه الأيام، وعن المراهقة، وعن فترة التسعينيات، وعن الافتقار إلى القيم، والمسؤولية التي يتحمّلها الكبار؛ وسألت عمّا إذا كانا قد لاحظا تغيرات في سلوك ناتاليا؛ وحامت حول الموضوع، حتى سألها غيدو، فجأة وبشكل مباشر، عمّا إذا كانت تشير إلى المخدرات، وإذا كان هذا هو ما تقصده، أو ما الذي تريد أن تقوله، وهل تريد أن تخبره بأن ابنته مدمنة على المخدرات، مدمنة على عقار معين، أم على عدة أصناف، أم كلّها، على أيّ نوع منها بالضبط؟ نظرت المديرة إلى لوكاس، الشاب نسبيًا، وقد بادلها نظرة قلق، كما

لو كان يريد المضي قدمًا. لم يستطع غيدو إلا أن يتساءل: ما هي الإخفاقات والمصائب، وما أنواع الإدمان التي يمكن أن تجعل شابًا مثل لوكاس، والذي تجاوز الثلاثين عامًا من عمره، وتعطي ثقافته انطباعا بأنه تلقى تعليمًا عاليًا، وأنّه من أسرة من الطبقة الوسطى، كيف له أن يقبل بوظيفة -بائسة وبراتب بائس- في هذه المرحلة من حياته.

باختصار، ما قاله غيدو لإزمي هو أنّه في الاجتماع مع المديرة، لم يتهموا ناتاليا بأنّها مدمنة مخدرات، بل متّهمة بالإتجار بالمخدرات، وذلك باعتمادها نظام تعاملات ليس لها فيه دور شخصي مباشر، لكنها بدلاً من ذلك، عملت كرأسمالية صغيرة بتشغيل أطفال آخرين لصالحها. أحد هؤلاء الأطفال تمّت الوشاية به من قبل زملائه في الفصل، وقد ثبت أنَّ معه شيئًا لا يجوز أن يحمله (لم تحدد المديرة ولا لوكاس ذلك الشيء بالضبط). اتّهم الصبي، بدوره، ناتاليا بأنها العقل المدبّر لشبكة تهريب متواضعة في المدرسة، حيث كان يتعاون معها بالضد من إرادته، أو على الأقل بالضد من مبادئه، بدافعٍ، وبطريقة ما، بدا له أنّه الحبّ.

عرف غيدو على الفور من هو الصبي الذي كانوا يشيرون إليه، كذلك عرفته إزمي عندما سمعت القصة. غالباً ما تحدثت ناتاليا إليهم عن لوتارو، الولد البليد، واللطيف، والمملّ، الذي لاحقها بلا هوادة وبلا أمل.

قالت إزمي: «لقد أراد الانتقام».

قال لها غيدو واثقًا: «هذا ما قلته لهم، لكنهم لم يرغبوا في الاستماع إليّ. لوتارو طالب ممتاز. أنتِ تعرفين كيف يكون المعلمون: إذا حصل الطفل على درجات جيدة ولم يسبب مشاكل، فإنهم يصنعون له تمثالًا. لا يدركون أن أولئك الأطفال يمكن أن يكونوا الأسوأ في بعض الأحيان، أولئك الذين يظهرون يومًا ما في صالة الألعاب الرياضية وبيدهم سلاح رشاش».

وأضاف غيدو أن الاجتماع استمر، في الواقع، كما لو أنهم لم يسمعوا كلمة مما قال.

أوضحت مديرة المدرسة: «ليس من الضروري إثارة فضيحة تشهير بابنتك. نقترح أن تترك ناتاليا المدرسة بتكتم، بخلق بعض الأعذار، ربما بحجة سفر العائلة، عليك أنت أن تقرّر. وإلا سيتمّ طردها بسبب سلوكها غير المقبول. سيكون عليها اجتياز جميع فصولها الدراسية من أجل العودة إلى المدرسة، ونأمل ألا تحاول».

بطبيعة الحال، لم يكن هناك أي مسوِّغ لطردها؛ يمكنهم الاطمئنان بهذا الصدد، قالت ذلك في تقدير خاطئ. كما لا يوجد خطر من الطرد سوى أنه قد يعقّد تسجيل ناتاليا في مدرسة أخرى؛ وبأي حال من الأحوال إنهم لا يريدون تعقيد المستقبل -بلا شك لديها مستقبل جيد وواعد- لإحدى طلبتهم بسبب

زلة، أو حماقة مراهقة، وهو وضع يمكن بالتأكيد إصلاحه بتدخل والديها. لكنهم، في الواقع، لم يرغبوا في الاحتفاظ بها في الوقت الحاضر، لا في المدرسة، ولا بين طلابهم.

كرهت إزمي نفسها لأنها غابت عن ذلك الاجتماع، وتركت لغيدو مسؤولية تلك المحادثة التي لم يعرف إدارتها بشكل صحيح. لو كانت حاضرة لتصرفت بشكل أفضل بكثير؛ كانت ستقنع رونغستوكينغ بأن ناتاليا مظلومة، وأن منْ يدعي عليها هو صبي ليس لديه ما يخسره بالتخلّص من التهمة من خلال إلقائها على شخص آخر. لماذا لم تكن في ذلك الاجتماع مع الآخرين، لماذا لم تكن حاضرة في العديد من اللحظات الأخرى من حياة ابنتها. حياةٌ أصبحت الآن معرّضة لخطر الضياع إلى الأبد، والتفكك إلى ملايين الأجزاء الصغيرة، مثل ذلك المسحوق الأبيض اللعين.

بدون قول شيء، وحتى دون النظر إلى بعضهما بعضا، ممسكين بأيادي بعضهما، وفي ذات الوقت، اتّهم كل منهما الآخر بتحمل مسؤولية ما جرى لناتاليا المسكينة. تذكرا تجاربهما الأولى مع الماريجوانا، والتي لا يزال كلاهما يدخناها من حين إلى آخر. لم يكن بوسع إزمي سوى التفكير (كما أخبرت غيدو لأول مرّة) في موزّع المسحوق الأبيض الذي كان يقف بجانب الوكالة بشكل منتظم وإن كان بتكرارٍ أقل، مثل بائعي تلك الكتب الفنية التي تم استبدالها الآن بالأنترنت. حتى إنَّ إزمي جرّبته، ولكن مرّة واحدة فقط (ولم

تخبر غيدو بذلك لأنها لم تكن تريد سماع اتهاماته، أو تعليقاته الساخرة)؛ لقد استنشقت البودرة البيضاء، التي لم ينتج عنها أي تأثير سوى نوع من الصفاء الذهني، كما لو أنّ شخصاً ما أشعل ضوءًا في عقلها فجأة، والذي كان حقًا في الظل (لكنها لم تكن تعرف ذلك حتى تلك اللحظة) .

كلاهما كان يعرف أنَّ الناس يتعاطون المخدرات، واعتبرا أنّ الأجيال الجديدة، ليس فقط المراهقين، ولكن الناس بشكل عام، ربما ليس كلّهم ، ولكن بالتأكيد العديد من الأشخاص الذين كانوا أصغر منهما بعشر أو بخمس عشرة سنة، استخدموا المخدرات من أجل العمل أو الترفيه دون أن يكونوا مدمنين بالضرورة، لكن هذا التقبّل أصبح عديم الفائدة، أصبح كذبة، عندما تعلّق الأمر بابنتهما ناتاليا. مع هذا اللغز، أصبحت ناتاليا مهددة بالخطر، حسب اعتقاد إزمي، دائمًا على حافة هاوية الجحيم، ربما هي في الجحيم الآن. كان غيدو قد بدأ بالغضب والانزعاج.

«كما هي الحال دائمًا»، صرخ في إزمي. «أنت مجنونة! رأسك يعمل دائمًا بنفس الطريقة، تمامًا كما كنتِ تظنين أن ناتي ستسقط من النافذة وأردتِ إبقاءنا في الظلام مع إسدال الستائر، مثل مجنونة! لا توجد أي مشكلة لدى ناتاليا. ليس هذا ما قالوه لي حتى. لا مشكلة فيها على الإطلاق!».

ثم وصلت ناتاليا.

في البداية، تفاجأت: كان من الغريب جدًا، ومن غير المعتاد أن يكون والدها في المنزل حيث تعيش مع والدتها. لكن مجرد نظرة واحدة إلى عيني إزمي الحمراوين، وفي ملامح غيدو الخارجة عن السيطرة، كان كافيًا لتفهم.

«مجلس الحرب... تحدثتَ إلى رونغستوكينغ. ماذا قالت لكَ تلك الساحرة؟ هل اختلقتْ شيئًا لتأخذ منك المزيد من المال؟ هل تحتاج إلى جوارب جديدة؟».

«لقد تحدثتُ معها». كان الكيس الرهيب الذي يحوي المسحوق الأبيض فوق الطاولة. «ما هذا؟».

«لقد فتشتَ غرفتي!»، صرختْ ناتاليا. كادت الدموع تنهمر، ولكنّها لم تتساقط تمامًا، متشبثة بسطح عينيها، مما جعل عينيها العسليتين أكثر جمالًا. «لم أظن أبداً أنكما ستفعلان ذلك. كنتما من أولئك الآباء... أنتما من علّمتماني ذلك...».

«ما هذا يا ناتاليا؟» سأل غيدو بحدّة، محاولًا الالتفاف على المسوِّغات التي كانت إزمي تحاول تقديمها.

«جرّبه. جرّباه كلاكما».

صاح غيدو: «أنت مجنونة!».

كانت إزمي ترتجف، وتصطكّ أسنانها.

لعقت ناتاليا إصبعاً لترطيبها، ثمّ مرّرتها عبر المسحوق

الأبيض ودسّتها في فمها مرّة أخرى. تفاجأ غيدو وازمي، وفعلا الشيء نفسه.

قال غيدو: «إنّه حلو المذاق...».

قالت إزمي: «إنّه... إنّه... إنّه سكر ناعم!»، وأخذت تبكي مرّة أخرى.

«أردنا أنا وريتا أن نخدع لوكاس الغبي... هل قابلتَ لوكاس اليوم يا بابا؟ إنه دائمًا ما يحشر أنفه في شؤوننا، باحثًا عمّا هو غير موجود! كان يجب أن أبلغ عنه... من أجل... ليس له الحق، أليس كذلك؟ أنت عمليًا محامٍ يا بابا. أليس لديَّ أي نوعٍ من الحماية القانونية؟».

ولكن على الرغم من ارتياحهما الكبير، لم يستطع غيدو وإزمي التنفس بسهولة بعد: لقد كان مجرد ارتياح جزئي، ولم يعالج سوى ما اكتشفاه في غرفة ابنتهما، وليس الاجتماع في مكتب رونغستوكينغ، الذي يرتبط محتواه الآن بناتاليا. كان الأب يحاولُ ألا يضفي نبرة اتهامية على صوته، في انتظار، أو على أمل، دفاعها عن نفسها. متوهمًا أنه مثلما ذاب الكوكايين المزعوم في الكيس واختفى من مخيلته أيضًا، سوف تُمحى أيضاً تلك الاتّهامات (الباطلة بالتأكيد) بحق ابنته.

فوجئت ناتاليا قليلًا. لقد بحثت أكثر قليلًا، وعضّت شفتها السفلى، ونظرت إلى السقف، كما لو أنّها تطلب المساعدة من السماء للتعامل مع غباء وعدم فهم وجنون عالم الكبار.

قالت: «لوتارو، بالطبع. كان لوتارو، ذلك الكذاب، تلك الدودة البائسة. وأنت تصدقه أكثر مني؟ هل تصدق أي شخص يتهمني بأي شيء أكثر مما تصدقني؟».

لا، بالطبع لا: لم يصدق والداها أحدًا أكثر مما صدّقاها؛ لقد صدّقا ناتاليا، ابنتهما أكثر من أي شخص آخر. صدقا كلماتها، وعينيها.

ثم طرحت إزمي السؤال الوحيد الذي دفعها إلى الجنون حقا:

«لكنكِ يا ناتي... أنتِ... انظري في عيني مباشرة، وأخبريني الحقيقة... أنتِ...».

«سأقول لك الحقيقة يا ماما. أنت تعلمين أنه يمكنك الوثوق بي». نظرت ناتاليا إليها بعينيها البريئتين، والصادقتين، وثبتت نظرها عليها: «أنا لا أقول أنني لم أدخّن الحشيش قط. من المحتمل أنكِ فعلتها أيضًا. لكن الكوكايين لا يثير اهتمامي. هذا الشيء لا يخصني. ليس لدي أيّ علاقة بذلك. وإلى جانب ذلك، أعرف من يبيعه في المدرسة، لكنني لن أقول لأنني لست واشية. رونغستوكينغ تصدق الأكاذيب».

قال غيدو: «حسنًا، إذا أصروا على طردكِ، فسنقدّم استئنافًا قانونيًا».

«لا أعرف يا بابا. هل تظن أن هذه فكرة جيدة؟»، سألت

ناتاليا وهي تشغل مقعدًا، وقد باتت جاهزة الآن لإجراء محادثة منطقية حول وضع قد تغير تمامًا. «هل يجب أن أبقى في مكان يشتبه فيه الناس بي، ولا يريدونني فيه؟».

نظرت إزمي إليهما مستاءة دون إبداء رأي.

«نعم، بالطبع عليك البقاء!»، صاح غيدو بصوت قاطع لا يقبل بأي نقاش. «إذا غادرتِ الآن فهذا سيثبت أنّك مذنبة».

قالت ناتاليا، وهي تفكر في الأمر للحظة: «أنت على حق، بابيتو. سنقاتل معًا!».

لكن الشكوى القانونية لم تكن ضرورية. التهديد وحده كافٍ. لا تريد المدرسة الخاصة الفضائح، خاصة إذا كانت متعلقة بالمخدرات. حتى لا تفقد مكانتها، تحدثت رونغستوكينغ عن سياستها القائمة على الثقة والفرصة الثانية، وإذ لم تسحب الاتهام تمامًا، ذكرت إمكانية حدوث خطأ، معلنة ذلك، خاصة في لقاء خاص مع ناتاليا التي لم يكن والداها حاضرين فيه، وأنه لن تكون هناك فرصة ثانية، وأنّها مستعدة (رغم أن ناتاليا لم تصدّقها) لرفع الشكوى إلى الشرطة.

الشخص الذي ترك المدرسة وسط كتمانٍ هو لوتارو.

يوميات ١٨

دون كتابة كلمة واحدة، جرّبتُ ذهنيًا العديد من الطرق للتعامل مع مشهد التحدث مع المديرة. لم أرغب في تكرار نفس العملية طوال الرواية: شخص ليس فردًا من العائلة يناقش سلوك ناتي مع والديها. ومع ذلك، سيستمر هذا في الحدوث لأنه جزء من موضوع الرواية. من الداخل ومن الخارج، بعيون مفتوحة ومغمضة. وبالنظر إلى المعلومات الدقيقة التي كان على المديرة نقلها، كان من الممكن للحوار المباشر أن يتحوّل إلى حوار طويل ومعقّد لا يطاق، ويصعب إدارته. لا أحب استخدام لغة متكلّفة في الحوارات، لكنني لا أريد أيضاً استخدام كلمات ومصطلحات رائجة. من خلال تقرير غيدو غير المباشر، وجدت طريقة لتجنب بعض العثرات، فقط بعض العثرات (العثرات: الكتابة والتنقل بالطبع). يتم سرد القصة دائمًا من وجهة نظر إزمي، ولكن يا إلهي، فإنَّ غيدو هو والد الفتاة، وجزء أساسي من اللغز في حياتها.

أين وكيف أكتب هذا الكتاب؟: فقط في الصباح، وفي

الغرفة الخلفية التي كانت في يوم من الأيام تخص ابنتي الكبرى. أما بعد الظهيرة، لسبب غريب، يكون ذهني خاملًا. يمكنني كتابة ملاحظات للصحف أو المجلات أو الردّ على البريد، أو إجراء مقابلات، لكن لا يمكنني بأيّ حالٍ من الأحوال أن أكتب روايات خيالية: فهذا، فقط، لا يحدث.

لا أجلب معي إلى الغرفة الخلفية أي شيء يغريني (الغرفة التي أشير إليها في المقابلات بغرور على أنها «مكتبتي»)، لا شيء قد يشغلني عن هذه المهمة البطيئة، وغير الممتعة تمامًا، المسودة الأولى الشاقة، يسعدني استخدام أي عذر أو أي إلهاء لتجنب ذلك. ليست لدي هنا لعبة وينلاينز (ولا أريد تنزيلها من الإنترنت)، لعبة الكمبيوتر الوحيدة التي تُثير اهتمامي والتي أدمن عليها. في هذه الغرفة، أحتفظ بمكتبة الشعر الخاصة بي، وبمجموعتي من أدب أمريكا اللاتينية والأدب الشعبي (المجهول من التراث الشفوي)، لكنني لم أحضر أبدًا الكتاب الذي أقرؤه في الوقت الحالي. أثناء فترات الراحة -وهي ضرورية دائمًا- أقرأ الكتاب المقدس فقط. ببطء شديد ودائمًا في الصباح؛ أنا أتقدم بشكل جيد، متناسية تمامًا ما تركته ورائي، لأنّه هذا هو شكل القراءة بعد أن تبلغ الستين من العمر. يحدث غالبًا، عندما تكتب رواية، أن كل شيء تقرؤه، وكل ما يحدث من حولك، وكل شيء يخبره الناس للكتاب، بطريقة أو بأخرى، يتحوّل إلى مادة للكتاب قيد التنفيذ. في سفر يشوع (لا ينبغي الخلط بينه وبين سفر الجامعة)، ١٦، ١-٣، قرأت اليوم ما يلي:

لاَ تَشْتَهِ كَثْرَةَ أَوْلاَدٍ لاَ خَيْرَ فِيهِمْ، وَلاَ تَفْرَحْ بِالْبَنِينَ الْمُنَافِقِينَ، وَلاَ تُسَرَّ بِكَثْرَتِهِمْ، إِذَا لَمْ تَكُنْ فِيهِمْ مَخَافَةُ الرَّبِّ. لاَ تَثِقْ بِحَيَاتِهِمْ، وَتَلْتَفِتْ إِلَى مَكَانِهِمْ. وَلَدٌ وَاحِدٌ يَتَّقِي الرَّبَّ، خَيْرٌ مِنَ أَلْفِ مُنَافِقِينَ. وَالْمَوْتُ بِلاَ وَلَدٍ، خَيْرٌ مِنَ الأَوْلاَدِ الْمُنَافِقِينَ.

لكن هل ناتاليا حقاً ابنة سيئة؟ ابنة لا تخاف الله؟ كيف يمكننا أن نتأكّد من ذلك؟ إنها لا تزال صغيرة جداً.

مشروع السعادة

ليس هناك الكثير من الناس الذين يمكن أن تشاركهم إزمي حالة الرعب والارتباك التي تعيشها بسبب احتمال أن تكون ابنتها قد وقعت ضحية لشبكات تجارة الكوكايين. لم يكن هناك سوى عدد قليل من الصديقات المقربات والعزيزات اللائي لديهن أطفال في سنّ المراهقة. قالت ناتاليا: أنا لا أفعل أشياء كهذه، وقد ومضت تلك الكلمات الفظيعة في رأسها مثل لافتة مضاءة بومضات مصباح نيون (لكن اللافتات المضاءة بمصابيح النيون عفا عليها الزمن تقريبًا). هل حاولتْ فعل ذلك إذن؟ هل جرَّبته ورفضته؟ كان من المستحيل مناقشة هذا الأمر مع والدتها التي كانت بعيدة عن هذه القضية أكثر منها، والتي ليس لديها أيّ فكرة عما يدور حولها، كما أنها لا تعرف أو لا تصدق، أو لن تستطيع فهم هذا العدد الكبير من الناس المدمنين، الذين يتعاطون المخدرات عن طيب خاطر كطريقة للتعبير عن وجودهم في العالم، تمامًا مثلما كان الذين في سنّها، آلسيرا، قد استخدموا الأمفيتامينات من أجل الدراسة طوال الليل، أو لتجنب النعاس أثناء القيادة، أو لعدم الشعور

بالجوع، أو لقضاء يوم عملٍ بعد ليلة من دون نوم، ولكن ليس أبدًا للترفيه عن النفس، لأن هذا هو ملاذ البشرية القديم -نشوة الكحول (التي كانوا يشربونها باعتدال على أي حال). وإذا كانت إزمي قد ناقشت موضوع المخدرات مع والدتها من قبل، فقد كان يحدث هذا بشكل عام، كونه موضوعاً هامًا حاليًا، مثله مثل انعدام الأمن أو الصراع في الشرق الأوسط.

ربطت آلسيرا المخدرات بالعادات السيّئة الأخرى للمراهقة الحديثة.

قالت لإزمي: «يمكنك الارتياح بشأن ابنتك. فهي لم ترسم على جلدها أي وشم. ولا تعلق الحلق في أنفها أو فمها مثل الكثيرات من الفتيات اللواتي أراهنّ في الشوارع».

حاولت إزمي أن تشرح، قائلة: «هذا ليس له علاقة بالأمر يا ماما».

لكنها هي أيضًا تفاجأت، وقد أسعدها قرار ابنتها التميّز عن بقية جيلها. قالت ناتاليا إنّها لا تريد أن يدلّ عليها وَشْمها. تساءلت إزمي إن كان عدم وضع الوشم، بالنسبة لفتاة في مثل عمرها، هو وسيلة حتى يكون من السهل التعرّف إليها. لكنّها لم تقل ذلك لأنها كانت سعيدة لعدم وجود علامات تلوّث بشرة ناتاليا الجميلة والناعمة.

قالت آلسيرا: «المخدرات طريق ذو اتجاه واحد...

المخدرات قاتلة»، مكررة ما رأته في الإعلانات التلفزيونية حسنة النيّة، ولكن المخيبة للآمال، التي تركّز على الوقاية وتتجاهل إمكانية التعافي. إذا كانت حفيدات صديقاتها مصابات بهذا المرض، فإن الجَدّات لا يعرفن، أو لا يُخبرن عن ذلك.

ردّت إزمي قائلة: «عدد الناس الذين قتلوا نتيجة الصراع المسلح في هذا البلد كان أكثر بكثير من عدد من قضوا بسبب المخدرات. ولم يكن هناك رفض أو جدال حول ذلك».

ومع ذلك، على الرغم من أنّها كانت تعرف الكثير من الأشخاص الذين يتعاطون المخدرات بمحض إرادتهم، فقد رأت أيضًا كيف يخضعون لتأثير المخدرات. لقد رأت أصدقاء ومعارف وزملاء تراجعت شخصياتهم وانهارت، بسبب هذا المسحوق الجميل الرهيب، الذي ساعدهم على خلق أكثر الأفكار ذكاءً، أو ساعدهم على تحمّل ساعات طويلة من العمل الانفرادي، أو الاحتفال بصخب في الحفلات، أو القدرة على الإفراط في الشرب دون آثار جانبية. مع ذلك، يبدو أن المتعة لا تدوم طويلًا؛ وسرعان ما يصابون بجنون العظمة، ويصبحون عدوانيين واستطراديين في الكلام؛ ويتفرّع خيالهم باستمرار في اتجاهات مختلفة، وقادرين على متابعة جميع الطرق في نفس الوقت، ولا يستطيعون أبدًا تركيز انتباههم لأكثر من بضع ثوانٍ، غير قادرين على التوقّف عن الكلام، وخاصة، العودة

إلى الموضوع الذي يسيطر على عقولهم المحمومة. كانت أي حجة كافية للتذرّع بالمسحوق أو بلونه الأبيض، أو بأي شيء آخر قد تثيره كلمة «أبيض» أو كلمة «مسحوق» مثل: ثلج، ورقة بيضاء، خروف، فرشاة غبار، مما يجعلهم يضحكون طويلًا على تلك النكات المسلية، والتي كانت بالنسبة إلى الآخرين، غير المنتشين، مجرد ترهات غبية. بينما أولئك العباقرة، حكام العالم لمدّة عشر دقائق، وجدوها رائعة ومرحة. تُرى: هل هذا ما حصل مع ابنتها؟ هل كانت ناتاليا من هذا النوع، ناتي الطفلة الصغيرة جداً؟ مثل صديقة غيدو التي ما زالت تتّصل بها في بعض الأحيان، بصوتها المشوه كما لو كانت مصابة بنزلة برد غير قابل للشفاء بسبب ثقب في الحاجز الأنفي؟ سيلفر نوز، أحد الأسماء التقليدية للشيطان.

أما من جهة غيدو، فبمجرد استبعاد فكرة الاستئناف القانوني، انتهى الأمر، ولم تعدُّ المشكلة أكثر من هزّة من ثلاث درجات على مقياس ريختر، لم تؤثر على حياتهم تقريبًا: لم تؤدِّ إلى هدم مبانٍ ولا هدم الثقة. بمجرد انتهاء الأزمة الصغيرة، عادوا إلى أماكنهم المعتادة. لم يعد هناك شيء للحديث عنه.

تعرّفت إزمي على «مشروع السعادة» عن طريق إحدى صديقاتها، وهو عبارة عن برنامج إعادة تأهيل غير داخلي. أكدت لها صديقتها، دون تطفل واحترامًا لخصوصيتها، إنّه مُكْلف، ولكن لا بدّ من التحقّق من ذلك. لا داعي لإشراك أيّ شخص آخر في الأمر؛ كانت الخطوة الأولى هي حضور

بعض الاجتماعات (المجانية) للآباء والتي من شأنها تعريفهم بنهج البرنامج، والاستماع إلى الآباء الآخرين الذين يعانون من مشاكل. لكن هل كانت إزمي أماً تعاني من أي مشاكل؟ التحقت ناتاليا بالمدرسة كالمعتاد، وقد استوفت الحد الأدنى من المتطلّبات للحفاظ على التحاقها بها، ولم تأخذ مواد أكثر من المعتاد، وكان لديها، كما هي الحال دائمًا، العديد من الأصدقاء. صحيح، منذ اعترافها بأنّها كانت تدخّن الحشيش من حين لآخر، ومع ردّ فعل والديها (أو بالأحرى عدم إبدائهما رد فعل، لأنهما لا يعدان الماريجوانا من المخدرات الخطيرة)، صارت ناتاليا تُدخّن على شرفة منزلها (التدخين في المنزل لا في الشارع، أكثر أمانًا من أن تكون تحت رحمة الشرطة). منذ ذلك الحين، كان من الصعب التحدّث معها. كانت تطلق ضحكات صغيرة غير لائقة بجفون نصف مغلقة وبحدقة عين متّسعة، مما دفع إزمي إلى أن تفقد صوابها. لكنها لم تنجح في إثارة غضب غيدو، الذي عد الأمر مجرد مغامرة أخرى من مغامرات سنّ المراهقة. تذكّرت إزمي سنوات مراهقتها، عندما كان الحصول على المخدرات أصعب بكثير من الآن، وكان على المرء أن يتعامل مع ما هو متاح (سيفي النحيل الذي تجرّع الأمفيتامينات، والآثار غير المتوقعة للبنزيدرين، الليلة التي فقد فيها هورسفيس بصره لبضع ساعات بعد تجربة كلوريد الإيثيل)، وقد طمأنتها لامبالاة غيدو، التي كانت في أحيان أخرى تقودها إلى الجنون. ظنت أحيانًا أنّها هي المسؤولة، وربما المسؤولة الوحيدة، عن عبور ناتاليا إلى حفرة المراهقة

والوصول إلى الجانب الآخر، حيّة وبصحة جيدة، وبدون عواقب دائمة.

كانت منظمة «مشروع السعادة» تشغل منزلًا في مرتفعات حي فيلا كريسبو، ويمكن الوصول إليه من خلال بوابة حديدية تنفتح على درج رخامي تقليدي قديم وبال بعض الشيء. عُقدت اجتماعات أولياء الأمور في القاعة الرئيسية. كانت أسعار المشروع باهظة. ربما هذا هو السبب في أنهم قدّموا للآباء المترددين ثلاث جلسات مجانية، حيث حاولت الإدارة إقناعهم بما يلي:

أ) إنّ أطفالهم بالفعل مدمنون على المخدرات.

ب) فقط مشروع السعادة يستطيع أن ينقذهم.

فوجئت إزمي عندما وجدت نفسها محاطة ببعض الأهالي المعروفين، أشخاص يعملون في التلفاز، أو في السياسة. لقد ظنّت أن هؤلاء الآباء المعروفين كان بإمكانهم المحافظة على مزيد من السرية، من خلال اللجوء إلى العلاجات الخاصة. لكن عندما بدأ الحديث، أدركت أن العديد من الحاضرين، المجهولين والمشاهير، قد مرّوا بالفعل بتجربة العلاج الخاص، ولجأ بعضهم أيضًا إلى العلاج في المستشفى، والآن جاؤوا إلى هنا، على أمل، وعلى استعداد للاقتناع بوجود فرصة جديدة على وشك أن تُتاح لهم ولأطفالهم.

كما هي الحال في مجموعات مدمني الكحول المجهولين،

عانت المرأتان اللتان أدارتا المجموعة، وهما طبيبة ومعالجة نفسية، من مواقف مماثلة مع أطفالهما؛ وتكلمتا بذكاء وحساسية، ولم تقدّما أيّ وعود. لقد عرضتا الحقيقة: إنّه فقط معدل ٢٠٪ من العلاج، أو الشفاء، أو التعافي، أو أي شيء تريدون تسميته.

قالت إحداهما: «إذا كان أي منكم قد دخّن الماريجوانا في سن المراهقة، فلينسَ ذلك. تلك التجربة لا علاقة لها بما يفعله أطفالك. تحتوي الماريجوانا اليوم على عنصر نشط هو رباعي هيدرو كانابينول وهو أكثر فعالية بثلاث مرّات مقارنةً بما كنتَ تتعاطاه في الماضي».

لكنَّ إزمي كانت تدخّن الماريجوانا ليس فقط في عمر المراهقة، عندما كانت الماكونيا (كما كانوا يسمونها، وقد جاءت من البرازيل) ما تزال نادرة جدًا ويصعب العثور عليها. ومثل العديد من الآباء والأمهات من جيلها، وعلى أنّها لم تكن تدخن كثيرًا، إلا أنّها لم تتخلّ عن الماريجوانا تمامًا إلا مؤخرًا، عندما تعرّضت إلى ارتفاع نبضها إلى ١٤٠، عدّة ساعات، وأدّت بها إلى الإصابة بنوبة هلع. صحيح أن التجربة كانت مختلفة تمامًا، خاصة أنّها كانت في ذلك الوقت، ابنة، أما الآن فهي أم. كانت إزمي تشكّ وتحسد الآخرين على قناعتهم، أولئك الذين لديهم قدر أقل من الإلمام والوضوح، والمزيد من روح القيادة، والمزيد من الحسم، أشخاص مثل والدتها التي تمكّنت من تقسيم العالم إلى أبيض وأسود. عندما بدأت

في الاستماع إلى الآباء الآخرين وهم يروون تجاربهم، بدلًا من ترتيب الأفكار بشكل دقيق أصبح الوضع أكثر تعقيدًا.

أمٌّ شابةٌ، مطلّقة تبدو أقلّ من الأربعين من عمرها، روت قصةً مرعبة: كيف أكّدت شكوكها في أن ابنها البالغ من العمر اثني عشر عامًا كان مدمنًا على الكوكايين. في أحد الأيام، طلبت منه المساعدة في تنظيف الطاولة، وردّ الصبي بلكمةٍ تركت أنفها داميًا. كان ابنها في مدرسة خاصة، مختلطة من المرحلتين الابتدائية والثانوية، حيث باعه زميله الأكبر منه سنًا، المخدّر.

أوضح منسقو المجموعة أن مشروع السعادة ليس سهلًا، وأنه يتطلب مستوىً عالٍ جدًا من الالتزام من جانب الآباء. لم يكن الأمر مجرد زيارات يومية إلى المستشفى، حيث كان عليهم إحضار أطفالهم، حتى ولو اضطروا إلى قسرهم، أو جرّهم بالقوة أو التهديد باستدعاء الشرطة إذا لزم الأمر. كما كان من الضروري والواجب فصل المدمن عن جميع العلاقات التي أدت به إلى هذا الوضع، حتى لو اضطروا إلى إخراجه من المدرسة، وسحب كل أمواله، ومنعه من الاتصال بأصدقائه القدامى، وتمزيق ملصقات الفرق الموسيقية التي تذكّره بأكثر جوانب الإدمان متعة، عن جدران غرفته. كان عليهم إبقاؤه تحت السيطرة، وإذا لزم الأمر، حبسه ليلًا ونهارًا، وحظر جميع الرحلات غير المصرّح بها. شرحت إحدى الأمهات كيف أنّها أقفلت على ابنها باب غرفته بمفتاح، وكيف هرب في نفس

الليلة من النافذة. كانت الخطوة التالية هي الصعود إلى النوافذ.

تحدث زوجان (الرجل ذو الغرة، يرتدي نظارات من طراز الستينيات والتي انتهت شهرتها منذ سنوات عديدة)، عن كيف ظنّا أنّهما قد تمكّنا من حماية ابنهما من الخطر. لم يكن الصبي يخرج لأكثر من نصف ساعة في اليوم لكي يرافق الكلب في نزهة. إلى أن أدركا يومًا ما أن الطريق الذي يأخذ الكلب إليه كان بالضبط هو المكان الذي يقوم فيه بعمليات شراء المخدّر. كانت هناك نقطة التقاء في ساحة قريبة من منزلهما، حيث يشتري الصبي المادة التي استمر في تعاطيها، على الرغم من إطاعته الظاهرية لهما.

من أكثر خطط مشروع السعادة صعوبة، والتي عدَّتها إزمي مستحيلة، هي ضرورة إزالة ملصقات الفرق الموسيقية المفضّلة لابنتها عن الجدران. تخيّلت نفسها تمشي في غرفة ناتاليا وتنتزع تلك الملصقات، التي يحدّق فيها رجالٌ ونساءٌ غير مألوفين بالنسبة لها، وتمزقها مثل مجنونة. (لم تكن إزمي قادرة على تمييز، أو التعرف على الفرق الموسيقية التي تستمع إليها ابنتها، والتي كانت تطلق عليها أحيانًا اسمًا خاطئًا «مجموعات موسيقية»)، بينما تحدّق فيها ناتاليا بعينين جاحظتين ومرتبكتين.

في الاجتماع الثاني، قدّم المنسقون أمًا وابنتها، عدّوهما إحدى نجاحات المشروع العظيمة. فوجئت إزمي بأن الابنة

كانت إحدى زميلات ناتاليا في مرحلة رياض الأطفال. وصفت الأم كيف ذهبت بعد ظهيرة أحد الأيام لاصطحاب ابنتها من النادي. وصلت قبل وقت قصير من موعد خروجها، وجدتها مع مجموعة من الأصدقاء يدخنون الماريجوانا. بدون تردد، أمسكتها من يدها، ودفعتها إلى السيارة، وفي اليوم التالي، بعد حبس الفتاة في غرفتها، سعت إلى العثور على معلومات حول منظمة مشروع السعادة. نظرت الابنة إلى والدتها بتقدير وحب، وتحدثتا عن تجربتهما. وكانتا تدخّنان سجائر التبغ باستمرار، مما أشعل الرغبة في التدخين لدى الآباء الآخرين، الذين ساهموا بدورهم في زيادة الدخان، حتى امتلأ المكان بضباب أبيض وأصبح الهواء غير صالح للتنفس.

اعترفَ أبٌ يائس، وهو يبكي، أنّه يشارك في البرنامج بمفرده، على أمل أن يتمكّنوا من مساعدته. كانت ابنته تعيش في الشارع، غارقة حتى عنقها في جنون الإدمان، ليس إدمان نوع واحد فقط من المخدرات، إنما تعاطي العديد من أصناف المخدرات في وقت واحد (وهو ما كان أكثر شيوعاً، كما اكتشفت إزمي)، وتمّ تجنيدها في الدعارة من قبل عصابة تعمل في الاتجار بالبشر.

كانت امرأة شابة ذات شعر أشقر مصبوغ، تبدو في الخامسة والثلاثين من عمرها، تنقر بقدمها على الأرض بشكل متناغم، في حالة من اضطراب حركي. فقط عندما بدأت تلك المرأة في الكلام، لاحظت إزمي الزوجين المسنين، اللذين

يرتديان ملابس محتشمة قديمة الطراز، ويجلسان بجانبها. في جوٍّ حيث كان الألم والذنب أكثر المشاعر المشتركة بين الحاضرين، برزت الكراهية في صوت المرأة. كانت هناك في محاولة لمساعدة زوجها، واشتكت بمرارة من عدم تفهّم أهل زوجها، لأن فرصة الخلاص الوحيدة هي بأيديهم، ومع ذلك فقد تخليا عنه وتركاه لتعاطي المخدرات. ثم بدأ حمواها المسنان في الكلام. قدما قضيتهما، مقاطعين بعضهما بعضا، مكسوري الخاطر، وبلهجة غاليسية غليظة.

قالا: «إنّه مصاب بذاك المرض، لكنه ابننا. ماذا نستطيع أن نفعل ؟ نحن نحبه بنفس المقدار!».

«لكنه نوع سيء من الحب! أنتما لا تتحكّمان بالمال الذي يحصل عليه. لا ينبغي أن يكون قادرًا على الحصول على المال مثلما ما يشاء! ألا تعلمان على ماذا ينفقه؟».

تساءَل المسنّان: «يا إلهي، وكيف يمكننا أن نتحكّم بنفقاته؟ إنّه هو المسؤول عن العمل!».

بدا عليهما الضعف، لم يفهما شيئًا، وحاولا صدّ موجة الغضب التي أطلقتها عليهما زوجة ابنهما. كانت تحاول إنقاذ شريكها، لكن إذا فشلت في ذلك، ستبتعد، كما ظنت إزمي. من ناحية أخرى، سيظل الوالدان متعلّقين بابنهما، سواء أكان مريضًا أم سليمًا، وحتى الموت.

بعد الاجتماعات الثلاثة التي انقضت في الاستماع إلى قصص مختلفة تمامًا عن قصصها، كانت إزمي مقتنعة بأن ناتاليا قد قالت الحقيقة. كانت تدخّن الماريجوانا من حين لآخر، لكن بالنسبة إلى الكوكايين، «لم يكن من أسلوب حياتها، أيًا كان يعنيه ذلك»، وكان مشروع السعادة يطالب بأكثر مما يمكن أن تقوم به إزمي، أو ما يجب أن تقوم به في ظل هذه الظروف.

يوميات ١٩

هل يصح أن نسرد الرواية في حلقات؟ ولكن حتى إن كانت الرواية منظّمة في حلقات (أم لا)، فإنها تحتوي على حبكة. ولكن الحياة ليست لها حبكة. لذا فإنني أستعين بواحد من أقدم المصادر وأكثرها شيوعًا وتكرارًا ، وهو نفس المسوّغ الذي يستخدم لتوضيح الحاجة إلى المذهب الطبيعي في الأدب، والسريالية، ومسرح العبث: إعادة اكتشاف الواقع.

الأدب، دائمًا، خدعة، لأن الكلمات يمكن أن تبدو حقيقية، لكنها لا يمكن أن تكون واقعًا موجودًا. لأنّ الحقيقة، هذا البناء الفضولي والغريب، ليست موجودة في السرد، ولكنّها قد تكون موجودة في الوقائع وفي الماضي الغامض والمراوغ، وربما غير الموجود. لهذا السبب طالما ادعى كلّ اتجاه أدبي أنه أكثر واقعية من مذهب ما يُعرف بالواقعية.

الرواية، للأسف، لا تقدّم الكثير من الخيارات في هذا الصدد، فهي تحتوي إما على حبكة أو رحلة. منذ ملحمة الأوديسة، كانت الرحلة هي أعظم حيلة لربط وتسلسل الأحداث. في

الرواية الشُطّارية أو البيكاريسكية، تنتقل الشخصية الرئيسية من سيد إلى آخر، كما هي الحال في روايتي «عشاق لوريتا»، حيث تنتقل بطلة الرواية من رجل إلى آخر. قصة الحياة هي رحلة عبر الزمن. إذا كنت أريدها أن تكون أكثر من مجرد سبّحة من الأحداث المرتبطة معًا بواسطة سلسلة، يجب أن أتأكد من نمو شخصياتي وتغييرها.

من أجل الحصول على معلومات حول مشروع السعادة، تحدثتُ إلى قريبتي (ب)، التي حضرت ذات مرّة أحد اجتماعات الآباء تلك، ولحسن الحظ لم تضطر إلى الذهاب إلى أبعد من ذلك. أقنعتْها قصص الآباء الآخرين أن وضع ابنها لم يكن بهذه الخطورة.

شعرتُ ببعض الحرج لدعوتها إلى تناول القهوة. قريبتي امرأة نهمة ومتطلبة كثيرًا، أعادت القهوة الأولى لأنها كانت باردة، والثانية لأنها كانت محترقة، وشربت الثالثة على مضض وهي تحكي لي قصتها.

من تجربتها مع مشروع السعادة، توصلتُ إلى استنتاج (ربما يكون خاطئًا أو لا ينطبق على جميع الحالات) أن إجبار الشخص على المشاركة في برنامج مستشفى العيادات الخارجية كان إجراءً ممتازًا وضروريًا في حالات الإدمان الشديد، ولكن يمكن أن يكون كذلك سلبيًا، أو حتى قد يسبّب ردّ فعل سلبي عند متعاطي المخدرات العرضيين أو الحالات

«الخفيفة». مرّت سنوات عديدة، وكان ابنها بخير، ولم تأسف على قرارها. لطالما تساءلت عما حدث لتلك الفتاة الصغيرة وأمها اللتين كانتا تدخّنان، بفخر شديد وبنهم، تبغًا مليئًا بالنيكوتين، هذا المخدّر القانوني المدمّر. قالت (ب)، أنه اليوم، بينما كانت منزعجة من قوانين منع التدخين في المقاهي، وممسكة بسيجارة مُطفأة بين أصابعها، لم يكن مسموحًا لها بالتدخين بهذه الطريقة في مكان مغلق.

غداءٌ مع صديق

كان ماركوس واضحًا حين قال: أريد أن أتحدث إليكِ بأمر هام. لم تترك لهجته مجالًا للتخيّلات، ومع ذلك فإن دعوة الغداء، أعطت إزميرالدا إحساسًا بالوخز. كان زميل غيدو السابق أيضًا الطبيب الخاص بالعائلة، وهو الذي كانوا يذهبون إليه عندما لا تكون لديهم ثقة مطلقة في التشخيص أو خدمة شركة التأمين الخاصة بهم. من ناحية أخرى، كان ماركوس رجلًا متزوجًا، وكانت إزمي تواعد عميلًا من وكالتها. لم يكونا زوجين رسميًا بعد، لكنها كانت تتوقع أن يصبحا زوجين. ولم يكن هناك سبب لهذا الوخز. ومع ذلك، علمت إزمي بعد التجربة، أنه عندما تتطلق امرأة شابة، فإن أوّل من يحاول فعل شيءٍ ما معها، هم أزواج صديقاتها، ثم أصدقاء زوجها. إذن، هناك سببٌ لهذا الوخز.

عرفت إزميرالدا جيدًا أن لوكريسيا، زوجة ماركوس، كانت غيورة جدًا، ليس من النساء الأخريات، ولكن من الوظيفة غير الصحية التي كرّس زوجها وقته وروحه من أجلها. لم يكن لدى

ماركوس جدول زمني محدّد ولا أيام إجازة. وازداد الوضع سوءًا خلال السنوات القليلة الماضية، بسبب ظهور الهواتف المحمولة، التي وجدها الكثيرون من الناس مزعجة، ولكن لم يعد أحد يعدّها بدعة بعد الآن. على أيّ حال، إذا كان الأمر يتعلق بمناقشة شيء هامّ، فلماذا يقابلها لتناول طعام الغداء بدلاً من دعوتها إلى مكتبه؟ بالطبع، كان هناك سببٌ لهذا الوخز.

لطالما كان اختيار الملابس المناسبة في الفترات الانتقالية بين فصول السنة يمثل مشكلة. لم ترغب بالفستان الرمادي ذي الأزرار الجلدية لأن فتحة العنق كانت منخفضة جدًا، ولم تكن تريد أن تشعر بأنّها مثيرة للسخرية في محادثة قد تتعلّق بمشاكل صحية. هل يمكن أن يكون غيدو مريضًا؟ فكرت لوهلة. هل يعاني من مرض خطير؟ وهل كانت الفكرة تؤلمها وتجعلها حزينة وتعذبها؟ هل أسعدتها الفكرة؟ هل كان الأمر يتعلق بصحة والدتها؟ تساءلت، وبردّ فعل جسدي مفاجئ، لكمت بقبضة يدها بطنها. ولكن لو كان الأمر يتعلّق بمناقشة الأمور الصحية، كان ماركوس سيحدد لها موعدًا في مكتبه. هل ستأتي لوكريسيا معه؟ ما كان واضحًا دائمًا في العشاء أصبح غامضًا في وقت الغداء. قال: أريد أن أتحدث معك، ولم يقل نريد التحدث معك.

عندما توفي والد إزمي، ورثت عنه مبلغًا صغيرًا لم تستطع استثماره. ماركوس هو أحد الأطباء القلائل ذوي الدخل المرتفع في الأرجنتين، شارك في بعض الاستثمارات العقارية،

ربما كوسيلة لتلافي الركود الاقتصادي الحالي. هل يمكن أن يكون هذا هو موضوع اللقاء مع ماركوس ولوكريسيا؟ كان الاجتماع في مطعم في بويرتو ماديرو، أحدث أحياء المدينة، والذي كان مزدهرًا، بينما كانت بقية أنحاء البلاد في تراجع. تمّ تجديد الأرصفة على الجانب الشرقي من الجسر بواجهات من الآجر. وتمّ بناء مطاعم جديدة، وبناء المكاتب فوقها. وأبعد من ذلك، على الجانب الآخر من الجسر، بدأت تظهر شوارع جديدة، وطرق، وساحات، وآثار، وحدائق، ونوافير. كان الحي الراقي يتطور لاستيعاب طبقة اجتماعية جديدة بدأت تنمو بوتيرة أبطأ، على الرغم من أنها تناسبت طردًا مع ازدياد البطالة والفقر.

قررت إزمي ارتداء البدلة الحمراء المخملية، والتي كانت رسمية إلى حد ما، ويمكن عدّها جريئة عند ارتدائها بدون قميص تحتها. بقلادتها الفضية المكسيكية وبعطرها الفرنسي، شعرت بالاستعداد للحديث عن الصفقات العقارية، أو أيّ شيء آخر. ربما كانت متأنقة بشكل مبالغ فيه لموعد في منتصف النهار.

لقد شعرت بأنها مستعدة لأي شيء، ولكن ليس للقاء زوجها السابق في المطعم وجهًا لوجه. خاطبت نفسها غاضبة: يا لها من مصادفة لعينة! استقبلته بابتسامة مصطنعة.

«ما الذي تفعله هنا؟ غداء عمل؟».

«سألتقي ماركوس. وأنت أيضًا؟».

هل دعا كلاهما؟ كم هذا سخيف. هل كان صديقهما المشترك يستمتع بأوهام العمل بمثابة وسيط، وبترتيب اجتماع حيث يمكنهما التفكير في الماضي، وإعادة التعرّف إلى نفسيهما، وعودة العلاقة بينهما؟ هذا غير ممكن. فقد كان ماركوس ذكيًا جدًا. الشيء الوحيد المشترك بين غيدو وإزميرالدا هو ناتاليا. بدأ تفكير إزمي يدور حول آخر فترات صمت ابنتها وتحفظها، وغيابها، وألغازها. كانت ناتي ملكها تمامًا، وهي الآن تنتمي إلى الواقع وإلى أصدقائها، إلى التاريخ، وإلى جيلها. كانت تعرف القليل عنها. عندما تخلّصت من جلد طفولتها، تركت والدتها أيضًا، وجسد والدتها. بالكاد تحملت معانقاتها، ومحت قبلاتها. لقد فقدت إزمي السحر المطلق في رسم الابتسامة. لم تعد شمس وقمر ابنتها. لم تكن أكثر من عقبة تحاول التسلل بين ناتي والعالم. هل يمكن أن تكون ناتاليا قد قامت باستشارة ماركوس دون إخبارها؟ هل يمكن أن تكون مريضة؟ هل يمكن أن تكون حاملًا؟ كان من غير المحتمل تقريباً معرفة كلّ شيء حول ناتاليا الآن. تركت إزمي حقيبتها على كرسي وهي تلهث من القلق عمليًا، وشعرت أن عضلاتها تتراخى وشجاعتها تتداعى. كلا. كان ليقابلهما في مكتبه. في مكتبه.

بمجرد عودتها من الحمام، لاحظت ملابس غيدو القذرة، وحلاقة ذقنه السيئة. أم أنه كان فقط يتبع تلك المعايير الجديدة

للأناقة الذكورية التي كان والداها يسميانها «شارب السجين؟» لقد أصبحت الأوقات صعبة، صعبة للغاية بالنسبة لرجال الأعمال الذين دخلوا عقد التسعينيات وفرصه العظيمة بفرح شديد. حتى المستوردون كانوا يشعرون بآثار الركود.

«هل لديكَ أي فكرة؟» سألته. كانا زوجين لفترة طويلة بما يكفي لفهم بعضهما بعضًا بكلمات قليلة.

قال غيدو: «كلا. لو كانت مشكلة صحية، لكان طلب مقابلتنا في مكتبه».

تشبثت إزمي مرّة أخرى بتلك الكلمات السحرية، التي كررتها بصمت مثل المانترا. في مكتبه، في مكتبه، في مكتبه.

وصل ماركوس بابتسامة، وصافحهما بابتسامة، ثم جلس مبتسمًا. كانت ابتسامته مصطنعة. على الرغم من حلاقته الخالية من العيوب، إلا أنّه بدا أسوأ بكثير من غيدو. كان شاحبًا ولديه أكياس تحت عينيه المحمرتين بسبب قلة نوم مزمنة على ما بدا.

«هل نطلب شيئًا؟ مقبلات للمشاركة؟».

قال غيدو: «نحن لا نطلب أي شيء. اشرح لنا أولًا سبب وجودنا هنا».

«لسنا في عجلةٍ من أمرنا؛ يمكننا أن نأكل أولًا».

قاطعته إزمي: «بالطبع هناك عجلة يا ماركوس. أنت طبيب الأسرة، ونحن قلقان».

قاطعهم نادلٌ شاب حسن المظهر، كان قد ربط شعره إلى الخلف على شكل ذيل حصان صغير. لم يمضِ وقتٌ طويل حين كان النُدل جميعًا رجالًا كبار السن أكفاء وإسبانًا، حسب ظن إزمي. حمل الصبي لوحًا أسودَ عليه أسماء أطباق لم تكن موجودة في القائمة، وبدأ في وصفها. أوقفه غيدو بوقاحة عند وصفه الباذنجان بزيت زيتون سان خوان البكر الممتاز والمعصور على البارد.

«نريد أن نرى القائمة الفعلية».

كان من دواعي السرور أن أشار النادل إلى الوجبة اليومية الخاصة في القائمة، وهي باهظة الثمن على أي حال. طلبوا المياه المعبأة في زجاجات، والمياه الغازية، وبمجرد أن تمكنوا من التخلص من النادل، عاد غيدو إلى الهجوم، دون الحاجة إلى الكلمات، فقط عيناه كانتا مثبّتتين على صديقه.

قال ماركوس: «أنا بحاجة إلى المساعدة. أنتما صديقاي يا رفاق. كلاكما. وليس لديّ أي شخص آخر ألجأ إليه».

خفّفت حقيقة أن ماركوس هو الذي كان يحتاج إلى مساعدة من توتر أعصابهما على الفور. شعرت إزمي بإحساس من الفخر يجتاحها. عدّها أحد زملائها في مدرسة غيدو أنها صديقة جيدة مثله، وهذا يعني كسب الأرض في معسكر العدو. كان ماركوس بمثابة غنائم الحرب.

قال غيدو غاضبًا: «حسنًا، قل ما لديك».

لقد أشار تعبير «ألجأ إلى» على الفور إلى موضوع متعلق بالأموال.

«لا أعلم من أين سأبدأ». نظر إليهم ماركوس كما لو كان محتارًا، كما لو أنه لم يكن الشخص الذي استدعاهما.

شجَّعه غيدو، قائلًا: «ابدأ من البداية. هل أنت بحاجة إلى المساعدة؟ حسنًا، ها نحن هنا، أصدقاؤك، في انتظار ما يمكن فعله. ما نوع المشاكل التي أوقعتَ نفسك فيها؟ هل لها علاقة بعمل بيع وشراء الشقق؟».

«البداية. هذا هو الجزء الأصعب. لا أعرف ما إذا كنت أستطيع. إنها ناتاليا. قبل ثلاثة أشهر جاءت لرؤيتي في مكتبي».

«هل هي مريضة؟» قالت إزمي وهي تدعك بيدها منديلها في كرة، وتضغط عليه بشدة وهي تتحدث بصوت هادئ.

«لا لا لا! إنّها... إنّها حامل».

استرخت يد إزمي. في نظرتها المريحة التي تبادلتها مع غيدو كانت تظهر شرارات من حبهما السابق. بطريقة ما، وفي لحظات عشوائية، كانا ما يزالان يحبان بعضهما بعضًا من خلال ابنتهما. حامل وهي في هذا السن الصغير. إنها ما تزال طفلة. إنه أمر خطير، لكنها ليست نهاية العالم. سيكون الإجهاض بالتأكيد الخطوة التالية. لقد مرّت هي نفسها بشيء مشابه حينما كانت في سنّ المراهقة، وقد ساعدها والداها. المسكينة ناتي،

الصغيرة المسكينة! لحسن الحظ كان لديها أمٌّ متفهّمة.

بشكل عام، كانت نبرة ماركوس هي نبرة سلطوية لا تقبل الجدل. يتحدث بطريقة حازمة وواضحة، ويقدم الشرح بطريقة تعليمية، كما لو أنه يتحدث دائمًا إلى مريض أو مجموعة من الزملاء أو أنه في صفّ جامعي. أما الآن، فكانت كلماته مشوشة ومرتبكة. خطابه محض ارتباك.

«هي... أنتما يا رفاق شخصان عاقلان. لا يمكنها إنجاب هذا الطفل! إنها مجنونة!».

«إنها مجنونة؟» كرر غيدو. «ما خطبك يا ماركوس؟ أنا ممتن لأنك أخبرتنا، ولكن هذا أمر يخصّنا نحن بصفتنا عائلة».

لم تستطع إزمي التقاط معنى كلمة «عائلة»، إنها غير متأكدة إن كانت منزعجة أم مسرورة.

قالت إزمي: «يا لها من طفلة مسكينة، لا بدّ أنها تحتاج إلى مساعدة. إنّها ما زالت لا تجد الجرأة للتحدث إلينا».

قال غيدو: «حسنًا، أتفق مع ماركوس. هي ليست كبيرة بما يكفي... هل تعرف من هو الأب؟ هل أخبرتك؟».

«هذا... هذا ما أردتُ التحدث إليكما عنه. ما حدث كان... هي... ناتاليا تطلب مني المال...».

أحضرَ النادل المشروبات والمقبلات. بدأ غيدو وإزمي المتسمران على كرسيهما، بدأا في فهم المسألة، رغم أنهما

تمنيا لو أنهما لم يفهما. لم يعد لأحد القوة للإمساك بشوكة.

قالت إزمي: «لا. لا. هذا مستحيل».

لكن يمكن. وهذا يفسر، على سبيل المثال، لماذا طلب منهما مقابلته في مكان عام وليس في مكتبه. لإجبارهما على السيطرة على نفسيهما.

«لستُ أنا. لا أعرف كيف أشرح لكما ذلك. أقسم بذلك... كانت... لم أستطع... لم أستطع المقاومة».

نظرَ إلى غيدو، متوسلًا إليه أن يتفهم، لكنَّ والد ناتاليا ردّ بنظرة جليدية، ما تزال تثير الشكّ.

«إنّها هي... لا أظنّ أنني كنتُ المبادر».

«أنتَ تلومها؟ أنتَ رجل بالغ وأبٌ وطبيب، وتحاول إلقاء اللوم على فتاة تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا؟».

«إنّها في السادسة عشرَ».

«لقد بلغت السادسة عشرَ من عمرها الأسبوع الماضي!».

«إنّه اغتصاب قانوني!».

«إنّه ليس اغتصابًا قانونيًا. بموجب القانون الأرجنتيني، اغتصاب الأطفال يكون دون سن الثالثة عشرة».

«لقد سعيتَ إلى ذلك، يا ابن العاهرة!».

«لم يكن لديَّ خيار آخر، غيدو، إزميرالدا. أنا بحاجة إلى مساعدة!».

«سأقتلك. سأقتلك».

«إنّها تطلب مني المال!».

قالت إزمي: «يمكنني أن أتخيّل. يا لها من طفلة مسكينة. تطلب المال لتدفع ثمن الإجهاض».

«الآن فهمتُ لماذا كان من الصعب عليكَ أن تثق بي هذه المرة».

«أنتما لا تفهمان أي شيء. إنّها تطلب مني الكثير من المال لكي لا تنجب الطفل. ولكي لا تخبر لوكريسيا. إنها تبتزّني!».

«أنت تستحق ذلك. كل ما تطلبهُ لا يكفي».

«من فضلك، من فضلك، ساعدني! لقد أعطيتُها بالفعل عشرة آلاف دولار! والآن تطلب خمسين ألفًا!».

هزّ ذكر المبلغ غيدو وإزميرالدا قليلًا. حتى في تلك اللحظة، عندما كان الدولار مايزال مرتبطًا بالبيزو الأرجنتيني، كان الرقم مذهلًا. انتهى الغداء. لم يشعر أيٌّ من الثلاثة بالرغبة في تناول الطعام. لم يكن هناك جدال عندما طلب ماركوس الفاتورة ودفعها.

غادر ثلاثتهم معًا. كانوا بالكاد قد داسوا على الرصيف

حينما التفّ غيدو، الذي كان متقدمًا قليلًا ، وفجأة وجّهَ قبضته المغلقة إلى وجه صديقه السابق بلكمة وحشية. لم يدافع ماركوس عن نفسه. ترنَّح قليلًا وسقط على مؤخرته وهو يفرك ذقنه وينظر إليهما بامتنان تقريبًا.

قال غيدو لإزمي في سيارة الأجرة التي تقلهم في وسط المدينة: «أنتِ السبب، إنه خطؤكِ. أنتِ التي تسخرين من كل شيء. لقد علّمتِها ألا تأخذ أي شيء على محمل الجد. وألا تكون لديها أيّ قيم!».

أجابت إزمي: «انظر مَن يتحدث!».

«لا تبدئي».

«أنا لا أبدأ لأنه ليس ضروريًا. أنت تعتقد بالفعل أنك تعرف كلّ شيء. ما أريد أن أقوله لك هو شيء آخر. إذا كنتَ تلومني، فذلك لأنّك تتهمها! لقد دافعتَ عنها أمام ماركوس، والآن أنت منْ تقول: إنَّها فتاة في الخامسة عشرَ من عمرها، وأنها هي المذنبة، وليست ضحية!».

«علينا التحدّث إلى ناتاليا. لكني بحاجة إلى أن أهدأ قليلًا لكي أفكّر. أنتِ امرأة... حدّثيها أنتِ».

هيأت إزمي نفسها لمحادثة عصيبة وصعبة ومزعجة. من امرأة إلى امرأة. كانت ستخبر ناتي عن تجربتها الخاصّة، لا سيما ما شعرت به عندما ذهبت والدتها معها إلى عيادة الإجهاض،

في سنوات الستينيات، وكيف كانت تمسك بيدها أثناء وضع قناع التخدير، وكيف شعرت بتيار من الحب، ولكن أيضاً بالكراهية تنتشر بين تلك الأيدي المتحدة بالقوة. كانت ابنتها ستخبرها بكل شيء، أو على الأقل، كلّ ما تستطيع إخبارها به؛ لن تحاول التخلّص منها في أي لحظة. سوف تتحدثان من القلب، وكلتاهما تبكيان، وينتهي بهما الحال باحتضان بعضهما بعضًا.

كانت ناتاليا مع صديقتها ريتا. لم يكن الوقت مناسبًا للتحدث معها. كانت حدقتا عينيها متسعتين وجفناها نصفُ مغلقين، مرتدية تلك الابتسامة الصغيرة الغامضة السخيفة، التي امتلكتها بفضل الماريجوانا. لكنَّ إزمي لم تستطع الانتظار. طلبت منها أن ترسل ريتا إلى المنزل. كان وجهها وإيماءاتها متوترة وقلقة بما يكفي لجعل ناتاليا تقبل دون احتجاج.

«صغيرتي، هل أنتِ حامل؟».

قالت ناتاليا متفاجئة: «مستحيل».

«أنت تعلمين أنه يمكنكِ أن تخبريني».

«بالطبع، ماميتا. لكن، أنا آسفة، لن يكون لديك أحفادٌ قريبًا. من أين لك بهذه الفكرة...؟ أوه، الآن عرفت! هل اتّصل بكِ ماركوس؟».

«لقد التقينا به وتحدثنا. كان والدكِ أيضًا موجودًا».

انفجرت ناتاليا ضاحكة. بل زأرت ضاحكة.

«كم هذا مقرف! أطلبَ منكما المساعدة؟».

«ولكن... ثم... أنتِ لستِ؟ ثم لماذا فعلتِ...؟».

عضَّت الفتاة شفتها السفلى وقلبت عينيها، وهي حركة نموذجية لجيلها، والتي تبالغ في الصبر اللازم للتعامل مع سذاجة الوالدين.

«ماما، ليس هناك أسهل من خداع الرجال. يظنون أنهم يحكمون العالم! أريتُه نتيجة اختبار حمل، لكنّها لم تكن لي!».

تلاشى كلّ شيء كانت قد أعدته إزمي لناتاليا في الهواء. كانت في حيرة من أمرها.

«إذن من أين لكِ هذا؟».

«اشتريتهُ. يمكنكِ الحصول عليه».

«هل صحيح أنّه أعطاكِ عشرة آلاف دولار؟ وأنّكِ طلبتِ منه خمسين ألفًا أخرى؟».

«لكنّه استحق ذلك يا ماما. ألا تظنين أنه استحق ذلك؟».

نعم، ظنت إزمي أن ماركوس يستحق ذلك. وأكثر.

«لن أخبركِ بما عليكِ القيام به يا ناتي. إذا كنتِ تظنين أنّك بحاجة إلى التحدث مع زوجة ماركوس، لو أردتِ، يمكننا أنا وبابا التحدث إليها...».

لوهلة تقبّلت إزمي نواياها الشريرة، وأن امرأة أخرى يجب أن تعاني ممّا مرت به هي.

«لكنني أظن... لا أعرف، أظن أنّه يجب عليكِ التوقف عن طلب المال منه. لأجلكِ أنتِ. لأجل كرامتكِ. ولأنها قد تكون لعبة خطرة...».

«أتعلمين؟ هذا ما ظننته أنا أيضًا. لن أطلب منه المزيد، أعدكِ. لكن مامي، هل تظنين أنه يمكنني الاحتفاظ بمبلغ العشرة آلاف دولار؟».

لقد أسعد إزمي أن ابنتها سألت. وبدا لها أنّها لا يجب أن تحتفظ بالمال. كان هذا أقل ما يجب على ابن العاهرة أن يدفعه، لكنه كان أيضًا مبلغًا كبيرًا على فتاة في سنها. على ناتاليا أن تفهم خطورة ما فعلته.

أجابت بصرامة: «عليكِ أن تعيدي هذه الأموال يا ناتي».

عبست ناتاليا.

«لكنني لا أريد أن أرى ماركوس مرّة أخرى يا ماما».

«بالطبع لا. ستعطين المال لوالدكِ».

«ماذا لو احتفظ به؟».

«ماذا تقصدين ‹إذا احتفظ به› يا ناتي؟ ماذا تقولين؟».

«أفضّل أن أعطيه لكِ».

ما الذي عرفته ناتاليا عن والدها ولم تعرفه إزمي؟ هل كان غيدو قادرًا على فعل شيء كهذا؟ كانت تخطط لإجراء محادثة طويلة مع ابنتها، والآن لا يمكنها التفكير في أي شيء لتقوله.

بعد فترة، علموا أنَّ ماركوس ولوكريسيا قد انفصلا. احتفظت بالأطفال ولم تسمح له برؤيتهم. رفع ماركوس دعوى قضائية في محاولة لإصلاح علاقته بأطفاله.

يوميات ٢٠

عندما خطرت لي فكرة هذه الحكاية الطريفة الصغيرة، العلاقة بين ناتاليا وأحد أصدقاء والديها، علمت أنني قد وجدت شيئاً مثيرًا للاهتمام. أقنعتني محادثة مع السيّدة (ل) بأنّه يجب علي تقديمه على شكل مشهد درامي. لم أسمح لأيّ شخص بقراءة المسودات الأولى من هذا الكتاب، لأنه في تلك المرحلة من الكتابة، لم أكن مهتمّة بآراء القراء. إنني على دراية بالعديد من العيوب الواضحة، وأعرف -أو أظن أنني أعرف- كيفية تصحيحها، لكنني بحاجة إلى الاستمرار حتى يكون لدي كل المواد الخام قبل البدء في إعادة كتابتي. ولولا ذلك، كنت لأقوم بإعادة صياغة الصفحة الأولى إلى ما لا نهاية دون الدخول في صلب الرواية. ومع ذلك، وكاستثناء وحيد، أعطيتُ المسودة الأولى من هذا الفصل للسيّدة (ل). وكان رأيها، الذي هو دائمًا موضع تقدير، هو أنّ الموقف كان أسرع مما ينبغي، لكنني كنت أعرف ذلك بالفعل، وهذا ما أقنعني بعدم عرض المسودات على أيّ شخص آخر.

بالعودة إلى عدم ارتياحي لتأثير «سلسلة الأحداث»، يجب أن أكون حريصَة على عدم ترك روايتي تفقد الميزة المحدّدة الوحيدة للأدب الجيد: القدرة على المفاجأة (بلغتها، واختيار المواد، وتنظيمها، ولكن أيضًا في تطور القصة). هل أنا في خطر؟ في هذه المرحلة يمكن للقارئ بالفعل أن يتنبأ جزئيًا بما سيحدث، ويستعد لاكتشاف الكارثة الجديدة التي توشك ناتاليا على التسبّب بوقوعها. تذكرتُ فجأة كتابًا من طفولتي بعنوان «مصائب صوفي» للكونتيسة دي سيغور، وهو حكاية أخلاقية للفتيات، نُشر في عام ١٨٥٩، وما زال يُقرأ في الأرجنتين بعد مائة عام. كانت الكونتيسة ابنة دبلوماسي روسي، والتجأت مع عائلتها إلى فرنسا، وكتبت باللغة الفرنسية هذه القصص الصغيرة التي ترتكب فيها صوفي، وهي طفلة صغيرة في الرابعة أو الخامسة من عمرها، أفعالًا مؤذية، وتمنعها والدتها وتعاقبها بطريقة قاسية وسادية في بعض الأحيان. كان اهتمامي بسوء خلق صوفي أكثر من مجرد شغف؛ أظن أن ما جعلني أقرأ، هو الحاجة إلى معرفة كيف ستعاقبها والدتها هذه المرّة. يجب أن أعترف أن التأثير العرضي لم يقلل من اهتمام القراء إطلاقًا.

الحادث المؤسف

قال الدكتور مارتيغوت: «من الهامّ بالنسبة إلى ناتاليا أن تستمر في قول الحقيقة».

كان مكتبه، وطريقة تصميمه، وموقعه في مبنى أنيق، في حيّ راقٍ، وتوليفة الأرائك التي مزجت بين نمط التشيسترفيلد الجلدي والخشب الماهوجني الفاخر، كان كلّ هذا جزءًا من استراتيجية مصممة لترهيب بعض الموكلين، وإعطاء آخرين الشعور بأنهم في مكان ثريّ بالتقاليد والعراقة، والثروة والنسب، حيث يمكنهم الثقة والاعتماد على الحماية التي سيوفرها هذا المزيج القوي من العوامل. كان الدكتور مارتيغوت محاميًا محترمًا للغاية. وافق على تولي قضية ناتاليا خدمة لوالدها تقريبًا. ساهمت عيناه الشاحبتان ورأسه الذي يشبه رأس جندي روماني في التأثير بشكل كبير. بدا وكأنّه رجل لا يمكن الطعن في أقواله. في الواقع، لن يقوم هو بنفسه بالتعامل مع القضية، بل الدكتورة ميرتنز، الأصغر منه سناً بكثير، المرأة الشقراء، ذات بنطال داكن وقميص أبيض. لكن يظهر الدكتور مارتيغوت

من حين لآخر، بشكل عام، عندما يحين الوقت لبحث الأمور المالية.

لم يخطر ببال إزمي أن تبحث عن محام في تلك الليلة. عندما رنّ جرس الهاتف، استيقظت وقلبها ينبض: مكالمة هاتفية عند الفجر، إنه فيلم رعب كلاسيكي. شعرت باندفاع الأدرينالين في عروقها ينتشر عبر جميع خلايا دماغها، كما لو كان يتم حقنها. خلال لحظة كانت مستيقظة ومتيقظة جدًا. حاولت التنفس بعمق والتركيز على ما يقال لها. على الرغم من إحساسها بالصفاء الذهني، كان من الصعب عليها فهم ما سمعته. لاحظت ضابطة الشرطة ارتباكها، وربما كانت معتادة على هذا النوع من الحوار أثناء العمل، فكرّرت مرارًا وتكرارًا أن ابنتها بخير، وأن شيئًا لم يحدث لها.

أوّل ما خطر ببالها هو حدوث عملية اختطاف افتراضية. يحدث ذلك في الكثير من الأحيان. ويكون الجناة بشكل عام من السجناء السابقين. في حين كان الأشخاص الأقل تمرسًا منهم يختارون ضحاياهم من دليل الهاتف. ذات ليلة، اتصلوا بها قائلين إنّهم اختطفوا والدتها. كان الرجل يعرف اسمها الأول وكنيتها، والعلاقة بينهما، ولديه الكثير من التفاصيل الأخرى، لكن أسلوبه كان نمطيًا جدًا وقد تم نشره في الصحف عدّة مرّات (حتى كانت هناك رسائل بريدية جماعية تنبه غير الحذرين) لدرجة أن إزمي لم تصدّقه، خاصة عندما رفض السماح لها بالتحدّث إلى آلسيرا. أغلقت إزمي الخط

واتصلت على الفور بوالدتها التي ذهبت للعب البوراكو مع بعض الأصدقاء. نقلت الخادمة المستاءة جدًا، حديثها إلى الخاطفين المزعومين. كان من الواضح أنهم حصلوا على كلّ معلوماتهم منها، لكن إزمي أصرّت على سماع صوت والدتها. لم تعرف مكانها بالضبط. لم تردّ آلسيرا على هاتفها المحمول (وهو ما يحدث غالبًا لأنها تعاني من ضعفٍ في السمع)؛ ولم تستطع إزمي النوم حتى اتصلت بها آلسيرا بعد منتصف الليل، لتخبرها أنها عادت إلى المنزل، متجاهلة مخاوفها. «لا تظني أنك ستتخلصين من والدتك بهذه السهولة!»، وأوضحوا لها في مركز الشرطة أن الحادثة لم تستدعِ تقديم محضر رسمي لأن الجناة كانوا في السجن بأيّ حال من الأحوال. قال ضابط مناوب: «يشعر الأولاد بالملل».

لكن في تلك الليلة الرهيبة (كما وصفتها إزمي) لم يكن لديها شكّ. ربّما لأن إصرار ضابطة الشرطة على تهدئتها قد فاقم من قلقها: تلك الدعابة المتكررة، «فقط ابقي هادئًة» -والتي أرجأت تفسير المكالمة- كانت بمثابة الزلزال الذي سبق انفجار الحمم بلحظات. ولكن على وجه الخصوص، لأنه بعد ذلك مباشرة، سلّمت الهاتف إلى ناتي وكان بإمكانها سماع صوتها، صوتها الناعم والغالي، صوتها المحبوب بشدة، والمرتجف، قائلة :لديّ مشكلة يا ماميتا. لقد مرّ وقت طويل منذ أن نادتها ماميتا. والشيء الأكثر أهمية، أكّدت الدكتورة ميرتنز قائلة: «خلال العملية يجب أن تلتزم ابنتك بنفس القصة

التي قدمتها عندما انهارت أثناء الإدلاء بإفادتها. ستكون مهمتنا إثبات ذلك».

حصلت ناتاليا على رخصة قيادتها في سن السابعة عشرة، بعد موافقة والديها. كانت سائقة بارعة. سلمتها إزمي المقود براحة بال تامة وبفرح تام. وليس فقط في حركة المرور المجنونة والمزدحمة والجهنمية في المدينة، بل سافروا إلى الساحل عدّة مرّات، وقد قادت ناتاليا السيارة، مثل نجمة، طول مسافة الطريق.

في تلك الليلة الرهيبة، استولت ابنتها على السيارة، وهي سيارة من نوع فولكس فاغن غولف، زرقاء، ومستخدمة قليلًا، اشترتها إزمي بسعر جيد، والتي أصبحت الآن مغروسة في الحاجز الإسمنتي لطريق كوستانيرا السريع، حيث تمّ تدميره جزئياً في الحادث، وأصبح محاطًا ببقايا أنقاض بدت وكأنها مأخوذة من موقع مهدّم. كانت سيارة الفولكس فاغن قد دخلت في الحاجز الإسمنتي بطريقة كوميدية تقريبًا، كما هي الحال في الرسوم المتحركة. وعلى بعد خمس عمارات، كانت هناك جثة ملقاة على الأرض، جثة مغطاة لم ترها إزمي أبدًا، لكنها مع ذلك ستعاود الظهور مرارًا في كوابيسها، وأحيانًا في وجه والدها.

قفزت السيارة (السيارة، نعم السيارة -أجبرت نفسها على التفكير- السيارة وليست ابنتها، ولا صديقة ابنتها ريتا... إنها

السيارة اللعينة) قفزت على الرصيف، ودعست ذلك الرجل (الذي أصبح الآن جثة ملقاة على الإسفلت بانتظار وصول الطبيب الشرعي)، ثمّ استمرت في طريقها أسرع وأسرع، متجاوزة كلّ حدود السرعة، وانتهى بها الأمر بالاصطدام بالحاجز الإسمنتي.

لقد كانت ليلة رائعة ومثالية. الثالثة صباحًا، صباحٌ دافئ من شهر سبتمبر. كانت رائحة الربيع تفوح من النسيم العليل الذي يداعب وجهها بأصابعه الباردة. وراء السدّ، كان النهر المظلم يرقص ويضحك، متدفقًا على الضفة في موجات صغيرة مرحة.

لم يسبق أن رأت ابنتها أبدًا بذلك الجمال. كانت ناتاليا ترتجف وأسنانها تصطك، وهي متصلبة تعانق ريتا التي استسلمت للبكاء. تألقت عينا ناتاليا المزينتين بشكل مبالغ، في الظلام. أظهر مكياجها المفرط التعابير الطفولية على وجهها.

كان هناك العديد من عناصر الشرطة، فتباطأت سرعة السيارات المارة في محاولة لمعرفة ما حدث. أخذوا الفتاتين إلى المخفر في سيارة شرطة. استقلت إزمي سيارة أجرة.

ذهب غيدو مباشرة إلى مركز الشرطة، برفقة محامٍ شاب في مقتبل العمر، تبيَّن لإزمي لاحقًا أنه كان بمثابة ورقة رابحة، ومستعدًا دائمًا لتغطية حالات الطوارئ تحت تدريب الدكتور مارتيغوت، وهو الذي ساعد ناتاليا ورافقها في الإدلاء بإفادتها أمام المدعي العام. احتضنت كلوديا، والدة ريتا، إزمي بشدّة

لدرجة أنها قطعت أنفاسها للحظات. سيكون آخر عناق تتبادلانه لوقت طويل، ربما لبقية حياتهما. لم يحضر والد ريتا في تلك الليلة.

بعد الإدلاء بالإفادة في مكتب المدّعي العام، تحدّث المحامي الشاب مع غيدو وإزمي. كان الوضع مربكًا، وربما معقداً. نظرًا لأنها كانت سيارة والدتها، كان الافتراض الأولي للمحكمة هو أن ناتاليا هي التي كانت تقود. على أن والدها والمحامي نصحاها بعدم الإدلاء بأي أقوال (كمدعى عليها، لم تكن ملزمة بالقيام بذلك)، لم تستطع ناتاليا السيطرة على نفسها. بدت الفتاة في حالة صدمة، ولكن بدلًا من أن تنهار قواها تحت تأثير الصدمة، تركتها في حالة من الإثارة النفسية والحركة المتزايدة، وهذه الحالة شائعة جدًا في ظل هذه الظروف. في إفادتها بدأت بتحمّل مسؤولية كل شيء، في محاولة لإنقاذ صديقتها من الذنب أصرت قائلة: «أنا منْ كنتُ أقود؛ وكانت ريتا نائمة». بدت حريصة على تحمّل كامل المسؤولية عن الحادث. ومع ذلك، عندما استفسر المدعي العام عن بعض التفاصيل التي قدّمتها الشرطة، بدأتْ في ارتكاب أخطاء نحوية، وانتقلت من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب. قالت فجأة: «ثم كنتُ أسير على طول طريق كوستانيرا وداستْ على دوّاسة الوقود». وفي نقطة أخرى قالت: «عندما عكستْ الاتجاه، شعرتُ وكأنَّ السيارة دعسته». (هي؟ أنا؟ السيار؟) لم تكن واضحة على الإطلاق.

كان المدّعي العام رجلًا ذكيًا، ومن حقه الشكّ في الأمر أكثر. استجوبها بصرامة ودقّة، وفي النهاية انهارت الفتاة، قال المحامي الشاب لهما: لقد انفجرت بالبكاء واعترفت بالحقيقة. وأن ريتا هي من كانت تقود سيارة الغولف. كما سبق وفعلتها في مرات عديدة، سمحت لصديقتها بالجلوس خلف مقود قيادة سيارة والديها، لكن من فضلكَ لا تدع والدتها تعرف ذلك. كانت ريتا سائقة ماهرة، مع أنها لم تكن تملك رخصة قيادة. وجدت ناتاليا صعوبة بالغة في السيطرة على الموقف لأنها كانت خائفة، خائفة جدًا، عندما بدأت ريتا رحلة التسلية المجنونة على طول طريق كوستانيرا.

صاحب دكان تشوريبان وبونديولا شاهدَ الحادث، كان المشاة يحاولون عبور الإشارة الخضراء عند المعبر المخطط المخصص للمشاة؛ لقد رأى سيارة الغولف والتي بدت وكأنها تطير. لقد رأى الاصطدام. رأى كيف رجعت السيارة إلى الخلف دون سبب، وداست الجسد مرّة أخرى، ثمّ استمرت في طريقها المجنون والوحشي حتى اصطدمت بالحاجز. لكنه لم يكن يعرف على وجه اليقين أيهما كانت وراء المقود. كانتا فتاتين صغيرتين، بشعر حريري طويل وداكن، يصعب التمييز بينهما عن بعد. عندما وصلت الشرطة، نزلت كلتاهما وكانتا تقفان معًا إلى جانب السيارة.

في وقت لاحق اكتشفوا أنَّ إفادة ريتا لدى المدعي العام كانت مرتبكة أكثر من إفادة ناتاليا. أصرّت ريتا على أنها كانت

في مقعد الراكب، وأنها كانت نائمة، ولم تكن صاحية تمامًا عندما دُعس الرجل، وأنها لم تستيقظ إلّا عندما اصطدمتا بحاجز طريق كوستانيرا.

لم تكن ناتاليا حاضرة في ذلك الاجتماع الأول مع الدكتور مارتيغوت وميرتنز. والذي تحدثوا فيه عن المسؤولية والمال، عن الدعوى المدنية المحتملة، والتأمين ضد الغير، وتهم الصدم والفرار، والتي لم تكن قابلة للتطبيق في هذه الحالة، على الرغم من إصرار وسائل الإعلام التي وجدت موضوعًا دسمًا.

«كما تعلم جيدًا يا غيدو، بما أنك عمليًا زميل، إن ما حدث لابنتك، وأنا أشير إلى محاولتها الفرار من مكان الحادث...».

ذكّره غيدو قائلًا: «صديقة ابنتي».

«صديقة ابنتك... إنه أمر شائع جدًا ويمكن تفسيره في حالة الصدمة الناتجة عن حادث كهذا. لا يتم عدّه صدمًا وفرارًا إلّا إذا فرّ السائق، تاركًا الضحية في مكان لا يمكن لأحد مساعدتها فيه».

ذكّرت الدكتورة ميرتنز قائلة: «هناك مواقف يخرج فيها السائق وراكبه من السيارة في الطريق ويسحبان الضحية إلى طرف الطريق أو يرميانها في حفرة. لكن ليس هذا ما حدث هنا».

«هل يجب عليّ تشغيل مكيف الهواء؟»، سأل الدكتور مارتيغوت. «الجو يزداد حرارة في وقت مبكر هذا العام». جفّف عرقه، وهو يربّت بلطف على جلده بمنديل أبيض، آخر منديل أبيض، كما ظنت إزمي، التي كانت تهوّي نفسها بقوة.

بينما كانت الدكتورة ميرتنز تركّز على القضية، استحضر الدكتور مارتيغوت في ذهنه التجارب المتعددة التي ميزت حياته المهنية: كان لديه الكثير من المواقف، والكثير من الحكايات ليرويها، لدرجة أنه بدا أحيانًا وكأنه منغمس في مونولوج رجل عجوز.

كانت تلك الأشياء الواضحة، التي لا تطاق تقريباً، والتي بالكاد يستطيع والدا ناتاليا تحملها، جزءًا من مشهد تلقائي، وربما لم يكن متعمدًا، قام به المحاميان بتنسيق رائع. لَعِبا دورًا ثنائيًا: الشرطي الصالح والشرطي السيئ، وأكد الدكتور مارتيغوت مدى يُسر القضية، ومدى سهولة إثبات براءة ناتاليا، والعقوبة الخفيفة التي يمكن توقعها حتى لسائقة السيارة، والتي تقدر بسنة إلى أربع سنوات حكم؛ ولن يحبسوها في مركز احتجاز الأحداث، ناهيك عن إلقائها في السجن عندما تبلغ الثامنة عشرَ؛ سيكون بالتأكيد حكمًا مع وقف التنفيذ، فقد كان لكلمة غير المتعمد أثرًا في تغيير مجرى القضية، وكان الأمر يتعلق بالقتل غير العمد، وغير المقصود. وعلى الرغم من ارتجاف إزمي من كلمة القتل غير العمد، التي لم تخففها كلمة لا إرادي، ومع أن فكرة القتل غير العمد تحطمت بشكل

مؤلم على جدران جمجمتها، كان الشيء الرئيسي هو أن ابنتها لم ترتكب أيًا منها. ابنتها لم تكن حتى جزءًا هامًا في القضية، ابنتها كانت بريئة مثل براءة نظرة عينيها العسليتين.

قاطعته الدكتورة ميرتنز في نقاط معينة وأكملت ملاحظاته في نقاط أخرى، وساهمت في المنظور الآخر، وجهة النظر الأخرى المحتملة للقضية. ركّز الدكتور مارتيغوت على مدى حكمة إشراكهم، ومدى السهولة التي قد تكون عليها بالنسبة إليهم، بفضل سلطته، ومعارفه، وصداقته الشخصية مع القاضي، لإنقاذ ناتي من أي تهمة... البراءة؟ إطلاق السراح؟ قالت إزمي هذه المفردات وهي تنظر إلى غيدو، محاولة أن تستنتج من تعابيره ما هو الأفضل، وفي أي اتجاه، لتوجيه مسار تلك السفينة الغارقة التي كانت ذات يوم عائلة. وبينما كان الدكتور مارتيغوت يعلّق على الحقائق بشكل شبه رافض، مثل أي شخص يقلل من أهمية الفتات على مفرش المائدة، ويكتسحها بيده، ركّزت الدكتورة ميرتنز على تسويغ مبلغ أجور المحاماة، مذكّرةً إياهما بأنه قد يكون الافتراض أن ابنة مالك السيارة هي التي كانت تقود السيارة. كما أنهم لم يتلقوا تقرير المواد السمية بعد، وحقيقة أن الفتاتين ربما كانتا تحت تأثير الكحول، وهذا يمكن أن يكون عاملًا مخففًا، أو عاملًا مفاقمًا، مثل حدّي السيف. على أي حال، يمكن للأمور أن تتعقد اعتمادًا على كيفية تعامل المدعي العام مع القضية، على سبيل المثال، إذا ثبت أنهما كانتا تقودان السيارة بشكل روتيني

تحت عامل مؤثر. ذكّرتهما بأن السيارة قد قفزت من الرصيف، وأنهما ربما داستا جسد الضحية مرّة أخرى، لأسباب لا تزال غير مفهومة (كان هناك شهود، لكن تقارير الطب الشرعي لم تصدر بعد)، وأنهما هربتا بعيدًا. كما أنهما في سن السابعة عشرة، مسؤولتان عن أفعالهما في نظر القانون، على الرغم من أن وضعهما أفضل مما لو كانتا في الثامنة عشرة، لأنهما ما تزالان محميتين بموجب اتفاقية حقوق الطفل. ليس فقط الآثار الموجودة على الرصيف، ولكن، على وجه الخصوص، الاصطدام بحاجز طريق كوستانيرا، كما قالت الدكتورة ميرتنز، سمح للخبراء من الشرطة في تحقيقاتهم في الحادث، باستخدام أجهزة قياس النطاق (وهنا قاطع الدكتور مارتيغوت وصفًا مليئًا بالنشوة عن أجهزة جديدة رائعة تمتلكها المؤسسة الآن) لتحديد معدّل سرعة السيارة، وسرعتها الدقيقة، والتي تشير إليها درجة تشوّه المعدن، وأنّه كان هناك احتمال، بعيد ولكن ليس واردًا، يعني بعيداً عن السؤال، أنه يمكن عدّه إهمالًا جسيمًا، مع الأخذ في الحسبان كل العوامل: ارتفاع معدل السرعة، والقفز على الرصيف، ودعس الضحية مرتين، وحقيقة أنهما كانتا تقودان في حالة سكر، وربما ليس للمرة الأولى...

إذا أصرّ المدعي العام على تهمة الإهمال المتعمد، وتمكّن من إثبات ذلك، يمكن أن تكون العقوبة أقسى بكثير، بما في ذلك إمكانية أن تأخذ وقتًا طويلًا. كانت هناك حالات ارتكب

فيها قاصر جريمة قبل أن يكمل سن الثامنة عشرة، لكن الحكم صدر بعد عيد ميلاده، وقد تمّ التعامل معه بوصفه شخصًا بالغًا قانونيًا... وذكّرتهما د. ميرتنز بأن القاضي المسؤول عن إصدار الحكم قد يكون قاسيًا بشكل خاص؛ وهناك عادة مثل هؤلاء الأشخاص. والتغطية الإعلامية للقضية، على الرغم من أن القاضي قد يحاول تجنبها، لا يمكن أن تساعد في التأثير على قراراته. وقد يقرر أن يجعل منهما عبرة للشباب الآخرين. على الرغم من كل شيء، فقد يكون من الصعب، بل من الصعب جدًا، إثبات أن ريتا، هي التي كانت تقود بالفعل في وقت وقوع الحادث، وليست ناتاليا، وكل هذا يفسر لنا وبشكل مُسوَّغ أجورَ المحاماة الباهظة التي ذكرها الدكتور مارتيغوت، وضرورةَ وضعِ حدٍّ للمحادثة.

مات الرجل، بحيث لم يعد من الممكن فعل شيء. تذكرته إزمي كما لو أنها تعرفه. لقد عرفت بالفعل اسمه وعمره. كان في الثانية والخمسين. له ابنان. ذهب إلى كوستانيرا للصيد، وكان في طريقه إلى المنزل. صنارة الصيد وصندوق أغراضها طارا في الحادث، وانتهى بهما الأمر إلى الطريق السريع.

عندما غادرا مكتب المحاميْن، توقف والدا ناتاليا لتناول القهوة ولمناقشة ما حدث، في محاولة للتوصل إلى اتفاق بشأن بعض النقاط الأساسية، وحول كراهية بعضهما لبعض كالمعتاد ودعم بعضهما لبعض، كما يحدث في بعض الأحيان. ولكن قبل أن يتمكنا من البدء في الحديث عن ناتاليا والدكتور

مارتيغوت والدكتورة ميرتنز، وبشكل خاص، حول ما يمكنهما القيام به وكيفية دفع أتعاب المحاماة، نظر غيدو إلى إزمي نظرة أسف، متظاهرًا بالحزن والخجل، وأخبرها بأنّه سيغادر البلاد.

«الآن؟ هل ستغادر الآن؟».

«خلال الأيام القليلة القادمة، في الشهر القادم».

«ولكن لا يمكنك!».

«ما لا يمكنني فعله هو البقاء هنا. البلد ينهار. نحن أكبر سنًا الآن. إنها فرصتي الأخيرة».

امتلأت عينا إزمي بالدموع، لكن غضبها كان أكبر من خوفها ومن قلقها.

«فرصتك الأخيرة للتصرف مثل ابن عاهرة؟ لا تصدق ذلك... سيظل لديك الكثير من الفرص. طوال أيام حياتك».

أمسكها غيدو من كتفيها وهزّها، وأجبرها على النظر إليه.

«لكن ألا ترين ما يحدث؟».

«ارفع يديك عني وإلا سأصرخ. أنت ذاهب الآن؟ عندما ابنتك...».

«ابنتي لم تفعل أي شيء. كانت تلك صديقتها التي لم أحبها أبدًا. لقد اتُّهِمَت ناتي ظلمًا وسيُحلّ الأمر. سأترككما في أيدٍ أمينة. هذا يمنحني القليل من الراحة».

«ومن أين يفترض أن نحصل على المال لندفع لهذه الأيدي الأمينة؟ هل تظن أنني أعمل بوظيفة عظيمة؟».

«لا أعرف، أنا لا أسألكِ عن هذه الأشياء».

«لقد خفضوا راتبي بنسبة ٤٠٪. توقفوا عن توزيع المكافآت مع توزيعات نهاية العام. الآن هم يوزعون المشاكل بدل المكافآت. عندما تسير الأمور على هذا النحو، وعندما لا يكون لدى الناس المال للشراء، فإن أوّل شيء تفعله الشركات هو إيقاف الإعلانات. يا غيدو، أنا أيضًا أتقدم في السن. الكتّاب الجدد الشباب يكتسحون العمل. وهم جائعون. في هذه الأيام يحضرون بشهادات مهنية؛ الإعلان هو تخصص جامعي... إلى أين ستذهب؟».

أذعنت إزمي وسلّمت بقراره مُكرهة. ماذا يمكنها أن تفعل لمنعه؟ كانت متعبة جدًا. ثقل المسؤولية جعلها تتكئ على الطاولة.

«إلى الولايات المتحدة. إيفانستون. إحدى ضواحي شيكاغو».

«والأوراق؟ هل أنت ذاهب بتأشيرة سياحية؟ هل تخطط للبقاء هناك بشكل غير قانوني؟».

نظر غيدو إلى الباب كما لو كان يقيّم احتمالات الهروب. ثم ركّز على تحريك قهوته.

«ألم تخبركِ ناتاليا يومًا عن صديقتي شيلي؟».

«الأمريكية؟».

«أنا ذاهب بتأشيرة بموجب دعوة من خطيبتي. نحن مخطوبان. سنتزوج هناك. أخبرها محاميها أن هذه هي أفضل طريقة؛ فالحصول على البطاقة الخضراء أسهل بكثير من زواجنا هنا. سأحصل على إقامتي الدائمة على الفور، في غضون بضعة أشهر».

«إذن، ستتزوج».

«بطريقة ما. إذا كنتِ تريدين أن تنظري إليها من هذا الزاوية».

عادت إزمي إلى المنزل. كانت بحاجة إلى أن تبذل جهدًا للتخلص من الوخز الذي يصعد إلى أعلى وأسفل عضلاتها المتوترة. كان هناك الكثير من الناس الذين ينامون في الشارع، وعدد هائل من المحلات التجارية المعلقة عليها لافتات «للبيع» أو «للإيجار». من حين لآخر، كانت عربة يجرها حصان تقيّد حركة المرور في المدينة. لم تر عربة يجرها حصان في العاصمة منذ أن كانت طفلة صغيرة. لكن إزمي لم تنتبه إلى بوادر الأزمة. كانت تفكر في الرجل الميّت، وفي جثته ووجهه المغطى على أسفلت طريق كوستانيرا، وتفكر بزوجته وأطفاله؛ تفكر في لحظة وقع الخبر عليهم، فشعرت بالذنب بسبب موت الرجل؛ تفكر في ناتاليا، ابنتها ناتيتا، وبالألم الذي سوف تعانيه، مع أنها

لم تكن تقود السيارة، إلا أنها كانت موجودة هناك؛ لقد شعرت أن العجلات تدعس فوقه ثم تتراجع مرّة أخرى (ارتجفت إزمي مرعوبة للحظة)، والآن عليها أن تعيش مع تلك الذكرى المحفورة في جسدها لبقية حياتها.

دخلت الشقة وذهبت مباشرة إلى غرفة نوم ابنتها. لن توقظها إذا كانت نائمة، لكنها بحاجة لرؤيتها.مكتبة سُر مَن قرأ

كانت ناتاليا مستيقظة للتو. خداها أصبحا ورديين من ملامسة الوسادة، أحدهما أكثر من الآخر. خصلات شعرها الطويلة والداكنة متشابكة حول وجهها الغالي. مستيقظة للتو من النوم، بدت وكأنها طفلة في العاشرة من عمرها. سوف يستغرق الأمر منها بضع ساعات لتظهر بشكل المراهقة المزدري. قفزت من السرير وركضت لتعانق والدتها.

لم تكن إزمي شديدة الانتباه، لكنها لم تستطع إلا أن تلاحظ أن الرفّ الموجود فوق السرير، حيث تضع ناتاليا دُمىً، وهي آخر بقايا طفولتها، قد تم إفراغه ووضعت الآن فقط حجرًا كبيرًا مصقولًا على شكلٍ غريب. اتبعت ناتاليا نظراتها.

«إنها قطعة من الحاجز من كوستانيرا يا ماما. أخذته تذكارًا».

يوميات ٢١

لقد أُعيد تعميد ناتاليا للتو للمرّة الرابعة. في البداية، كانت تسمى باولا. انتقدت بناتي الاختيار، قلن إنه اسم غير مناسب لفتاة في عمرها. فجأة تذكرتُ أن اسم باولا هو اسم ابنة إيزابيل أيّندي، وكذلك اسم الرواية التي كتبتها عنها بعد وفاتها. لذلك كان من المستحيل استخدام هذا الاسم. لفترة وجيزة أصبحت كانديلا، لكن شيئًا لا يمكن تحديده أزعجني بشأن هذا الاسم المبالغ فيه. لم تكن إزمي لتسمي ابنتها كانديلا. لبضعة أشهر سميتها لوسيانا، لكنني رفضت ذلك باعتباره اسمًا عصريًا جدًا. يجب أن يكون اسم الشخصية مميزًا، دون أن يبدو غريبًا أو مثيرًا للسخرية، ما لم تخدم هذه الغرابة غرضاً في القصة.

ناتاليا لا تتحدث كثيراً. بالكاد نتعرف إليها. في النهاية، لا نملك إلا رؤية والدتها. أنا أعرفكِ كما لو كنت قد أنجبتكِ، كما يقول المثل الشعبي، لكنه مثل خاطئ. فمعرفة الأم بأبنائها هي أقل من معرفة الآخرين بهم. يؤكد اللغويون أن المراوغة، أي إمكانية الكذب، هي خاصية تميز اللغة البشرية. يتواصل

العديد من الحيوانات مثل (الغوريلا والنحل) بطرق متنوعة، ولكن لم يتم إثبات قدرتها على الكذب. نحن البشر نكذب على كل من نتحدث إليهم، بالإضافة إلى الكذب على أنفسنا بصوتنا الداخلي. لكن الأم هي أكثر الناس تتعرض للكذب من قبل أبنائها، حتى وإن كانت تستمدّ السعادة بتأكيد ما تظن أنها تعرفه عن أطفالها. الأم هي أول امرأة يكذب عليها رجل -أو امرأة.

ثمّ إنّ هناك شكًا آخر. الكتابة ليست للمهووسين بها. إنها مثل محاربة أفعى الهيدرا ذات الألف رأس: مقابل كلّ شكّ يتمّ حلّه، ينبثق اثنان آخران. عليك أن تكتب مثل هيرقل: الشعلة في يدك، وتقوم بكي الأعناق المقطوعة، والاستمرار في العمل بطريقة ما. الشكّ: ما نوع اللغة التي يجب استخدامها؟ هل يجب على ناتي استخدام اللهجة العامية الخاصة بالمراهقين؟ اللهجة العامية في يومها، والتي ليست بالضبط لهجة هذه الأيام؟ العامية للمراهقين سريعة الزوال... من ناحية أخرى، ألا ينتقص إعطاؤها مفردات محايدة وغير موصوفة من واقعية القصة؟ أتذكَّر المعضلة التي واجهها جون كليلاند، مؤلف كتاب فاني هيل، حول أنسب لغة لرواية مشهد مثير، الشكوك التي عبَّر عنها بمثل هذه الدّقة من خلال بطله مؤلف الرسائل التي تتكون منها الرواية. كيف تتمّ تسمية الأعضاء المتنازعة فيما بينها؟ كيف يتمّ وصف تصرفات الشخصيات؟ هل من الأفضل اختيار لغة علمية أم لغة شعرية أم لغة شوارع؟

لقد تعارضَ بورخيس، الذي يتبنى منهجًا نظريًا، دائمًا مع مصطلحات العصر. يقدّم كتابه سجلات بوستوس دوميك، الذي كتبه بالتعاون مع أدولف بيوي كاسارس، دليلًا على مدى صحة ذلك: لقد أصبح قديمًا لدرجة أنه يبدو أحياناً غير مفهوم، تسخر هذه السجلات من التعبيرات التي بالكاد ما تزال موجودة في الذاكرة. حتى كتاب الألف يعاني من اللغة الخطابية التي يستخدمها كارلوس أرجنتينو دانيري، وهو بلا شك مضحك في عصره، لكنه اليوم منفصل عن أي نقطة مرجعية على الإطلاق.

عن مصادري: لكتابة هذا الفصل، تحدثتُ مع محامين وقاضٍ.

السيّد (ج)، هو محام (ليس في القانون الجنائي) وكذلك كاتب. لقد فهم مشكلتي تمامًا، وتعاون معي في بناء القصة. كان حريصًا مثلي، عندما قمت بإعداد مشهد الحادث واتخاذ قرار بشأن سلوك شخصياتي. كان حماسه مفيدًا جدًا. من خلال الحديث معه أدركت أن القتل غير العمد، على النقيض من القتل العمد، يحمل عقوبة خفيفة للغاية لتبرئة ناتاليا وإلقاء التهمة على ريتا. وكنت بحاجة إلى أن يكون كل شيء أكثر جدّية، حتى تتمكن ناتي من التخلّص من عقوبة خطيرة إلى حد ما، وتستطيع التخلّص منها وإلقاءها على صديقتها (السابقة).

كان القاضي الذي تحدثتُ إليه أيضًا محاميًا جنائيًا. لم أكن أعرفه. لقد التقيته من خلال صديق مشترك، وقد رحَّب

بي بلطف شديد وبعدم اهتمام شديد بمشكلتي. خلال حديثنا، بدا واضحاً أنه وجد الفعل الذي شاركت فيه شخصياتي أمرًا تافهًا جدًا، و بإمكان أيّ شخص حلّه، وأن الأمر لا يليق تقريبًا بمرتبته الرفيعة. شيء مثل استخدام مفاعل نووي لإعداد طبق بيض مقلي. لقد ضلّ طريقه في استطرادات تتعلق بقضايا أكثر تعقيدًا وخطورة وأكثر إثارة للاهتمام، وكان من الصعب بالنسبة إليّ توجيهه إلى المسار الصحيح. ومع ذلك، تبيّن أنَّ ازدراءَه كان مفيدًا للغاية في مساعدتي على فهم أنني بحاجة إلى تضمين الظروف المشدّدة. لقد كان هو الشخص الذي أخبرني عن الإهمال الجسيم، مستشهداً بقضية كابيلو (صبي قتل شخصين، ربما أثناء سباق السيارات) وأشاد بدقةِ أدوات الشرطة.

وأخيراً تحدثتُ إلى السيّد (ز)، وهو محام جنائي شاب ومثير للاهتمام ونشيط، وكان على دراية تامّة بالعلاقة مع الشرطة، وقد شرح لي ما تقوله القوانين وكيف تعمل حقًا، وما هو حادث الصدم والفرار، وما هي العوامل التي يمكن أن تؤدي إلى تفاقم وضع شخصياتي. هو مَن أوضح لي أنه يفضل استخدام كلمة «وكلاء» بدل كلمة «زبائن».

المحاكمة

كانت المحاكمة طويلةً وبطيئةً ومرهقة. أقرب، إلى حدّ كبير، إلى تحذيرات الدكتورة ميرتنز، منها إلى لفتة الدكتور مارتيغوت المتمثلة في كنس الفتات عن مفرش المائدة. وبعد كلّ شيء، هل كنْس الفتات عن مفرش المائدة بهذه اليُسر حقًا؟ أليس هذا مستحيلًا تقريبًا، مهمة تمَّ من أجلها اختراع أدوات مختلفة، ولا يمكن تحقيقها إلا من خلال نزع مفرش المائدة عن الطاولة ونفضه؟

أثبتت تقارير كشف المواد السميّة أن الفتاتين في تلك الليلة، كانتا قد تناولتا الكحول ومنشط من نوع الإكستاسي، وأنهما دخنتا الماريجوانا، ولم تكن أيّ منهما في حالة تسمح لها بقيادة السيارة. كانت بصمات كلتيهما على عجلة القيادة. رهنت إزمي الشقة من أجل تأمين أفضل محامي دفاع ممكن لناتاليا، وقد فعلت ذلك. شهد العديد من الشهود الصغار أنَّ ريتا، غالبًا، هي من كانت تقود سيارة ناتاليا، أو بالأحرى سيارة والدة ناتاليا. من الممكن حتى الحصول على شاهدين

هامّين للإدلاء بشهادتهما في القضية، وهما، الرجل الذي شاهد السيارات المتوقفة خارج ساحة انتظار النادي، والجار الذي كان يقف في تلك اللحظة عند مدخل منزله. أكّد كلاهما أنهما شاهدا ريتا خلف مقود سيارة الغولف عندما خرجتا من الديسكو. لم تسأل إزمي محاميها أبدًا كيف تمكنوا من الحصول على تلك الشهادات، فهي مفيدة جدًا وضرورية جدًا. كذلك غيّر صاحب منصة تشوريبان وبونديولا إفادته، الآن بعد أن أتيحت له الفرصة للنظر في كليهما بدقة، أدركَ أنه يمكنه بالفعل التعرف إلى الفتاة التي كانت تقود السيارة. وهي ريتا بلا شك.

ولكنَّ الإخلاص والطاقة اللذيْن قاتلت بهما ناتي للدفاع عن صديقتها في مراحل مختلفة من المحاكمة، كانت نقاط هامّة في القضية. بعد انهيارها أثناء الاستجواب من قبل المدّعي العام، لم تعد قادرة على الاستمرار في ادّعاء أنها هي المذنبة. كان من السهل، إذن، أن نرى حجم الألم عليها، حين اعترفت على مضض، بذنب ريتا، وكيف حاولت تخفيفه من خلال تقديم جميع أنواع المُسوّغات المتناقضة. أمّا ريتا، فقد تركت، بقصتها غير المتماسكة، انطباعًا سيئًا للغاية لدى المدعي العام وقاضي التحقيق. عندما تحدّثت بشكل أوضح، كان الأمر أسوأ. بدا واضحًا في بعض الأحيان أنها تكرر ما حاول المحامي تذكيرها به ولكن بلا جدوى (لم تكن ريتا تلميذة جيدة أبدًا). في كلّ مرّة تحدثت فيها، استخدمت نفس

الكلمات. من ناحية أخرى، عندما تمّ استجواب ناتاليا وجهًا لوجه، بشخصيتها، وبوضوحها وبسحرها، وبخجلها الواضح، وبجهودها لتخفيف الضرر قدر الإمكان عن صديقتها رغم عدّها مذنبة، ومحاولتها أن تتحمل المسؤولية مرّة أخرى، جعل شهادتها تبدو أكثر مصداقية من الافتراءات الوحشية التي ألقتها ريتا الخارجة عن السيطرة، على صديقتها السابقة. حتى الدكتورة ميرتنز (وكان ذلك إنجازًا استثنائيًا حقًا) انتهى بها الأمر إلى الاقتناع بأنها تدافع عن فتاة بريئة. وكان إثبات البراءة أمرًا هامًا جدًا، لأن الوضع أصبح أكثر تعقيدًا، فالتهمة لم تعد القتل غير العمد، حيث سيكون الحكم مع وقف التنفيذ. بدلًا من ذلك، أصرَّ المدعي العام على الإهمال الجسيم، وهي حجة قوية استحضرت قضية مشهورة.

في ٣٠ أغسطس ١٩٩٩، كان سيباستيان كابيلو، آنذاك، يبلغ من العمر ١٩ عامًا، يقود سيارته من نوع هوندا سيفيك على طول طريق أفينيدا كانتيلو، فاصطدم بمؤخرة سيارة رينو تقودها طبيبة بيطرية تبلغ من العمر ٣٩ عامًا وتدعى سيليا غونزاليس، كانت مسافرة ومعها ابنتها فانينا ذات الثلاث سنوات. نتيجة الحادث الفظيع، اندفعت السيارة التي كانت الضحيّتان تركبانها إلى الأمام بمقدار ٩٢ مترًا في خط مستقيم، واشتعلت فيها النيران على الفور. ماتت الأم وابنتها في الحريق. كشفت تحقيقات الطب الشرعي أن كابيلو، الذي كان برفقة صديق له، يقود سيارته بسرعة ٨٥,٥ ميلًا في الساعة، على ما يبدو كان

في سباق سيارات، مع سيارة بي إم دبليو سوداء.

غطت وسائل الإعلام الحادث على نطاق واسع، وتم احتجاز كابيلو في السجن رهن المحاكمة. قام زوج الضحية أو والد الطفلة الضحية، الذي غلبت عليه العاطفة، بضرب كابيلو بينما كان يُحاكم وهو مكبل اليدين. وبناء على نصيحة من مستشار قانوني، امتنع الشاب عن رفع دعوى ضد المعتدي، معلنًا من خلال المتحدثين أنه يتفهم ردّ فعل الأب وألمه.

في عام ٢٠٠٣، حكمت المحكمة الجنائية الشفوية، في حكم غير معتاد إلى حد ما، على كابيلو بالسجن لمدّة اثني عشر عامًا، وعدّته مسؤولًا جنائيًا عن تهمة القتل غير العمد أو القتل بسبب الإهمال.

بعد ذلك بعامين، قررت الدائرة الثالثة في محكمة الاستئناف الجنائية، التي أكدت أنه لم يتم إثبات مزاعم أنهُ كان في سباق سيارات، وتمّت إعادة تصنيف الجريمة، وتخفيض العقوبة إلى ثلاث سنوات مع وقف التنفيذ. ولكن في الوقت الذي كان يُنظر فيه إلى قضية ريتا وناتاليا، كانت نتيجة الاستئناف ما تزال غير متوقعة وكان كابيلو في السجن.

اتصل غيدو بابنته من إيفانستون، إلينوي، أولًا عبر تقنية إم إس إن ثم من خلال برنامج سكايب. دائمًا كانت قدرة غيدو على استخدام أحدث التقنيات تثير غضب إزمي. لقد صدمتها فكرة أنّها غير مهيأة بوصفها شخصًا من جيلهم ليكون دائمًا

أوّل من يستخدم التكنولوجيا الحديثة. كانت البطاقة الخضراء الشهيرة قيد الإعداد، لكنها لم تكن وشيكة. في الوقت الحالي، من المستحيل عليه إرسال الأموال. ليس لديه عمل، لكن شيلي تعمل بدخل جيد، وكالعادة، كانت لديه خطط، الكثير من الخطط الرائعة. متى سيتمكن من تنفيذ واحدة منها -واحدة فقط!- وخاصة عندما تنتهي تلك القضية الغبية السخيفة التي لا طائل من ورائها، والتي منعته من الذهاب لرؤية ابنته، فقد وعد ناتي أن يأخذها معه، فهو متخوّف. كان سيدفع لها مصاريف التحاقها بكلية جيدة في الولايات المتحدة، الأرض الموعودة. في بعض الأحيان، كان غيدو يتصل أيضًا بزوجته السابقة، ليسألها عن كيفية سير المحاكمة. بغض النظر عن محاولات إزمي منع نفسها من القيام بطلب المال، وبغض النظر عن الطريقة التي حاولت بها تجنب ذلك، فإنَّ كل المحادثات مع زوجها السابق كانت تنتهي بطلب المال، وفي مجادلات غير مجدية، تكرّرت ألف مرّة. في معظم الأوقات، يغلق غيدو الهاتف فجأة في منتصف الجملة.

كانت إزمي بحاجة إلى أن تكون بالقرب من والدتها أكثر من أي وقت مضى. بعد بلوغها السبعين من العمر، لقد نما ما يشبه عرف الديك الرومي أو زائدة لحمية مجعدة ومرتجفة بين رقبة آلسيرا وذقنها. لم تكن إزمي قادرة أبدًا على تقبل هذا الجزء الجديد من جسد والدتها، المرأة التي طالما كانت مثالية، وقوية، ومستقيمة جدًا. فهو شيء لا يمكن تصوره،

بالإضافة إلى البقع العمرية على يدي آلسيرا، الأمر الذي سبب لإزمي معاناة حقيقية.

كانتا الآن في مطبخ آلسيرا، ولم يكن من السهل عليها الجلوس هناك. إذ طالما فضلت غرفة الطعام، حيث مفرش المائدة المطرّز، والخزف الصيني الفاخر، والمعجنات التي تُشترى من المخبز، والزيارات المخطّط لها مسبقاً. لأسباب تتعلق بجيل كامل، تشعر إزمي براحة أكبر في المطبخ، فهو بالنسبة إليها المكان الأكثر دفئًا في المنزل. كانتا تشربان المتّة وتضعان الجبن الأبيض الخالي من الدسم على شرائح رقيقة من الخبز المحمّص. التقطت آلسيرا بدقة كلّ كسرة سقطت على جوانب الطبق.

قالت آلسيرا لإزمي بابتسامة صغيرة: «كم مرة طلبتُ منكِ أن تأكلي فوق الطبق؟».

«كم مرّة في حياتي؟ مليون ومائتان وتسعٌ وأربعون ألف مرة؟».

«وانظري إلى ما فعلته...».

«ماما. هل تظنين حقًا أن ريتا هي التي كانت تقود السيارة؟».

«يا بنيتي، أنتِ تعانين من مرض في رأسكِ. ما الفرق الذي يحدثه من كان يقود السيارة؟ هناك سؤال واحد فقط عليك طرحه: من هي ابنتك؟... هل ريتا هي ابنتك؟».

«ماذا كانت لتقول ريجينا يا ماما؟ أنتِ تعرفين كيف كنت معجبة بها. كانت بالنسبة إليّ... نحن لا نتحدث أبداً عن ريجينا. إنّها دائماً كانت تعرف الأمور بشكل جيد. كلما صار لديّ شكّ في شيء ما، كنت أنظر إليها. أنظر إلى وجهها. إنها تعرف».

«نحن لا نتحدث لأنه لا يوجد شيء نتحدث عنه».

«كانت... لقد فعلت ما رأت أنه لا بدّ من فعله. حتى النهاية. كنتِ أنتِ أيضًا معجبة بها يا أمي. أنت وبابا. ولا يمكنك قول اسمها لأنك ما زلت تحبينها. كانت ريجينا هي المفضلة لديك. لا تُنكري ذلك».

«أنت لا تفهمين أيّ شيء. كانت ريجينا حمقاء سمحت لنفسها بان تُقتل. أنا أكرهها».

بدأ وجه آلسيرا في الانكماش والتجعّد كما لو استحوذت الكتلة اللحمية المجعدة بطريقة ما على كل بشرتها وكل ملامحها، وحوّلتها إلى شيء أملس ومخضّل ومثير للاشمئزاز، مصنوع من تنهدات خانقة.

«كانت صغيرة جدًا يا إزمي... لا تظني أنّها كانت أفضل. لقد كانت شابة متطرفة ومتعصبة. في وقت لاحق أصبحت مثلك، مثلي، مثل الجميع. كانت صغيرة جداً عندما قتلوها... لم يكن لديها الوقت للاحتماء، والاستسلام، والكذب، وخداع نفسها، لم يكن لديها وقت لتكبر. لم يكن لديها وقت لأي شيء، لم

يكن لديها أي وقت لاحق، إنها لم تكبر. و قد أجبرتُها على ارتداء تقويم الأسنان لسنوات عديدة!».

أُدينت ريتا بالقتل غير العمد. قبلت المحكمة حكم الإدانة بتهمة الإهمال الجسيم، وقضت الفتاة، التي كانت في ذلك الوقت قد تجاوزت الثامنة عشر عامًا، في السجن مدة عام تقريبًا، بينما استأنف محاموها الحكم. وتمت تبرئة ناتاليا من الذنب ومن جميع التهم الموجهّة إليها.

يوميات ٢٢

بعد شهر من الراحة والانقطاع، عدتُ إلى كتابة هذه الرواية مرّة أخرى. إنه لأمر مذهل أن أسير في بناء القصة بهذا البطء الشديد. وطبعًا السبب يعود إلى قراءتي لاثنين من كتب القصة القصيرة، هما اللذان قلبا تفكيري. كتاب، فجأة طرق على الباب للكاتب الإسرائيلي إتغار كيريت، حيث فيه إسراف في جنونٍ خاضعٍ للسيطرة، وهذيان وأفكار رائعة، ومع ذلك، لا يأخذ الشخصيات بعيدًا عن مشاكلهم وعن حياتهم اليومية، تلك المشاكل المعروفة والمنتشرة على نطاق واسع. والقصة الأخرى هي، الحيوانات المنزلية، للمؤلفة التشيلية أليخاندرا كوستاماغنا، التي تُثبت أن القصة القصيرة هي نوع متجدّد، على الرغم مما قد يقوله الكثيرون من الناس. يتجاهل نثر كوستاماغنا أشياء معينة، ويتخطى أشياء أخرى، ويضم أخرى معًا، بطريقة مبتكرة جدًا، تُظهر الحساسية الجديدة لهذا العالم الغامض قليلًا بالنسبة إلى أبناء جيلي، عالم يستبعدني، عالم لم يعد بإمكاني فهمه جيدًا.

من اللافت للنظر كيف ينمو شعور المحاكاة الواقعية عندما أصف قضية كابيلو. إن دقّة البيانات تجعل أي شيء أكثر قابلية للتصديق. يأتي المشاركون وهم يحملون الاسم الأول والكنية والأعمار والمهن. يتم ذكر التاريخ الدقيق للأحداث، والسرعة التي كانت تسير بها السيارة، والمسافة التي قطعتها السيارة الأخرى. عندما تريد جعل الناس يؤمنون بشيء ما، فإن الأرقام هي أكثر فعالية من الحروف. لكنني لا أريد أن أجعل أي شخص يصدق أي شيء، أليس كذلك؟ إذا كنتُ أراهن على احتمالية أن يكون ما أكتبه حقيقيًا أو لا، فلن يكون لهذه اليوميات أي معنى.

ناتاليا تكبر

أنهت ناتاليا المرحلة الثانوية من الدراسة بشق الأنفس. استغرق حصولها على شهادتها نفس المدة تقريبًا التي استغرقتها المحاكمة. في نهاية عامها الخامس، عندما انضمت إلى زملائها في حفل التخرج، كانت ما تزال لديها ستُّ مواد لتقدّم اختبارات فيها، وبدا من المنطقي أن يكون من الصعب عليها التركيز تحت هذا القدر الكبير من الضغط. على مدار العامين التاليين، اجتازت الاختبارات شيئًا فشيئًا.

بعد الحادث المؤسف، تصرفت مديرة المدرسة بتفهم أكبر مما توقعناه، فقد انتهى العام تقريبًا وسرعان ما ستتخلص من الشخصين غير المرغوب فيهما إلى الأبد، وبأسهل طريقة ممكنة، وبأقلِّ إزعاجٍ للآباء الآخرين. في لقاء مع إزمي، لم تتوقف أبدًا عن الإشارة إلى الحادثة بعبارة محدّدة وخفيفة: الحادث المؤسف. من بين زملائهما في المدرسة، بسبب الحادث المؤسف مُنحت مكانة غريبة للطالبتين ناتاليا وريتا؛ وتمت معاملتهما باحترام.

اشترط النادي الذي أقيم فيه حفل التخرج، مشاركة أربعة أشخاص بالغين على الأقل. رفضت إزمي أن تكون واحدة منهم، وكانت سعيدة بعدم مشاركتها. ولأن الآباء وعدوا مالكي صالة الديسكو بأنهم سيتحكمون في استهلاك الكحول (البيرة فقط لمن هم فوق سن الثامنة عشرة، لا خمور قوية، وما لا يزيد عن مشروبين لكل واحد)، شرب الأطفال بشكل منهجي مسبقًا، ووصلوا إلى الحفلة في حالة مؤسفة. كانت ناتاليا، التي تتحكم الآن بحذر في تناول الكحول، منتشية بعض الشيء، لكن ريتا، التي كانت في حالة سكر بشكل مثير للاشمئزاز، هاجمت ناتاليا في وسط الحفلة وهددت بقتلها. شتمتها قائلة: أنت عاهرة مغرورة، قاتلة لعينة، سأدسّ أكاذيبك في مؤخرتك، سأقوم بضرب ثدييك، سأقوم بتدمير عضوك التناسلي المصاب بالجدري. أكّد أولئك الذين شَهِدوا المواجهة بأن ناتاليا ردّت بإلقاء زجاجة البيرة على وجه ريتا. زملاء الدراسة، الذين انقسمت آراؤهم حول هذه المسألة (مع وجود أغلبية صغيرة تؤيد ناتاليا) لم يحتاجوا لأكثر من ذلك لإطلاق العنان للقتال والضرب والتدمير، وهو ردّ فعل شائع لتأثير الكحول على الصغار. انتهى الحفل بشجار جماعي جدير بحانة في الغرب المتوحش، ولم يتمكّن القائمون على صالة الديسكو من السيطرة عليه إلا بعد جهد كبير، وبعد إلحاق ضرر كبير بالمكان. ساعد الآباء قدر استطاعتهم، في محاولة إنقاذ أطفالهم أو كبح جماحهم.

أثناء إجراء المحاكمة، كان من الهامّ جداً أن يكون سلوك ناتاليا لا تشوبه شائبة. قبل كلّ شيء، كان من الضروري لها ألا ترتكب أي عمل يتطلب تدخل الشرطة. تساءلت إزمي عما إذا كان عليها أن تسمح لها بالمشاركة في رحلة التخرج إلى باريلوتشي. وهي عبارة عن طقوس تكون محمومة وحزينة في نفس الوقت، تقوم بتنظيمها شركات مكرّسة في المقام الأوّل للحصول على أكبر مبلغ ممكن من المال من الآباء. حضرت إزمي اجتماعاً أوليًا مع ممثل إحدى الشركات لاستشارته، وهو شاب صغير جدًا يعمل أيضًا بمثابة منسق للمجموعة. أصيبت إزمي بدهشة من قدرة الصبي الخبير في المبيعات، على إقناع الآباء والأطفال بأن الشركة تخطط لتجربة فريدة ومختلفة، مصممة خصيصًا لمصالح تلك المجموعة الخاصة جدًا، بينما قام بتسجيلهم في رحلة واحدة وحيدة، من الواضح أنها نفسها للجميع، والتي قاموا بها بالفعل.

كانت مخاوف الآباء هي من المخدرات والكحول والجنس غير المنضبط بينما هي توق الأبناء ورغبتهم. لا يمكن للشركات أن تهتم كثيرًا، طالما ليس لديها مشاكل مع الشرطة. أحد الأصدقاء الذين كانت ابنته قد سافرت بالفعل في رحلة باريلوتشي الشهيرة، أخبر إزمي، أنه قبل بضعة كيلومترات من عبور الحافلة عبر نقطة تفتيش للشرطة، طلب المنسّق من الأطفال أن يسلّموا جميع المخدرات والخمور التي بحوزتهم، ووعد بإعادتها إليهم لاحقًا، في الفندق.

عندما ناقشت الموضوع مع ناتاليا، مقتنعة في هذه المرحلة بأنها لا يجب أن تذهب إلى هذه الرحلة، ومتأهبة لخوض معركة طويلة وصعبة، فوجئتْ إزمي بابنتها تستخدم لغة بذيئة لا تستخدمها عادة مع والديها. حتى في هذا الصدد، كانت فترة مراهقتها مختلفة تمامًا. لأنها فتاة، كانت إزمي تتفاخر بالحديث في الشارع بالعبارات التي لم يكن مسموحًا بها في منزلها، وتدمجها بشغف في لغتها اليومية، وتصدم بها آلسيرا وليون. من ناحية أخرى، كانت ناتاليا، تخاطب والديها، عادة، بلغة هادئة ومطمئنة ومحايدة، تختلف تمامًا عمّا كانت تستخدمه مع أقرانها. (كانت إزمي تتفاجأ أحيانًا عندما تسمع ناتي وهي تتحدث على الهاتف). لهذا السبب فاجأها رفض ناتاليا المشاركة في رحلة التخرج، ليس فقط في المضمون، ولكن في الشكل أيضًا.

«لن أذهب يا ماما. أنا لدي أمور أخرى. هناك أشخاص يحتاجون إلى الذهاب في رحلة التخرج لكي يثملوا ويمارسوا الجنس مع بعضهم بعضا بشكل فوضوي. بينما أنا لا أهتم بهذه الأمور».

ماذا تعني ناتاليا؟ هل تعني أنها انتشت وسكرت دون الحاجة إلى عذر؟ (رفضت إزمي إدراج الجنس في عالم مخاوفها).

على الرغم من أنها أرادت أن تعرف أقل ما يمكن عن عائلة

القتيل، على الرغم من أنها رفضت التعرف على وجهه وقصته وحياته، لكن كان من المستحيل تجنب ذلك. كان الرجل مطلقًا وتزوج من امرأة أصغر منه سنًا، ولديه طفلان صغيران، أحدهما في الخامسة من العمر، والآخر في السابعة، بالإضافة إلى شاب من زوجته الأولى يبلغ الثامنة عشرَ من العمر، والذي هاجم ريتا بوحشية وهي تخرج من جلسة الاستماع في المحكمة. كان الأطفال الثلاثة والزوجة الثانية هم من قدّم الشكوى. رفضت المرأة التحدث إلى الصحافة. بكت في جميع جلسات المحكمة التي حضرتها. كان وضعها المالي صعبًا؛ وقد وافق محاميها على تأجيل قبض أتعابه إلى ما بعد المحاكمة المدنية، عند دفع التأمين.

قالت إزمي بحزن: «أناس مساكين». كانتا تتناولان القهوة بالقرب من حي تريبيوناليس.

رفعت ناتاليا صوتها قائلة: «مساكين، أناس مساكين! كم هذا فظيع!»، ثم تابعت: «وريتا مسكينة أيضًا يا ماما. لا أعرف كيف سيكون شعوري إن أصبحتُ مسؤولة عن شيء كهذا».

حدقت إزمي في وجه ناتي بينما كانت تنظر شاردة بعينيها الصافيتين الشفافتين والمركزتين. فجأة تغيرت تعابير وجهها إلى تعابير كراهية.

«أنتِ لا تصدقينني، أليس كذلك؟ كالعادة! الجميع يصدقونني إلا أنت. زملائي، المحكمة، الناس. حتى عائلة

القتيل تدرك أنني بريئة! لكن لا بدّ أن تفكّري دائمًا في أسوأ ما فيّ».

«لم أقل شيئًا».

«لكننا نعرف بعضنا بعضًا».

«نحن نعرف بعضنا بعضا؟».

«لا أعرف... هل لاحظتِ أنني في حالة حب؟».

مع واحدة من أفضل ابتساماتها، ووعدها بالدردشة بين امرأة وامرأة، غيّرت ناتاليا المحادثة. عاشقة؟ في ذلك الوقت، كان الدكتور مارتيغوت قد اقترح أن وجود شريك ثابت هو أمر يترك دائمًا انطباعًا جيدًا في المحاكمة.

لكن بصرف النظر عن ذلك، هل كان اتّهام ناتاليا باطلًا تمامًا؟ ألم تكن محقة؟ ألم تشرح حتى تلك الفكرة المثيرة للاشمئزاز التي خطرت ببالها للتو بشأن الحب المفترض لابنتها؟ تساءلت إزمي فيما إذا لم يكن صحيحًا أنّ شكّها القاسي، طيلة حياة ناتي، قد جعل علاقتها مع ابنتها مضطربة؟ ألم يكن صحيحًا أنها كافحت مرّات عديدة للتخلص من انعدام الثقة والشك؟ كما تساءلت إزمي إن كانت كلّ الأمّهات يشعرن بهذا الشعور، أم أنّها الوحيدة. ذلك الشعور الفظيع بأنّ ابنتها تكذب عليها، أو تحجب جزءًا من الحقيقة، تمامًا كما يفعل جميع الأطفال مع جميع الآباء، تمامًا كما فعلت هي مع

آلسيرا، ولكن بشكل أكبر وأكثر سوءًا، لأنها أصبحت الآن أمًا ومسؤولة، وهي الطرف المذنب، والشخص الذي شكّل ذلك الصلصال الذي من الممكن أن يكون عملًا فنيًا، لكن ربما ليس كذلك. ألم يكن هناك أي انحراف صغير، أي خطأ ضئيل انحرف عن المثالية، هل هو خطؤها، خطؤها بالكامل؟ ألم يكن شبح الشكّ هذا، والخوف وعدم القدرة على الثقة بابنتها بشكل كامل، وبشكل أعمى تمامًا، وعدم الإيمان بكلماتها، وبإمكانياتها، وبأوهامها، وبإنجازاتها، هو سبب الخلاف؟ ألم تكن، بافتقارها للثقة، وبشكوكها الدائمة، هي التي تسببت في خلق تلك العيوب، العيوب ذاتها التي ترفضها كما لو أنها لم تكن من صنعها، أو من نتاجها، أو أنها ليست نتيجة أفعالها وأفكارها غير الناضجة؟

الآن تحمل إزمي في قلبها همًا ثقيلًا، أثقل من وزن جثّة ميتٍ. كان وحشٌ حيّ يأكلها من الداخل. كيف يمكنها أن تحرر نفسها من هذا الرعب، وكيف تصدق كلمات ناتي مرة أخرى، وتثق في نظرتها؟ مع منْ يمكن أن تتحدث؟ لا شك، ليس مع آلسيرا، التي كانت تتّفق تمامًا مع حفيدتها في السراء والضراء. وليس مع أصدقائها: فالتحدث بالسوء عن الأطفال مثل البصق في الجنة.

كان لوتارو هو حبيب ناتاليا، ولم تتفاجأ إزمي بالدرجة التي كانت تودّ أن تكون عليها، لكنها أخفت مشاعرها بشكل مناسب.

«لكنني كنت أظن أنك تكرهينه؟ ألم يكن هو الشخص الذي أخبر بيبي رونغستوكينغ أنّكِ تبيعين المخدرات؟».

«حسنًا، أنا أكبر سنًا الآن يا ماما. التقينا مرّة أخرى في النادي، ليتك رأيته كيف اعتذر. كان مثيرًا للشفقة. لقد جعلني أشعر بالأسف من أجله».

«حبيبتي، الشفقة ليست أساسًا جيدًا لإقامة علاقة».

«لكنني أحبه أيضًا يا ماما، كيف لا أستطيع أن أحبه. يا له من حبيب. سيفعل أي شيء من أجلي».

في الواقع ، كان لوتارو مستعدًا لفعل أي شيء من أجل ناتاليا، ومن المثير للشفقة أن نراه يجر نفسه أمامها مثل جرو، ولسانه متدلٍ دائمًا، يائسًا، للحصول على نظرة، أو عناق، أو لفتة قبول. لم ينسَ والدا لوتارو الأسباب المشبوهة التي دفعت ابنهما إلى تغيير المدرسة. ناتاليا لم تكن موضع ترحيب في منزلهما. لكنهما لم يجرؤا على إغلاق الباب في وجهها أيضًا.

أرادت والدة الصبي الاجتماع مع إزمي بعد ظهيرة أحد الأيام. كان لوتارو بالفعل في سنته الثانية في علم الأحياء، ومدرّس مساعد في إحدى المواد. الآن تخلى عن منحة الدراسات العليا لإكمال دراسته في لاهاي. وأكّدت والدته أنها فرصة تأتي مرّة واحدة في العمر.

قالت بجدية: «لا يريد الابتعاد عن ناتاليا».

«إنها حياتهما... والفرص التي تأتي مرّة واحدة في العمر غير موجودة. مثلما جاءت هذه الفرصة، سيأتي شيء آخر... إنه فتى ذكي. وإلى جانب ذلك، ماذا أفعل؟ ماذا نستطيع أن نفعل؟».

«أنا لا أطلب منك أن تفعلي أيّ شيء. أودّ فقط أن أعرف ما إذا كانت ابنتك تحبه. إن كانت تحبه حقًا. ومستعدة للتخلي عن كلّ شيء من أجله. مهما كان الأمر. أقول ذلك لأن ناتاليا لا تتخلى عن أيّ شيء. لقد تركته أكثر من مرّة. لا يعرف لوتارو ماذا تفعل؟ أو إلى أين تذهب؟ أو مع منْ. إنه مجنون».

قاطعتها إزمي قائلة: «هل هذا كلّ ما علينا التحدّث عنه؟».

«أردتُ أيضاً أن أسألكِ عما إذا كنتِ أنتِ وزوجك السابق من يمنحانها الكثير من المال. لأن الفتاة تصرف الكثير من المال يا إزميرالدا. لا أستطيع أن أتهمها بأنها تعيش على حساب لوتارو... فقد وضعنا قيودًا صارمة على لوتارو».

دفعت إزمي ثمن القهوة، ثم قامت وغادرت.

لطالما كرهت أولئكَ الأمهات (خاصة أمهات الأبناء الذكور) اللواتي يصررن على إظهار مدى مسؤولية التأثيرات السيئة أو الصديقات أو أصدقاء السوء عن كل ما يحدث في الحياة. عن كل شيء لا يعجبهن أو لسن مستعدات للإعجاب به في أطفالهن.

في غضون ذلك، كانت هناك خطوة أخرى عدّها المحامون ضرورية: كانت ناتاليا بحاجة إلى الخضوع لعلاج نفسي. بالطبع وافقت إزمي. بدأ العلاج العالمي العظيم للأرجنتينيين في التحرك مرّة أخرى.

استشارت إزمي العديد من المعالجين، ورفضت على الفور أولئك الذين استخدموا تعبير

«مراهقة منحلة»، والذي بالتأكيد ما كانوا ليستخدموه مع مراهق ذكر. هذه المرّة كان المعالج المختار هو الدكتور روث. قبلتهُ ناتاليا دون جدال وتغاضت عنه بشكل مقبول طوال مدّة المحاكمة. أجرت إزمي محادثتين مع الطبيب، الذي بدا سعيدًا بتحسّن حالة مريضته. في الواقع، منذ وقوع الحادث المؤسف (بدأ كل شخص قريب من ناتاليا يشير إليها بهذه العبارة)، لم تثمل ناتاليا مرّة أخرى، ولم يبدُ عليها أنها تتعاطى الماريجوانا. إذا كان الأمر يتعلق بالاقتناع بالتأثيرات، ربما كان لوتارو واحدًا من الأشخاص الجيدين.

بمجرد انتهاء المحاكمة، أنهت ناتاليا علاقتها، وعلاجها النفسي في وقت واحد.

يوميات ٢٣

اليوم، نحن الأمهات، أولئكَ الوحوش المتهمة دائماً بقتل -أو على الأقل- بتحديد مصير أطفالنا بضربات مدمّرة لا تمحى. أمهات الطبقة الوسطى، خاصة اللاتي لا يعانين من الفقر أو الهجر، والأمهات اللاتي لديهن أزواج ولديهن مساعِدات منزليات، أمهات مضطرات إلى التحكم في كلّ كلمة من كلماتنا وفي إيماءاتنا، لأن كلّ شيء يترك آثره على ذلك الصلصال الذي يبدو مرناً، والمعروف باسم ضمير أطفالنا. بعبارة أخرى، نحن هنَّ المذنبات في كلّ شيء.

نحن أيضاً كنّ بناتًا -مع وجود مخرج واحد صغير- لذلك، فإن أمهاتنا مسؤولات إلى حد كبير عن حالتنا المخزية الآن. يقدم لنا علم النفس الحديث إمكانية تقاسم المسؤولية مع والدينا، وإلقاء اللوم عليهما في مشاكلنا، تمامًا كما سنُلام غدًا على مخاوف أحفادنا. يتحمل الآباء ذنب أبنائهم حتى ثلاثة أو أربعة أجيال. وهكذا، تحولت مسألة القدرية مقابل الإرادة الحرّة من الدين إلى التحليل النفسي. يقول الناس إنّه ليس خطأ

هذا الصغير المسكين: ما الذي يمكن أن تتوقعه من تربية أم كهذه.

منذ وقت ليس ببعيد، سمحتُ لنفسي بإعادة قراءة كتاب كان شائعًا جدًا خلال فترة طفولتي وهو، القلب للكاتب إدموندو دي أميسيس. لأُؤكّد من جديد، كيف تغيرت المفاهيم التي سادت حياتنا منذ بداية القرن الخامس عشر. في ذلك الوقت، لم يصدّق أحد أن الأم يمكن أن تكون مسؤولة بأي شكل من الأشكال عن الأفعال السيئة لنسلها. كانت الأم كريمة، وتضحي بنفسها، وطيبة بلا حدود، فقط بحكم كونها أمًا. الأم لا ترتكب أي أخطاء، ودائمًا تقدّم الأفضل لطفلها. كان الطفل سيئًا لأنه ولد بهذه الطريقة، كنتيجة للانحراف الذي يسري في دمه، بالإضافة إلى إرادته في أن يكون شريرًا.

يصف صاحب رواية القلب، شرور الصديق الفاسد بطريقة واضحة وضوح الشمس. إنه فرانتي الشرير، الذي يضرب كل الأطفال الآخرين وهو في سن التاسعة، ويتحدى معلميه، ويحصل على درجات سيئة في كل المواد. والد فرانتي مجرم وهو في السجن. لا أحد يعتبر أن الظروف التي نشأ فيها فرانتي قد تكون لها علاقة مع شرّه: فهو على ما هو عليه لأنه يريد أن يكون كذلك. وبدلًا من لوم الأم على الأخطاء الفظيعة -الله أعلم بتلك الأخطاء- التي ارتكبتها في تربية طفلها، بدلًا من الاقتراح عليها زيارة عيادة اخصائي في علم النفس التربوي، يمسك المعلم، في مشهد لا يُنسى، فرانتي من ذراعه، ويجعله

يواجه تلك المرأة المسكينة، حيث يقوم بوضع يده الملتوية على قلبها، ويقول له: يا فرانتي، أنت تقتل أمك!

من ناحية أخرى، أشعرُ بالقلق من أن ناتاليا قد يُنظر إليها على أنها نموذج لجيلها. لا يوجد شيء أسوأ من الشخصيات الرمزية النموذجية. تجبرني حقيقة ظهور الكثير من الكليشيهات الخاصة بالأجيال في النص (رحلة التخرّج، وتعاطي الكحول) على تجنب هذا الخطر باستمرار. لكن في الوقت نفسه، لا مفرّ من وجود علامات بارزة في حياة المراهقين في الألفية الثالثة. يجب أن يُنظر إلى ناتاليا على أنها فريدة من نوعها، وليس كمثال أو نموذج. من الضروري تجنب هذه الثنائيات بأي ثمن، مثل: الجيل الجيِّد الملتزم بالوعي الاجتماعي مقابل الجيل غير المسؤول اللامبالي، غير الملتزم، الأناني، الفردي. الى جانب ذلك أنني، أنا، لا أؤمن بها.

في وقت سابق من هذا الأسبوع، كنت أناقش هذا الكتاب مع وكيل أعمالي. أظن أنه بمجرد تجاوز ٢٠٠ صفحة، لن يكون هناك عودة إلى الوراء: ستكون هذه قد أصبحت رواية، ومن ثَمَّ يمكنني البدء في الحديث عنها (ولكن قليلًا).

السيّد (ن)... ليس مقتنعًا بهذه اليوميات التي أكتبها: ألا يعيق هذا الأسلوب القراءة بحد ذاتها؟ ألا يمكن أن يربك القارئ ويؤثر على مصداقية القصة؟ ربما، إلى حدّ ما. لكنَّ المرء يكتب ما يود أن يقرأه. وبصفتي قارئة، حتى لو لم أكن

جزءًا من المهنة، أحب أن تفصح الكاتبة، وتخبرني من أين حصلت على موادها، وكيف اختارت أن تجمع تلك المواد معًا، وما هي الخيارات التي اتخذتها، وما هي الشكوك التي ساورتها.

المواجهة

تحاول إزمي، بشكل بائس، اتخاذ وضعية لنوم مريح نسبيًا في مقعد الطائرة. حقيبتها وجهاز الكمبيوتر المحمول يشغلان جزءًا كبيرًا من المساحة المحدودة المخصصة لقدميها. يتميز الجزء العلوي من مسند الظهر بشيء يشبه ياقة السترة يمكن توسيعه لتسند رأسها عليه. فقط لو كان أكبر بعشرة سنتيمترات. إنها لا تستطيع التحكم في حركة ساقيها المتصالبتين، ولا تستطيع أن تباعد بينهما، في محاولة يائسة للعثور على مكان يمكنهما فيه الراحة. غفت مسندة رأسها بيديها، ومرفقها على مسند المقعد، لكنها استيقظت على الفور بسبب خدر في ذراعها، متبوع بوخز كوخز دبابيس وإبر. تحاول دفع المقعد إلى الخلف أكثر قليلًا، لكن هذا مستحيل: نطاق حركة ظهر المقعد محدود وشكلي تقريبًا. إلا أنه يكفي للسماح للمقعد الموجود أمامها بالحفر عمليًا في وجهها. ويصبح الحيز الذي تجلس فيه أصغر؛ حتى إنّه يعيق تنفسها. وحين تصحو تمامًا، تغمرها موجة حرّ قادمة من الداخل، مما يجبرها على الابتعاد عن ظهر المقعد المليء بالعرق. من الواضح أنها لن تكون

قادرة على النوم مرّة أخرى. من الأفضل إذن محاولة التركيز على الفيلم الذي يعرضونه على تلك الشاشات المعلقة إلى السقف، في الممر. إنها ليست من الطائرات الحديثة ذات الشاشات المثبتة على المقعد الأمامي. وضعت سماعات الرأس للبحث عن قناة ناطقة باللغة الإسبانية. فهي تعلم أن الصوت ضعيف، ولن تفهم كلمة واحدة باللغة الإنجليزية. كذلك لا تسمع بشكل جيد كلمة واحدة باللغة الإسبانية. كانت تجلس إلى جوارها امرأة ذات مظهر أنيق، مرتدية ملابس ذات تصميم جيد، نوع من الملابس يشبه زيّ كبار موظفي المكاتب الذين يكونون بارزين حتى في المطار بين حشود المسافرين المرتدين أحذية رياضية، وسراويل مريحة وقمصان فضفاضة. أخذت إزمي نفسًا عميقًا، وأصدرت صوتًا يشبه تأوهًا. علّقت رفيقتها في السفر على تنهيدتها.

قالت لإزمي: «على الأقل يمكنك السفر بشكل مريح. بمجرد وصولي إلى هناك، سوف يأخذونني مباشرة إلى الشركة». كان من الواضح أنها بحاجة إلى تسويغ سبب ارتدائها ذلك النمط الرسمي من الملابس.

«سأزور ابنتي التي تدرس في جامعة فيرجينيا. إنها لا تتوقع ذهابي إليها. سوف أفاجئها!». وتمنّت لو أنَّ رفيقتها في السفر تعلم، دون الحاجة إلى إخبارها، أن جامعة فيرجينيا تُعدُّ واحدة من أفضل عشرين جامعة في الولايات المتحدة. فلو كانت جامعة هارفارد أو ييل فقط، لما احتاجت إلى التوضيح. كانت

إزمي تودّ أن تزودها بمزيد من التفاصيل، لتخبرها أن الفتاة، الصغيرة جدًا، ليست وحدها في بلد أجنبي، وأنها ليست أمًا من هذا النوع، وأن والد ابنتها يعيش في شيكاغو، صحيح أنه بعيد عنها، لكنه على الأقل في نفس النصف من الكرة الأرضية، في نفس البلد، في نصف القارة التي يسميها الأمريكيون الشماليون، أمريكا. دعاها والدها للعيش معه، وبعد بضعة أشهر فقط، تقدمت ابنتهما بطلب إلى جامعة فيرجينيا وتمّ قبولها، وعلمت أنَّ زوجها السابق، هو الذي قرر أخيرًا أن يتكفّل بدفع فواتير شيء هامّ، وأنها تأمل فقط أن يستمر في دفع المال حتى تنتهي ناتاليا من الدراسة في الكلية، وهذا ما كان دائمًا غير متوقع -أو ربما كان متوقعًا جدًا- ولكن على أي حال، أصبحت متورطة في الأفكار بحيث لن تتمكن من إخبار رفيقتها في السفر. من ناحية أخرى، رغبت أن تخبرها أن ابنتها ناتاليا تتقن اللغة الإنجليزية بطلاقة، لأنها ذهبت إلى مدارس ثنائية اللغة طوال حياتها، وأنها ذكية جدًا جدًا، لقد كبرت الآن، وأصبحت قادرة على اكتشاف أن بعض الجامعات تحتاج لملء حصة طلابية دولية، وقادرة على القيام بعمل مجتمعي، أو المشاركة بنشاط في مجموعات صائبة سياسيًا، من أجل كسب نقاط إضافية لتعويض درجاتها الثانوية المتوسطة. أو ربما لا يوجد سبب لإعطاء الكثير من المعلومات، وهي في الحقيقة ليست مضطرة لذلك، لأن رفيقتها في السفر طلبت منها بأدب السماح لها بالخروج للذهاب إلى الحمام، وكان ذلك السبب الوحيد الذي جعلها تخلع سماعاتها، وعندما عادت، وضعتها

مرّة أخرى، بابتسامة لطيفة، وشبه اعتذار، ثم عادت لمتابعة الفيلم. شاهدت إزمي الصور الصامتة للحظة، فوجدتها حرفة سينمائية زائفة تماماً وغير واقعية، ومع ذلك فهي تعلم أنها إذا استطاعت فهم ما تقوله الشخصيات، فستتمكن من نسيان كلّ شيء، وتفهم القصة بلا شكّ. اندمجت مع القصة بنفس الشغف، مثل الركاب الآخرين، بلا حراك في مقاعدهم، حيث علامة الحياة الوحيدة هي حركة عيونهم.

في مطار أتلانتا، كانت لديها ساعتان من الوقت لتغيير الطائرة، والعثور على الرحلة المتوجّهة نحو شارلوتسفيل، حيث تقع الجامعة. إنّها ليست المرّة الأولى التي تسافر فيها إلى الولايات المتحدة. تنفست بعمق حتى تتأقلم مع تلك الرائحة الخاصة، تلك الرائحة الكريهة لمطارات بلاد اليانكي، وهي خليط من القرفة والبيتزا والبلاستيك والغراء ومزيل العرق. نظرًا لأنها تجري في المطار دون داع (هناك متسع من الوقت)، حاولت استحضار وجه ابنتها. إنهما على اتصال بشكل دائم. تريان بعضهما بعضًا عبر الشاشة، تتبادلان الصور ومقاطع الفيديو، لكن مرّ أكثر من عام، أكثر من عام كامل منذ أن رأتها آخر مرة، ثم إنّ الصور لا توضّح كلّ شيء. لقد مرّ وقت طويل منذ أن أرسلت ناتاليا صورة كاملة، وقد بدا وجهها ممتلئًا. إزمي قلقة من زيادة وزنها بسبب تناول الوجبات السريعة، بسبب توفر محلات الطعام بشكل كبير، حيث تنتشر في جميع أنحاء خريطة الولايات المتحدة.

لقد استقلّت الرحلة المكمّلة، ظانةً للمرّة الألف أنها ربما ارتكبت خطأً، وأنه سيكون من الرائع أن تجد ناتاليا في انتظارها حين تنزل من الطائرة، وربما لم تكن فكرة جيدة أن تزورها بهذه الطريقة المفاجئة. خلال الرحلة القصيرة بين أتلانتا وشارلوتسفيل، ارتاحت ساقاها، واسترخت (لقد اقتربت من الوصول)، وأخيرًا غفت بعمق.

أخذتها سيّارة أجرة من المطار إلى عنوان ابنتها، وهو العنوان الذي طالما لمسته بحب، مرّات عديدة، على الطرود التي أرسلتها إليها بالبريد. طلبت ناتاليا أشياء تافهة وحلوة، مرتبطة بطفولتها، أشياء أثرت فيها. مثل: ملابس قديمة لكن عزيزة عليها، وثوب النوم الفوشيا الذي أصبح الآن في حالة يرثى لها، والمهرّج الزجاجي الذي أعطته إياها جدتها، والكأس على شكل سنجاب. كانت ناتاليا تقول لها: تعالي لزيارتي، تعالي وقتما تشائين، لكن وقتما تشاء لم يكن بهذه السهولة. كانت إزمي تعيش في فترة اقتصاد زمن الحرب، تعمل بدوام جزئي في وكالة إعلانات، وتُكمل راتبها بعمل مستقل عثرت عليه بصعوبة، مقابل أجر منخفض جدًا. أصبحت آلسيرا امرأة عجوز متسلطة، فهي ما تزال قويّة ومتحكمة، لكنها أضعف من السابق، صعبة المزاج دائمًا، مستعدة لطرد الخادمات والممرضات دون ذرة من الرحمة تجاه ابنتها، التي كان عليها أن تحلّ محلّهنّ في كل مرّة تتصل بها إحدى موظفات الرعاية لتخبرها أنها ستستقيل. في العام الماضي، تعرّضت آلسيرا إلى

سقوط نتج عنه انزلاق غضروفي، ونوبة التهاب رئوي، دخلت على إثرها إلى المستشفى لمدّة أسبوعين. على الرغم من أنها كانت الآن في حالة تحسّن شبه تام، إلا أنّه لم يكن من السهل على إزمي تركها وحيدة في المدينة. كان أصدقاء والدتها كبار السن أيضًا، ومرضى إلى حد ما، ونادرًا ما يزورونها.

سائق سيارة الأجرة، رجل أسود اللون، شديد السواد، ليس كلون معظم الأمريكيين السود الذين لهم بشرة بلون القهوة بالحليب، كان متحمسًا للمحادثة. اكتشفت إزمي، مندهشة، أنها تفهم تقريبًا كل شيء يقوله. فهمها للغة الإنجليزية هو كيفما كان. لقد تدربت قليلًا من خلال التلفاز، لكنها لا تستطيع أبداً فهم كل الأخبار التي تبث على قناة سي إن إن. فحين تفقد فهم جوهر الموضوع، أو لا تكون على دراية به، فلا توجد طريقة تمكّنها من التقاط الموضوع مرّة أخرى. إنّهم يستمرون في الحديث طيلة فترة القيادة، تماماً مثل الأرجنتينيين. أخبرها سائق التاكسي أنه سنغالي، وهذا ما يفسر لهجته الأجنبية الجميلة، وقال أنه عاش في شارلوتسفيل لمدّة خمس سنوات. اكتشفت إزمي أن نيويورك ليست المدينة العالمية الوحيدة، حيث ينتشر المهاجرون من جميع أنحاء العالم في كل مكان من الولايات المتحدة.

وصلت إلى عنوان ابنتها. بدا لها الحي وشقة الطابق الأرضي المتواضعة، وهي جزء من مجمع سكني، مألوفين إلى حدّ ما. فقد سبق أن أرسلت لها ناتاليا العديد من الصور. توسلت إلى

والدها أن يسمح لها بالعيش بعيداً عن الحرم الجامعي الذي يعيش فيه الطلاب الأصغر سناً فقط. وفقط الطلاب الأفضل، أولئك الذين لديهم أعلى الدرجات، يشغلون تلك الغرف القديمة، التي صمّمها جيفرسون، بدون حمامات خاصة، وهي رفاهية غير معروفة في القرن التاسع عشر، مساكن مع حمامات مشتركة، يمكن التعرف عليها من خلال أكوام الحطب الموجودة في المدخل، لأنه ليست لديهم تدفئة مركزية أيضاً. لكن ناتاليا التي تبلغ عشرين عامًا من عمرها، وهي أكبر من معظم زملائها الجدد، قد فضّلت استئجار شقة صغيرة في المدينة مع إحدى صديقاتها، وهو ترتيب لم يكن أغلى من العيش في الحرم الجامعي.

تعرف إزمي أن مجيئها دون سابق موعد، له عواقب، وقد هيأت نفسها لهذا الاحتمال. فإذا لم تكن ابنتها في المنزل، ستذهب إلى مقهى ستاربكس القريب، والذي سبق أن تمّ تحديده على الخريطة. لديها القليل من الأمتعة، فقط حقيبتها ومحفظة، وسوف تتّصل من هناك. يا لحظ ناتاليا الجيد، لأن غيدو استطاع أن يوفر لها تلك الإمكانية للبدء من جديد في بلد آخر، وفي عالم آخر، بعد كلّ ما مرّت به تلك المسكينة.

على الرغم من الطريقة التي حاولت من خلالها إعداد نفسها لاحتمال أن لا تجد ابنتها في المنزل، وأنها تطرق الباب بلا طائل، شعرت إزمي بتسارع في دقات قلبها وهي تقف على عتبة هذا العالم الجديد والمستقل، والذي لم تعد ابنتها

تشاركه معها. ومع ذلك سمعت ضوضاءً وصوتَ خطواتٍ. فُتح الباب. حدقت فيها ناتاليا متراخية الفكّ، متسعة العينين دهشةً، بوجهها الممتلئ وقد صار أكثر نضجًا، وهي حامل في شهرها السادس أو السابع. كانت ترتدي سروالًا خاصًا لرياضة المشي، معلقًا إلى بطنها، وقميصًا فضفاضًا أزرقَ داكنًا مكتوب عليه: «أنا لست سمينة، أنا حامل».

لَهِفتْ روح إزمي. اندفع الحب بيأس عبر عروقها وصعد إلى عينيها. عانقتها كما لو أنها تمنت أن لا تتركها تذهب. بادلتها ناتاليا الاحتضان بمودة، ولكن بلهفةٍ أقلّ.

قالت ناتاليا مبتسمة: «ماما! ما الذي تفعلينه هنا؟». يا لحسن حظها، يا لها من راحة: فقد كانت إزمي خائفة جدًا من أن تبدي تعابير رافضة، وأن تعاملها معاملة سيئة، ومن تعليقاتها الفظّة بسبب مجيء إزمي على هذا النحو، دون سابق إنذار.

«صغيرتي، حبي، حبيبي، لماذا لم تخبريني بأيّ شيء؟ هل تعتقدين أنني... ألا تعرفينني؟ هل أنتِ لوحدكِ يا حبيبتي، يا طفلتي. هل لديه أب؟ وهل يعرف غيدو؟». فركت إزمي بطن ابنتها. يمكنها أن ترفع يدها عن ذلك البطن.

«لا، لا يعرف. التقينا منذ شهرين، لكنني لم أخبره بعد. نعم، ماما، بالطبع لديه أب. سوف تقابلينه قريبًا».

«ولكن لماذا، لماذا لم تخبريني... لم أتخيل قط...».

«ها، ها، انظروا من يتحدث! لم أتخيل أبدًا أنني سأراكِ هنا فجأة. تعالي وارتاحي، وسنأخذ فنجان شاي رائع».

دخلت إزمي في حالة غريبة من التشويق؛ سرت شحنة كهربائية على جلدها من الأعلى ومن الأسفل. لم تعد تشعر بالتعب، تلك الموجات من الإرهاق التي طالما طاردتها بعد قضاء الليل على متن الطائرة، الآن هي لا تفكر في الذهاب إلى الفراش أو الراحة. إنها تفكر فقط في كل الأشياء التي يجب أن تتحدثا فيها، تلك الكلمات الرهيبة والرائعة التي توشك أن تبادلها مع ابنتها.

«هل تعلمين ما إذا كان الجنين بنتًا أم صبيًا؟».

«طفل صغير بالطبع. اسمه تيموثي».

«اسم أمريكي؟ إذن الأب من هنا؟».

«الأب والأم».

«لكنك أنت الأم!».

«حسناً... ليس تمامًا. كما ترين، يوجد عقد... يا أمي، سيكون لديكِ أحفاد يومًا ما، أعدكِ، لكن ليس هذا، موافقة؟ هذا ليس حفيدك». تحدثت ناتاليا بهدوء، ونطقت الكلمات بطريقة توضح لأمها الأمر بشكل جيد.

«عقد؟» كررت إزمي ببلاهة.

ثم فجأة، فهمت. وبهذا الفهم، سرت موجة باردة عبر جسدها الذي كان حتى تلك اللحظة ملفوفاً في دفء الجدة المخملي. انفجار متجمد محمّلٌ ببلورات الثلج استقر في فجوات قلبها، ومن هناك انفجر باتجاه بقية جسدها. بردت أصابعها. لم تعد تستطيع الشعور بقدميها.

«ناتاليا... أنا لا أفهم. يا صغيرتي، لماذا...».

«من أجل المال يا أمي. كنت بحاجة إلى المال».

«من أجل المال! لكني كنت سأمنحك المال... والدكِ...».

«مائة ألف دولار؟».

«ما حاجتك إلى مائة ألف دولار؟».

«اسمعي، أنت وأبي ليس بإمكانكما إعطائي هذا المبلغ من المال. ولكن حتى لو كان ذلك ممكنًا، فأنتِ لم تقدمي لي أيّ شيء، وقد بدأتِ بطرح الأسئلة. أحتاج إلى الحرية يا ماما. والحرية تأتي من المال بدون قيود. سأدخل في مشروع مثير للاهتمام وأحتاج إلى رأس مال. وأنا لا أريد التحدث عن ذلك».

«لكنكِ... أجنبية!... لا يمكنك توقيع العقود! لقد بعتِ رحمك!».

«لم أقم ببيع أيّ شيء يا ماما. فقط قمت بتأجيره. إنه مورد

متجدّد. وقد وقّعت عقدًا، فأنا الآن من بورتوريكو وعمري أربعة وعشرون عامًا».

«هل تحملين وثائق مزورة؟ هل أنت في الولايات المتحدة في الجامعة، ولديك مستندات مزورة؟».

«أنا لست في الجامعة يا أمي. كنت أخطط للتحدث مع أبي بعد الانتهاء من هذا الأمر. ثمّ لا تذهبي إلى استنتاجات خاطئة. المستندات ليست مزورة؛ إنها نظامية تمامًا باعتها لي فتاة من بورتوريكو، ودفعتُ ثمنها كما لو كانت حقيقية... وهي كذلك بالفعل».

«لكنكِ...».

«المشكلة الوحيدة هي أنه تم إيقافي بسبب مخالفة مرورية، وسجلت بحقي مخالفة مرورية لم أكن أتوقعها. الآن يجب أن أحضر دروسًا لتعليم القيادة حتى أتمكن من الاستمرار في استخدام رخصة السيارة. وكما تعلمين لا يمكن أن تظلي في هذا البلد بدون رخصة سيارة، السيارة هي الحياة».

«لكنَّ الوالدين...».

«سوف يأتي الوالدان بعد ظهر هذا اليوم. يمكنك البقاء إن أردتِ؛ إنهما زوجان طيّبان. سيكونان سعيدين بمقابلة أمي. ليس عليك حتى تقليد اللهجة البورتوريكية. لا يمكنهما معرفة الفرق».

جلست إزمي على كرسي منخفض جدًا بالنسبة لركبتيها، حيث سوف تشكو فيما بعد نتيجة وضعية الجلوس تلك. التقطت فنجانها من الشاي الذي ليس له مقبض، وقد حرق يدها، لكنها ممتنّة للألم الذي يصرفها للحظات عن معاناتها، ويذكّرها بأنَّ لديها جسدًا.

من خلال النظر حولها، فهمت الآن وبطريقة مختلفة الحياد الذي لاحظته عندما دخلت إلى شقّة ابنتها. المناظر الطبيعية اليابانية المنقوشة على الحائط، السجادة التي لا تشوبها شائبة، نظام الصوت، الكمبيوتر...

«وماذا عن الكليّة؟ ألا تخططين للعودة إلى الكليّة ثانية؟ في العام القادم؟» سألتْ باكتئاب لأنها تعرف الإجابة مسبقًا.

حمقاء، قالت في نفسها. في ظلّ هذه الظروف الفظيعة، لماذا تقوم بكل هذه التصرفات السخيفة وغير الهامّة؟ لكن إذا كانت تدرس، وإن كانت على الأقل تواكب دراستها... تضفي إزمي على الجامعة صفات سحرية لا جدال فيها، تمامًا مثل معظم الآباء، بما في ذلك أبناء جيلها.

«لنتأمل في كل الأموال التي سأوفّرها عليكم يا رفاق، ماما. وأقول لكما يا رفاق بصيغة الجمع، لأنكما تعلمان كما أعلم أنا، أن أبي لن يستمر في الدفع. لقد تأخر بالفعل في سداد الأقساط. في النهاية كان لا بدّ من التصرّف».

حاولت إزمي التفكير في المال، وفي مشاكل المال، وفي

الجدل الذي لن تضطر إلى خوضه مع غيدو. لكن لا يشغل تفكيرها سوى الطفل الذي ينمو في رحم ابنتها، ومغامرتها الغامضة مقابل مائة ألف دولار، هذا النوع من المغامرات التجارية التي لا يمكن مناقشتها. إنها خائفة، خائفة جدًا. وقعت عليها عواقب ليلة بلا نوم، مثل دبّ ضخم، كثيف الشعر وثقيل. فكرت بطريقة ما للبقاء قريبة من حفيدها. تستطيع أن تبلّغ عنها، وتتحدّث إلى محام: لا يمكن أن يكون هذا العقد قانونيًا إذا كان قد تمّ توقيعه بموجب مستندات مزورة. وسيتم ترحيل ابنتها، لكن هذا ليس أمرًا سيئًا، إذ ستتمكن بذلك من استعادة ابنتها. أو قد تدخل إلى السجن؟ إن ناتي موجودة في الولايات المتحدة بموجب تأشيرة طالب. إنّها ليست مهاجرة غير شرعية. هل من الممكن أن تودَع في السجن؟ لكن الطفل... كيف لها أن تستعيد الطفل؟ هناك مسألة الحمض النووي. على أي حال، سيطالب الأب بالطفل. أو ربما الأم، والأم الأخرى... لكن، إلى جانب ذلك، من هنَّ الأمهات الحقيقيات؟ هل يمكن أن تكون ناتاليا هي الأم الحقيقية، صاحبة البويضة والرحم؟ أم مجرد صاحبة الرحم؟ ألا يمكن أن تكون الأم أيضًا طرفًا ثالثًا، متبرعة مجهولة بالبويضات؟ لمن تنتمي البويضة؟ لمن تعود الحيوانات المنوية؟ هل تنتمي إلى الرجل الذي اشتروها منه؟ لأن الجنين، على الرغم من أنه لم يعد جنينًا، فهو يقترب من الشهر السابع الآن، فإن الجنين، الطفل، يعرف جيدًا إلى من ينتمي: إنه ينتمي إلى الشخص الذي دفع الثمن، الشخص الذي قام بالتواصل مع ناتاليا. هي غير مضطرة لقسر عقلها على

السكون. ساد صمت داخلي بشكل تدريجي. كانت بحاجة إلى تغيير ملابسها، وتفريغ حقيبتها، والاستلقاء على سرير. من الأفضل الهروب من هذا العالم المربك والمؤلم؛ النوم سيأخذها إلى درب مظلم وهادئ، ومن الأفضل أن تترك نفسها على هذا النحو، لتترك نفسها تنزلق برفق على الأريكة، وتغفو دون عناء، دون أن تفك حمالة صدرها، وهي ممتنة لارتداء سروال قديم، مطاطي ومريح، لتغطّ بلا تفكير في نوم بلا أحلام، إلى أن استيقظت منه على رنين جرس الباب المزعج.

قالت ناتي: «إنهما الوالدان».

«لكنني أردت أن أبدّل ملابسي، وأنظف أسناني...». وفجأة أدركت أنها تريد أن تترك انطباعًا جيدًا، لتظهر بحضور معين أمام هذين الغريبين اللذين سيأتيان لسرقتها، لتصبح للحظة امرأة قاسية وطويلة وأنيقة.

قبل فتح الباب، قالت ناتي، وهي تشير إليها بالصمت: «أنت على ما يرام كما أنتِ يا ماما».

تعرف إزمي أنه يناسب أغراض ابنتها أن تقدم لهما أمًا شعثاء قليلا، بملابس قديمة، وبعينين حمراوين وبرائحة فم كريهة. شيء يشبه الشكل المعروف للأمّ البورتوريكية التي اتّخذت ابنتها قرارًا صعبًا بتأجير رحمها، ولكن لا بدّ منه.

بينما كان الوالدان -الوالدان الحقيقيان للطفل الذي تحمله ناتاليا في أحشائها، الوالدان اللذان دفعا، أو التزما بدفع ثمن

هذا الطفل- يمشيان، كانت إزمي تتساءل: (كيف يمكن أن يكون العقد؟ هل يشمل سلفة مقدمة، أم على دفعات؟). إنهما أكثر من والدين، إنّهما المالكان، وتظن إزمي أنّها لو كانت هذه رواية، لو كانت مجرد رواية، لأمكن حذف الجزء الذي يليه. في الرواية، وفي الأفلام، ليست هناك حاجة للتعامل مع التعاقب اللعين للثواني التي تشكّل كل دقيقة من الوقت. من الممكن تخطي المشهد بأكمله والذهاب مباشرة إلى مشهد آخر، القفز في الوقت المناسب والهبوط بعد بضعة أشهر من الولادة، وبعد تعافي ناتاليا، وربما عودتها إلى الدراسة في جامعة أخرى. أو قد تكون القفزة جغرافية: قد تكون في بوينس آيرس. قد لا تظهر ناتاليا في المشهد التالي؛ وربما لا تظهر إزمي. ومع ذلك، فقد وقفت لترحّب بالسيد والسيدة دوبس بلباقة. إنه رجل قصير مفتول العضلات، من ذلك النوع الأشقر المتورد الذي يحمرّ جلده مع كل تغيير في الحالة المزاجية. حيّاها بلطف وفضول، لكنه لم يمدّ يده. لا يريد أن يلمسها. من ناحية أخرى، احتضنتها السيدة دوبس بحرارة. كان لديها شعر أملس وبشرة داكنة، وهي ترتدي الساري الهندي للدلالة على ثقافة الهند، البلد الذي لم تولد فيه، على الرغم من أنَّ والديها كانا هنديّن، كما أوضحت ناتاليا، الجدّان المحيّران للحفيد الذي سوف يضمانه بين أذرعهما، في غضون شهرين من الآن.

كل ما حدث بعد ذلك، تطوَّرَ كما في الأحلام، كما هي الحال في أحد تلك الأحلام السخيفة، والذي لم يكن بالضبط

كابوسًا، على الرغم من أنها لم تستطع إلا أن تشعر بجو من القلق يحوم فوق المشهد؛ أو ربما كانت كذبة... لا يشعر بها أحد سواها. الآخرون سعداء، معتادون على كل شيء. يبدو أن والدي الطفل يعرفان المنزل جيدًا.

السيدة دوبس تولّت أمر المطبخ. أحضرت كعكة الشوكولاتة وكيسًا ورقيًا مليئًا بالمأكولات اللذيذة، والتي رتبتها بدقة، مثل الأجبان الإيطالية والفرنسية، وسمك السلمون من ألاسكا، وكعك بالقرفة من ماركة بيبيرريدج، والتي لا تتوافق حقًا مع الأطباق المستوردة، ولكن ناتاليا تحبها، هكذا فسّرت لإزمي كما لو كانت تعتذر. السيد دوبس وزوجته يحاولان بشتى السبل أن يكونا ودودين ولطيفين؛ يحاولان إغراءها. أعدّت الزوجة الشاي الأخضر للجميع. «نفضل ألا تشرب القهوة»، تشرح الوالدة حوض الزراعة المائية حيث ينمو ابنها. لو كانت مجرد آلة -لا بدّ أن تلك المرأة هكذا تفكر- لو كانت مجرد آلة وليست إنسانًا، شخصًا آخر مجهولًا، إنسانًا ملعونًا ، امرأة أخرى، لديها رغبات وأكاذيب، وليست ابنتها، ليست ناتاليا، هكذا فكرت إزمي. من يدري ما تفكر فيه ناتاليا: في الوقت الحالي، تبدو مرتاحة إلى أبعد حدّ، ومنسجمة في دورها. إنّها تأكل قطعة من الكعكة، وتتحدث بسرور مع أصحاب الطفل الذي يتحرك في بطنها. تأخذ يد الأم وتضعها على ذلك البطن حتى تشعر بالركلات النشطة لهذا الشيء الذي يسمونه ابنهم. رغبت إزمي أن تفهم ما يقولونه، لكنهم يتحدثون بسرعة. كانت تلتقط العبارات، أو بعض الكلمات، وتلاحظ أن وجه

ابنتها المنتعش والهادئ، يتغير تدريجيًا لتظهر عليها تعابير حزن أليم، وهي تعابير غير مألوفة تمامًا. تحتاج ناتاليا إلى شيء ما، وظيفة، هذا ما تسمعه إزمي، تقف، ثم، ترى ساقين، وكشفت ناتي للسيدة دوبس عن علامة زرقاء صغيرة على ربلة ساقها، وهو شيء قد يتحول بعد ثلاثين عامًا إلى دوالي. المرأة ذات البشرة السمراء هزت رأسها في إيماءة من التفهّم والتخوّف: «لا يمكن أن تكون كذلك، لا يمكن...». تحدثت بسرعة إلى زوجها وبصوت مرتفع، كلاهما استأذنا، ثم نهضا لمواصلة المحادثة على انفراد، أغلقا على نفسيهما باب المطبخ لفترة وجيزة جدًا، ثم ظهر السيد دوبس بوجه أكثر احمرارًا من ذي قبل، وبامتعاضٍ شديد، حرّر شيكاً لصالح ناتاليا، وهي تنظر إليه بمودة حقيقية وبابتسامة، تلك النظرة الواضحة تمامًا، والتي تمكنت بطريقة ما من محو جبينه المجعد. وبعد ذلك مباشرة، أصبحت كما لو أنها لا تستطيع تمالك نفسها، كما لو كانت تشعر بنوع من عدم السيطرة على مشاعرها الطفولية قليلًا، وبردود أفعال عاطفية تنسبها أمريكا الشمالية إلى اللاتينيين، ذوي الأصول الإسبانية، كما يُطلق عليهم أحيانًا، كما لو كان ذلك أمرًا حتميًا، ألقت بنفسها على الزوجين وعانقتهما، واحدًا تلو الآخر، عناقًا لطيفًا ورائعًا، ممتنة للسيدة دوبس، وعناقًا آخر للسيد دوبس، ربما كان عناقه أكثر إحكامًا، وبقبلة خطيرة قريبة من فمه، دون أن تلاحظها السيدة دوبس، ولكن ليس من قبل إزمي، قبلة يقبلها الرجل بشكل غير مريح قليلًا، ولكن ليس بدون متعة.

شعرت إزميرالدا بدافع غريب وغير متوقع. أرادت أن تفعل شيئًا من أجلهما، للزوجين اللذين يعانيان وينتظران. رغبت في الدفاع عنهما وحمايتهما وتحذيرهما، لكن هذا مستحيل: سيفعلان أي شيء لإنجاب طفلهما، إنهما ملتزمان بالعقد، ضائعان، وتحت رحمة ذلك الرحم الذي يحتجز ابنهما كرهينة.

يوميات ٢٤

لست بحاجة إلى الكشف عن مصدر المعلومات المتعلقة برحلة الطائرة. من ناحية أخرى، قد يثير اهتمام القارئ معرفة أنني أمضيت شهرين في جامعة فيرجينيا، لتدريس مادة الكتابة الإبداعية. لقد كانت تجربة رائعة مع الطلاب الذين كانوا يتعلمون اللغة الإسبانية. في البداية، شعرت بالفزع من اللغة الإسبانية الركيكة التي كتبوا بها أجوبتهم على واجباتهم التي كنت أكلفهم بها. كان يوجد في صفي عدد قليل من الطلاب اللاتينيين، كنت أشعر بارتياح كلما راجعت إحدى مقالاتهم المكتوبة باللغة الإسبانية السليمة. وشيئًا فشيئًا، أدركت أنَّ هناك طلابًا لا يجيدون اللغة، ولكن ما كتبوه كان أكثر ثراءً وعمقًا، وابتكارًا وقلقًا، وأكثر إثارة للاهتمام من نصوص بعض المتحدثين الأصليين باللغة. لكن أليس الأدب هو محض لغة؟ ما هو الأدب، وأين هو ذلك اللغز الذي يظهر فوق وتحت قيادة اللغة؟ في هذه الأثناء، خلال عملي في هذا الفصل، دلّت بعض الحقائق الملموسة والتعسفية حول الجامعة، والتي ليس لها أي وظيفة في تطوير الحبكة، على معقولية القصة.

في نسخة معدلة سابقة، بلغت ناتاليا الحادية والعشرين، وقد بلغت سن الرشد قانونيًا لكنني قررت أنَّ تحديد موعد محدد لهذه الواقعة لا يناسب أغراضي. فعدم تحديد سنها جعل ناتي تبدو أكبر سنًا قليلًا، في العشرينات من عمرها، وأنا أفضّل أن تجري الأمور بهذه الطريقة: في هذه المرحلة، من الهامّ ألا تكون أفعالها وقراراتها مجرد أخطاء فادحة في سن المراهقة.

من الصعب جدًا بالنسبة إليّ أن أنهي هذه الرواية. أسأل نفسي -بدون أي إجابة محتملة- لماذا اخترتُ هذا الموضوع القاسي. من بين جميع العناصر التي تلعب دورًا في بناء نص أدبي، فإن الفكرة الرئيسية للنص هي الأكثر غموضًا، والأكثر استقلالية عن إرادة المؤلف المتعمدة. يصف إدغار آلان بو في كتابه «فلسفة التكوين»، بعقلانية صارمة، جميع العوامل التي أدت به إلى تأليف قصيدته «الغراب». لا يوجد إغماء رومانسي. يتم كشف النقاب عن جميع الألغاز، وتناقش بحرفية متقنة، ويتم حذف «الإلهام» تمامًا. يقّصر خطاب بو شبه العلمي في نقطة واحدة فقط: عندما يحاول شرح اختيار موضوع ما. بما أن الأمر يتعلق بالشعر، فإن الموضوع يجب أن يكون جميلًا، كما يقول المؤلف، وما هو الأجمل من موت امرأة شابة جميلة؟ هذه هي نفس الفكرة الشخصية، التعسفية، السخيفة، التي لا يمكن تفسيرها، والتي يمتلكها كل واحد منّا عن الجمال والموضوعات...

أودّ أن أكون قادرة على خداع قرائي، وأخفي عليهم كم

تبقّى على النهاية، لكن هذا مستحيل. القراء لديهم الكتاب في أيديهم ويمكنهم أن يعرفوا بسهولة، من خلال النظر إلى عدد الصفحات القليلة جداً المتبقية للقراءة، أو نسبة صغيرة، إذا كانوا يقرؤون كتابًا إليكترونيًا. الكاتبة، من جانبها، ليست غافلة عن هذا: فهي تعلم أن لدى القراء حقائق ملموسة ليتوقعوا خاتمة قريبة. إلى أي مدى يؤثر اليقين المادي في الكتابة أو يوجهها؟

مكتبة سر من قرأ

الزيارة

لم تتفاجأ إزمي عندما عرّف المتّصل على الهاتف بنفسه على أنه صديق ناتاليا. لقد انتظرت أيامًا وأسابيع عديدة من أجل سماع هذا الصوت، ومن أجل هذه المكالمة والمعلومات. هي ليست مستغربة، لكنها سعيدة. فمن غير المعتاد أن يبقى التواصل مع ناتاليا مقطوعًا هكذا لفترة طويلة. إنها الآن امرأة بالغة، وهي تتولى رعاية إزمي؛ بل إنّها تحميها بعدّة طرق. حدث في مرّات أخرى من قبل، أن لا تجيب ناتاليا على الرسائل، أو على رسائل البريد الإلكتروني، لفترة من الوقت، كما كان يتعذر الوصول إليها عبر الهاتف المحمول، لكنها دائمًا، وبطريقة ما، كانت تتواصل مع إزمي لتطمئنها، وأكثر من مرّة فعلتها عن طريق شخص ثالث، مثل هذه المرّة.

الرجل موجود في مكان قريب، كما قال، ويريد الدخول والتحدث إليها وجهًا لوجه. لا يوجد سبب للتشكيك فيه. ألقت إزمي نظرة استياء ولامبالاة حولها: إنها تريد أن يأخذ الضيف أفضل انطباع ممكن عن والدة ناتاليا، ولكن لا يمكنها

فعل الكثير في هذا الوقت القصير. لا تريد تأجيل اللقاء ولو دقيقة واحدة أكثر من اللازم. لقد قرّرت أنَّ التنظيف السريع سيكون كافيًا، قامت بإزالة الغبار عن الطاولة، وجمعت الصحف والمجلات الورقية التي تخلّى عنها الكثيرون من الناس، لكنها ما زالت تعد قراءتها شيئاً من الرفاهية.

الرجل موجود في الطابق السفلي، إنّه يرنّ الجرس على جهاز الاتصال الداخلي. منحها حضوره الأمل بعد أيام عديدة من الألم والصمت. ألقت إزمي نظرة على نفسها في مرآة الحمام، مررت الفرشاة بسرعة عبر شعرها الأشعث، لكنها لم تضع المكياج أو العطور. إن صديق ناتاليا يتمتّع بصوت شبابي، واللقاء برجل شاب يسبب لها القلق دائمًا، فقد تجاوزت الستين من العمر، وفقدان شبابها وجاذبيتها الجنسية، هذا السلاح القويّ، يجعلها تشعر بأنها غير محمية وعاجزة ومكشوفة. إنّها تعاني لكي تضمن أن الرجل (هذا أو أي رجل آخر) لن يشكّ في أيّ محاولة إغواء من جانبها. مثل جنون الارتياب العكسي، والذي يجعل المرء يخشى أن يجعل الشخص الآخر يشعر بأنه مُطارد؛ تخشى إزمي أن ينظر إليها الآخرون على أنّها امرأة مسنة مطارِدة. هذا لا يعني أنّها تتخلّى بالضرورة عن كلّ الفرص، وعن هكذا لقاءات، فهي لا تزال تلتقي بأصدقاء قدامى من الذكور، وهي منفتحة على إقامة علاقات جديدة، لكنها تفضّل الرجال الذين في سنّها أو أكبر منها بقليل. شعرت أنّها الآن بحاجة إلى توخي الحذر، الحذر الشديد.

الرجل الذي دخل منزلها الآن، لا يتجاوز عمره الأربعين أو الخامسة والأربعين، ولا شيء آخر عنه يستحق الملاحظة. إزمي مسرورة لأنها ليست مضطرة إلى وصفه، فهي لم تستطع العثور على الكلمات التي تصف بها ملامحه. إنه ليس جذابًا، ولا قبيحًا أيضًا، إنّه وجه مثل أي وجه آخر، بعينين عسليتين، وبشعرٍ بني مع خصلات رمادية اللون؛ يرتدي سروالَ جينز كلاسيكيًا وسترةً خضراء داكنة فوق قميصٍ أبيض. شكله عادي، وربما تقليدي بشكل مفرط. في البداية استهلّ حديثه بحماقة، لكنه لم يفعل ذلك لاحقًا: ثم بدأت تعابير وجهه في فضحه. نعم ، نعم، أجاب -بشيء من الثقة- على أوّل سؤال قلق لإزمي: «نعم، بالطبع ناتاليا بخير». لكنه لم يشرح أو يقدّم الكثير من التفاصيل، ولا أفصحَ عن أيّ رسالة.

في غضون دقائق قليلة، أدركت إزميرالدا أنه يكذب عليها، وأن الرجل ليس صديقًا لابنتها، وأن محادثتهما غير المجدية والعشوائية بعض الشيء لم تقدّم لها أيّ معلومات، ولا حقائق، ولا شيء مما تنتظره. على العكس من ذلك، فإن المحادثة المليئة بالأسئلة أكثر من الإجابات، كانت تهدف إلى الكشف عن معرفتها بأنشطة ناتاليا. وما مدى تلك المعرفة، كم تعرف إزمي، والدة ناتاليا، عن أنشطة ابنتها؟ لا شيء، أو أقلّ من لا شيء. هي بالكاد تراها. إنها تعرف أن ابنتها سيّدة أعمال، وناجحة جداً، بالطبع، هي عضو في مجلس إدارة في مختبر نمساوي، يحمل اسمًا يصعب نطقه، وله مراجع ممتازة على

الإنترنت. شركة تشير إليها ابنتها بقدر من الاحترام، مع أنّها لم تذكر أبدًا اسمها: فهي تقول «المختبر»، وتتباهى إزمي بذلك الاسم. لا تتباهى إزمي عادةً أمام الناس، ولكن أحيانًا تفعلها أمام أصدقائها للردّ عليهم حين يتحدثون عن ابنتها بوصفها مسؤولة تنفيذية رفيعة المستوى. فتصحّح لهم قائلة إنها ليست مسؤولة تنفيذية، بل إنها مديرة وتؤكد قائلة: إنها شريكة، وأحد المالكين. لكن ليس هذا ما تريد أن تناقشه مع هذا الرجل الذي كشف عن ابتسامة ساحرة عندما ذكرت المختبر النمساوي، والذي يعرف اسمه جيدًا على ما يبدو، ويمكنه حتى نطقه، وهو مختبر مشهور له تاريخ لا تشوبه شائبة. وهل السيدة متأكدة أن ابنتها تعمل في هذا المختبر وليس في غيره؟ نعم، أو بالطبع، إزمي متأكدة وواثقة تمامًا، وحتى لو لم تكن كذلك، فلن تخبره أبدًا؛ ليس لديها سبب لتكشف شكوكها للغرباء.

ناتاليا قديرة جدًا، ورائعة جدًا. ولم تتفاجأ والدتها بأنها تدير قسم التسويق في شركتها. منذ أن كانت طفلة صغيرة ولديها تلك الكفاءة والموهبة، والقدرة على كسب المال. كان من الممكن أن تكون خبيرة اقتصادية عظيمة إن أكملت الدراسة، لكنها لا تتحلّى بالصبر؛ فهي قد اختارت منذ سنّ مبكرة الذهاب مباشرة إلى عالم الأعمال. وهي ابنة جيدة وناجحة، ومستعدة دائماً لتقدّم لأمها مساعدات مالية، على الرغم من أن إزمي تفضّل عدم الإفراط في الحديث عن ذلك، فهي فخورة باستقلال ابنتها الشخصي. من بين صديقاتها، كانت هي أوّل

من استقلت عن والديها، وتمكنت من العيش، بعد عملية الطلاق، دون أن يؤثر ذلك على مستوى معيشتها. ونجحت أيضًا، بطريقتها الخاصة، كنجمة إعلانية. من الصعوبة عثور إزمي، في هذه الأيام، على وظيفة حرّة، لتكسب لقمة عيشها من خلال تدريس دورات الكتابة التجارية في جامعة خاصة، وهذا أحرجها أكثر مما تتصوّر، لقبول المال من ابنتها خلال السنوات القليلة الماضية، على الرغم من أن ناتي حاولت بشتى الوسائل الممكنة جعلها تشعر بأنها تكسبه، وهو أمر لم تذكره حتى أمام الرجل. الله أعلم لماذا لم تطرده من منزلها بعد. ربما لأنها تفضّل التعامل مع هذا الأمر بهدوء وبتكتم، ربما لأن الرجل يتحدث معها الآن، مما لا شك فيه لكي يلهيها عن والدتها آلسيرا، التي أكد لها أن صديقته ناتاليا (لكن إزمي لم تعد تصدق كلمة مما يقوله) تذكرها غالبًا

يجب أن تعترف إزمي (تبادل الكلمات مع الرجل كان رسميًا وتقليديًا جدًا، مما يسمح لذهنها بالتفكير دون عناء)، يجب عليها أن تعترف، ولكن لنفسها فقط، أنه منذ وفاة والدتها وهي تشعر بالوحدة بشكل فظيع، بشكل خارج عن المألوف. حينها فقط فهمت إلى أي مدى كانت تعيش في تمرّدٍ منهجي، ومعارضة لأيّ شيء تقترحه أمّها أو تقوله. والآن، بدون ملاحظات آلسيرا القاطعة حول أي شيء في هذا العالم، فقط، لم تعد إزمي تعرف ما يجب أن تفكر فيه.

ولكن ما الذي تعرفه، وما مقدار ما تعرفه إزمي حقًا عن

أنشطة ابنتها؟ أكثر مما تريد، أقل مما تتخيل. تمتلك ناتاليا شقة في بوينس آيرس، وقد أصرّت على تسجيلها باسم والدتها (الأمر أسهل كثيرًا بهذه الطريقة يا ماما... أنتِ موجودة دائمًا هنا، وعليكِ القيام من حين لآخر بالأعمال الورقية الخاصة بي). شقة فسيحة في بورتو ماديرو تتألف من أربع غرف، إنها مريحة جداً بالنسبة إلى شخصٍ واحدٍ لا يقضي الكثير من الوقت في المدينة على أي حال. إنه من دواعي سروري أن أرى ناتي عندما تعود من إحدى رحلات عملها، علماً أنها تسافر دائمًا على رحلات الدرجة الأولى. كان من الممكن أن تسعد جدتها، التي كانت تولي أهمية كبيرة لارتداء الملابس الأنيقة، كان سيسعدها أن ترى نمط لباسها، كما تظن إزمي: ملابس مشاهير المصممين، أحذية من ماركة فيرغامو، مجوهرات من ماركة بولغاري، فساتين وبدلات من تصميم مارك جاكوبس، كينزو، وأرماني، حقائب من ماركة لوي فيتون، وكل صيحات الازدهار العظيم. كانت أحيانًا تجلب معها عشاقها، فترحّب إزمي بهم سواء أكانوا من الأرجنتينيين أو من الأجانب (الآن، صار يُطلق على الجميع اسم حبيب، هكذا تفكر أحيانًا، وتتنهّد)، بنفس الحماس، وقد ظنّت أن التجربة ستتكرر، لكن لا أحد منهم عاد مرة ثانية. يبدو أن ناتاليا غير مهتمة بالالتزام. من المؤكد أنّ إزمي لم تخبر والدتها أبدًا أن ناتي تحمل مسدسًا في حقيبة يدها الجميلة من تصميم مايكل كورس، الملاحظ الآن، أن شانيل تعود إلى الموضة. آلسيرا تنتمي إلى جيل مختلف، ما كانت لتفهم ما هو انعدام

الأمن في هذه الأيام، وخطر عودة المرأة لوحدها إلى المنزل في الليل، والحاجة إلى الدفاع عن نفسها من الجريمة. بالطبع، لم تقل شيئًا من هذا الكلام (ولن تقول أبدًا) للرجل الجالس على أحد الكراسي ذي المسندين، وهو في غاية الراحة، دون أن تتم دعوته، وقد رفض القهوة، لكن بدلًا من ذلك طلب كوبًا من الشاي، وهو يرتشفه بحماس ويأكل قشر البرتقال المغطى بالشوكولاتة. أوضحت ناتاليا لإزمي، أكثر من مرّة، مشاكل وأخطار التجسس الصناعي، مؤكدة على أهمية عدم الحديث عنه للغرباء، وعدم إعطاء معلومات غير ضرورية حول أنشطتها أو رحلاتها.

لم ترغب إزمي أن تفعل أيّ شيء مفاجئ، أو شيئًا من شأنه أن يلفت انتباهه. تظاهرت بقبول كذبه، وبالاعتقاد أنه صديق جيد لابنتها. بقي الرجل لأكثر من ساعة وهو يتحدّث عن أشياء كثيرة، معلقًا على الطقس، والأثاث، وعلى صورة فرناندو ألونسو التي وضعتها إزمي فوق الأريكة. إنّه رجلٌ لطيف وهو ليس جاهلًا، يفهم في الرسم ويعرف الرسامين؛ إنه يعرف أفضل مكان في بوينس آيرس لبيع قشر البرتقال المغطى بالشوكولاتة، وهو متجر حلوى صغير بالقرب من مكتبة آل أتينيو. ويا لها من مصادفة!... إنها الحلوى المفضلة لديه أيضًا. استمرَّ في طرح الأسئلة بشرود وحماقة إلى حدّ ما. واستمرت إزمي في تقديم إجابات على أسئلته بنفس الشرود والبلاهة، وهي تتهرب ببراعة من الإفصاح عن تلك الحقائق القليلة التي

تمتلكها حول أنشطة ابنتها، مما جعلها تشعر بالفخر. على سبيل المثال، فهي لم تخبره بما تعرفه عن أنّه بالإضافة إلى الشقة، قامت ناتي بالعديد من الاستثمارات في البلاد، على الرغم من أنها تفضل -لأسباب ضريبية، كما أوضحت لها- الاحتفاظ بها باسم الشركة، وهو أمر تفهمه إزمي بشكل جيد، لأن الضرائب أصبحت تستهلك كل شيء، ولا هوادة فيها. كيف كانت تُدار البلاد في تلك الأيام الماضية في فترة طفولتها ومراهقتها، عندما كانت الدولة تُحصّل الضرائب فقط من الشركات، ولم تكن تفرض ضرائب على الأفراد، ومع ذلك كانت الأرجنتين أكثر ثراءً، والطبقة المتوسطة أكبر من الآن بكثير. كانت الأرجنتين أقرب بكثير إلى كونها سلة الخبز الشهيرة والمخزية في العالم، والتي تحدَّث عنها والداها ومعلموها. بطبيعة الحال، لم تذكر للرجل شيئًا عن استثمارات ابنتها، وكانت تحوّل المحادثة ببراعة، كلّما تطرق إلى هذا الموضوع. إن كان الرجل المحترم والغامض قد جاء للتحقيق في وضع ممتلكات ناتاليا، فلن تكون هي من ستزوده بالمعلومات.

كما أنها لن تحدّثه حول الفترة التي واجه فيها المختبر مشاكل في الحسابات، وحينها طلبت منها ناتاليا تخزين بعض الصناديق التي تلقتها، في المنزل. كانت صناديق كبيرة، وخفيفة بشكل غير عادي، وقد اختلست إزمي النظر إلى محتواها مرّة واحدة فقط، لتكتشف أنها مليئة بالعديد من الصناديق الصغيرة، لذا هي صناديق رسمية بشكل يبعث على الاطمئنان، وموسومة

بشكل جيد بعلامة تجارية لم تتعرف إليها؛ ويا لحسن الحظ أن الصناديق لم تعد موجودة في منزلها الآن، لأنها احتلت مساحة كبيرة، وكان من المستحيل تغطيتها أو إخفاؤها. لا شك أنها كانت ستثير انتباه الرجل. بعد كلّ شيء، لم يحدث هذا مرّة أخرى، وإلى جانب ذلك، فهي متأكدة، أن الأمر كان مجرد فكرة من أفكار ناتاليا السخيفة لجعلها تشعر بتحسّن، حتى تتمكن إزمي من قبول أخذ المال دون أي إحراج، كما طمأنتها ناتاليا، إن تلك الأموال ليست من جيبها الخاص، إنما من المختبر. والأمر هو مجرد أن الأعمال الورقية قد تكون معقدة للغاية في بعض الأحيان، لدرجة أنهم فضلوا منحها المال في شكل بدل سفر، حتى تتمكّن من استخدامه وفقًا لاحتياجات اللحظة.

فقط لأنها اقتنعت أن المال ليس من جيب ناتاليا، قبلت إزمي -أكثر من مرّة- أن تأخذ من ابنتها ما يعادل إيجار غرفة فاخرة في فندق بدرجة خمس نجوم، مقابل توفير غرفة في منزلها لأشخاصٍ أجانب يعملون في المختبر ويحتاجون إلى سكن مؤقت في المدينة. وأيّ فندق من فئة الخمس نجوم سيكون مريحًا مثل منزلكِ؟ كما قالت لها ناتي. كانت في المرة الأولى مفاجأة. كان اسم الرجل (المزعوم) هو أنطونيو، وقد جاء مع ناتاليا التي عرّفته على أنه أحد سائقي الشركة.

كان أنطونيو رجلًا ضخمًا وبدينًا، يرتدي ملابس رثة صغيرة عليه، بدت كأنها مستعارة أو مستعملة. تحدّث بلكنة أمريكية

لاتينية لم تستطع إزميرالدا التعرف عليها. تصرّف باحترام شديد وبامتنان. مكث لمدّة ثلاثة أيام، لم يغادر خلالها الشقة، قابعًا في غرفة ناتي السابقة. يستمع طوال اليوم من هاتفه المحمول، إلى شيء جعل إزمي تستمع إليه أخيرًا: كانت موسيقى البوب البيروفية، وهي -نوعاً ما- تشبه كومبيا الأنديز الحزينة، نغمات حزينة عن الحب الضائع.

«هل تعمل مع ابنتي؟»، سألته إزمي أثناء أوّل وجبة غداء تشاركاها. كانت قد أعدّت له وجبة طعام متواضعة، وهي عبارة عن لحم مشوي مع البطاطس والبصل. أثنى عليها الرجل وتناولها بنهم.

قال الرجل وهو يمسح أنفه بمنديلٍ متّسخ من النوع الذي ظنت إزمي أنه لم يعد له وجود: «كنت سائقها في ليما»، أضاف مستخدمًا تعبيرًا أرجنتينيًا للغاية: «ابنتك شخصية هامّة، هامّة جدًا».

وكان من غير المجدي محاولة إطالة الحديث حول موضوع العمل، لأن أنطونيو لم يكن يرد إلا بابتسامة بشفتين مطبقتين، وبالطبع لديه سبب وجيه، لأنه كان فاقدًا لإحدى أسنانه الأمامية.

كان موظفو المختبر، رجالًا ونساءً، ممن مكثوا في منزل إزمي لفترة قصيرة جدًا (لا تزيد عن يومين أو ثلاثة أيام) أناسًا صامتين. نادرًا ما يخرجون. قضوا أطول وقت من إقامتهم داخل الغرفة.

نادرًا ما حاولت إزمي التحدث بجدية مع ناتاليا. كانت ابنتها تنظر إليها بعينيها العسليتين، وتبتسم بطريقة ساحرة، تلك الابتسامة التي تعرفها والدتها منذ طفولتها، الابتسامة الشفافة البريئة، وبالتأكيد بدون أسنان مفقودة، بل بأسنان ظاهرة في صفّ متناسق مثل جدار لا يمكن اختراقه.

كانت هناك مرة واحدة، واحدة فقط، تحدثتا خلالها بجدية، وبالطبع لم تكن إزمي على وشك مناقشة الأمر، لا سيما تلك الواقعة، مع الرجل الذي يأكل الآن قشر البرتقال المغطى بالشوكولاتة، والذي لم يُفصح حتى الآن عن نفسه، لكنه يكشف شيئًا فشيئًا حقيقته كشرطي أو كمحقق شرطة: بعد ظهيرة أحد الأيام، وخلال إحدى الزيارات النادرة لابنتها، بينما كانتا تشاهدان التلفاز معًا، غير منتبهتين كثيرًا، حيث كانت ناتاليا ترتدي ملابس مريحة، وبدلة للركض، تسميها ملابس لشرب المتة، أمسكت إزمي جهاز التحكّم عن بعد، تخطّت البرامج الرياضية، وبرامج الأطفال، وقناتين من قنوات الكابل، وبعض برامج الطهي، وقليلًا عن أسماك القرش، وبعض برامج تلفاز الواقع، وبعض مشاهد التعذيب (عمليًا، كانت لكلّ القنوات الأخرى مشهد يظهر فيه شخصٌ نصف عارٍ ومقيد، وهو يئن عبر كمامة؛ ومرّت إزمي فوق هذه القنوات بسرعة، وعادت مرارًا وتكرارًا إلى القناة التي تعرض أسماك القرش، مسترخية جدًا على الرغم من صوت المعلق المشؤوم)، حتى وجدت قناة إخبارية. قالت ناتاليا، «ابقِ على هذه»، و«هذه» كانت

تعرض قصة جريمة قتل. قتل ثلاثة شبان في مركز تجاري، قال عنها المذيع بأنها جريمة ثأر، وهو أمر له علاقة غامضة بصناعة المستحضرات الصيدلانية وصناعة الكوكايين. لقد ذكروا كلمة «السلائف، أو السّلَف»، وهو مصطلح لم يعد يقصد به الأشخاص الذين حولتهم موهبتهم أو حسن نيتهم إلى حالمين قبل وقتهم، كما في الماضي؛ الآن أصبحت كلمة «السلائف» ذات دلالة إجرامية خطيرة وضارة: تحدث الصحفيون بجدية عن السلائف الكيميائية أو المركبات الأولية لإنتاج الكوكايين كما لو كانوا يعرفون بالضبط ما هو عليه الوضع. وللحظة واحدة، لحظة واحدة فقط، أسقطت إزمي شاشة السذاجة التي كانت تخفي خلفها قناعاتها؛ للحظة واحدة توقفت عن لعب دور الحمقاء، ليس أمام صديقاتها، ولكن أمام نفسها، أمام ضميرها، وباندفاع، نادمة على كلماتها بمجرد نطقها، سألت ابنتها:

«هل لكم أيّ علاقة بهذا؟».

وبشكل لا يصدق، سامحةً لنفسها للحظة، فقط للحظة، بالدخول من تلك الفجوة التي انفتحت وسط الضباب الذي يهيمن عادةً على علاقتهما وعلى محادثاتهما، أجابت ناتاليا بنفس اللهجة العادية والمباشرة:

«كلا. المختبر لا يتعامل مع هذه الأشياء. ذات مرّة أخبرتكِ أنَّ الكوكايين ليس من بين اهتماماتي. كنتُ حينها صغيرة

وحمقاء، ولا أفهم شيئاً، لكنني لم أخطئ في هذا الصدد».

وهكذا انتهت تلك المحادثة القصيرة، ولكن الواضحة. ولم تعودا إليها أبدًا، وطبعاً لن تكشفها إزمي أبدًا للرجل الذي بدأ يتخلّى عن حذره، ويقدّم نفسه رسميًا قبل المغادرة، كاشفًا عن هويته الواضحة، وقد نهض واقفًا، وقال لإزمي كلمات فظيعة، كلمات ليس لديها سبب لتصديقها.

«نحن نعلم، يا سنيورة إزميرالدا، أنه ليس لديك أي أخبار عن ابنتك منذ فترة طويلة. الأخبار التي لدينا ليست جيدة. نعتقد أنها حدثت بعد وقت قصير من زيارتها الأخيرة للبلاد، لقد حدثت مواجهة بين العصابات، وأُلقيت جثتها في البحر، ربما ألقيت من طائرة صغيرة».

غادر الرجل. أغلقت إزمي الباب بلطف، ولكن بإيماءة توضح أنها تغلقه إلى الأبد، بينما تدور تلك الكلمات في رأسها المحموم والذي كاد يفقد صوابه. إنّها كذبة، بالطبع إنّها كذبة. كانت تلك محاولته الأخيرة لجعلها تتحدّث، ويسحب منها المعلومات. من الواضح أن الرجل يعرف تاريخ العائلة. إنهم يعرفون جيدًا ما حدث مع ريجينا. إن تلك القصة عن ناتاليا ورحلة الموت تبدو كذبة ذكية، مصاغة بشكل جيد، كذبة مثالية لزعزعة استقرار امرأة عانت ما عانت منه إزمي خلال عهد الديكتاتورية، لكنه لم ينجح. ظلّت إزمي حازمة وهادئة، ولم تبكِ. حتى إنها قالت للرجل، وداعًا، بلباقة، مثل ليدي...

لقد كانت والدتها فخورة مثل ليدي.

في النهاية، ها هي وحيدة، جالسة على كرسي أخضر بذراعين، الكرسي الأكثر راحة، الذي يحمل بصمة واضحة لرأسها على مسند الرأس، بقماشه المكوّم بسبب خفّته. كرسيّ القراءة، الذي يحتويها ويحتضنها دون أن يطالبها بأي شيء في المقابل، دون أن يلحّ عليها بأي شيء، دون أن يسأل شيئًا؛ الكرسي يشبه والدتها تقريبًا، كما كانت تودّ أن تكون والدتها. حاولت إزميرالدا أن تستوعب ما تشعر به، هذا الإحساس الغريب الذي يضغط على صدرها لكنه لا يدعها تبكي. وهي تتساءل. إنّها تتساءَل -كما تساءلت مرّات عديدة من قبل، كما في تلك الليالي العديدة التي سرحت فيها أفكارها في كل اتجاه ممكن، على طول كلّ طريق- وحول السؤال المحوري في حياتها. تتساءل: كيف؟ ولماذا؟ وبأي طريقة كانت مشاركتها، ومسؤوليتها، وخطؤها الفظيع، ولكن بشكل خاص متى، ومتى، ومتى بدأ كلّ شيء؟ منذ أن توقفت عن التدخين، كان يراود إزمي حلم متكرر: في حلمها، وجدت نفسها فجأة تدخن سيجارة مدركةً أنّها سقطت مرّة أخرى، وتعلم أنها عالقة في الإدمان من جديد، وأنها هذه المرّة لن تكون قادرة على التحرر أبدًا وإلى الأبد، لكن في الحلم، لا يبدو أنها كانت تتذكر أوّل مرّة، اللحظة المحددة التي أُزيلَت الآن من عقلها. عندما أشعلت السيجارة الأولى مرّة أخرى، السيجارة المميتة، التي أعادتها إلى التدخين كما هي الحال دائمًا. وهكذا، دون

أي إجابة ممكنة، يذهب بها التفكير الآن بشكل غير منظّم، إلى الخلف وإلى الأمام، حول قصة أمومتها، وقصة حياتها، في محاولة للعثور على نقطة البداية، واللحظة الرئيسية عندما تمّ إطلاق العنان للخطأ، والرعب. وهي لا تستطيع حتى البكاء.

كان عليها أن تتصل مع غيدو لتخبره عن زيارة المحقّق، وعن كلماته الرهيبة. باعتقادها أنّه ربما سيقرّر المجيء لبضعة أيام؛ ربما سيأتي ليكون معها. ربما هو أيضًا سيحتاج إلى التحدّث والبقاء معها، والتذكّر، بدون كلام، لأن الكلمات في بعض الأحيان تكون ثقيلة وغبيّة وعديمة الفائدة مثل الذباب. لا شك أن غيدو سوف يحتضنها، تماماً كما تحتاج هي إلى احتضانه في هذه اللحظة، ليس لأنها ما تزال تحبه، ولكن لأنه لا أحد في العالم أحبَّ (يُحبّ؟) ناتاليا كما يحبّانها هي، وغيدو. بينما قررت الاتصال مع غيدو، تمسكت إزمي بمسندي الكرسي الأخضر، متكئة عليهما حتى تتمكن من الوقوف. تعثرت متجهة إلى المطبخ، دون تفكير، وهي تنفذ سلسلة من الإيماءات الميكانيكية والآلية التلقائية اللازمة لتحضير كوب من الشاي. نظرت بحقد إلى غلاية الشاي على النار، الماء الذي استمر في الغليان، حتى بدأ يتحوّل إلى بخارٍ بمجرّد أن وصلت درجة حرارته إلى مائة درجة. وكأن كلّ شيء على حاله، وكأنَّ شيئًا لم يتغير في الكون.

يقبع على صدرها إحساسٌ يحدّ من تنفسها، ويجفّف منبع دموعها، ذلك الإحساس الغريب الذي يتغلب على الألم

والخوف والذنب والحزن، ذلك الإحساس الذي ما تزال غير قادرة على التعرف عليه وقبوله.

قالت إزمي في نفسها: إنها لم تمت. ناتاليا لم تمت. إنها فقط في عداد المفقودين، فقط، فقط، وفقط هذه لا تكفي بالنسبة إليها. ما يكفي هو، وبشكل شبه مؤكّد، لدى صديق ناتاليا المحتال، الذي ظنت أنه هو «الرجل». ما يكفي هو كلمة، مفقودة، والتي توازي في الأرجنتين كلمة الموت. لم تستطع التوقّف عن التفكير في أختها ريجينا، في جثتها الكاملة، التي تمّ ترميمها بعناية من قبل دار الجنازة، حيث أخفوا جروحها بمهارة. الجثة التي قرروا تركها في تابوت مغلق لتجنب الفضول القاسي للأقارب والأصدقاء. في الأيام التي اختفى فيها المسلحون، تاركين أحباءهم تحت وطأة الشك، لقد مُنحوا امتياز امتلاك الجثة لكي يكرموها، ويودعوها، ويتذكروها. بينما الآن، عندما تمّ تقليص حالات اختفاء الأشخاص، سوى بعض المراهقين الهاربين، فإن عمليات الخطف والاستعباد الجنسي ليست أقل خطورة أو فظاعة بالنسبة لأقاربهم، ولكن بالتأكيد تمّ تقليصها إلى أعدادٍ أصغر وأقلّ تكرارًا. اختفت ابنتها ناتاليا الآن، ما الذي تشعر به؟ كيف تشعر وصخرة تقبع في منتصف صدرها، تضغط إلى الأسفل، تقيّد نبض قلبها؟ ما الذي يمنعها من البكاء، هل هو ذلك الشيء الذي ينتقل إلى الواجهة ويتضافر مع الحبّ والألم والرعب؟

ثم فجأة فهمت. لقد أدركت ما تشعر به. الفهم يقع عليها

مثل دوامة موجة متكسرة، تجرها، وتجرف جلدها في القاع الرملي للمحيط، ثم تغمرها وتخنقها وتجعلها تشكّ، ولكن للحظة فقط، في أن رئتيها كانتا ذات مرّة قادرتين على استنشاق الهواء وزَفْرِهِ.

ما تشعر به هو ارتياح، ارتياح كبير لعدم وجود ابنتها، وخوف رهيب ومريع من عودتها. الآن فقط، ملأ الحب، والألم، والرعب صدرها، وصار بإمكان إزمي البكاء أخيرًا.

مكتبة سُر مَن قرأ